وزارة الاعلام
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٣٦

نصوص ودراسات عربية وافريقية

في اللغة والتاريخ والادب

الدكتور ابراهيم السامرائي

اهداءات ٢٠٠٢
ا د/ سامى خشبه
القاهرة

وزارة الاعلام
مديرية الثقافة العامة

نصوص ودراسات عربية وافريقية

في اللغة والتاريخ والادب

الدكتور ابراهيم السامرائي

المُقَدِّمَة

أيها القارىء الكريم

هذه فصول أدبية وتاريخية تتصل بالثقافة المعاصرة وبالثقافة القديمة للشمالي الافريقي والاندلسي • آثرت أن اسلكها في هدا المجموع لتتيسر منها الفائدة ولتسهل مراجعتها ، والله الموفق للصواب •

من الأدب التونسي

اللون التقليـــدي المحافظ

لقد حجب الاستعمار الفرنسى الشمالى الافريقي عن ســـائر بلدان المشرق العربي وقد طال أمد هذه القطيعة ، فلم يتح للمغاربة على وجه العموم أن يتصلوا باخوانهم عرب المشرق الا بعد أن نفض اخواننا المغاربة عنهم ظلام المستعمر وظلمه • ولم يتح لنـــا ــ نحن المشارقة ــ أيضا أن نعرف عنهم الا ما تكتبه كتب الثقافة الفرنسية عنهم وفي هذا ما فيه من جور على الحقيقة وابتعاد عن الواقع وظلم للثقافة الحرة •

والادب العربي في تونس بسبب هـــذا الاستعمار البغيض لم يتهيأ له أن ينبعث وظل متأثرا بالاساليب القديمة • والاديب عنـد القوم هو الزيتوني • وأقصد بالزيتوني الذي تلقى العلم والادب في المعهد التونسى الكبير الجامع الاعظم جامع الزيتونة الشهير • وقد ظل هذا المعهد العظيم منارا للعلم وحاميا للعربية والحضارة الاسلامية ، وواقفا في وجه هذه الثقافة الدخيلة التي جاء بهـــا الاستعمار والتي اريد منها أن تسود في هذه البلاد المسلمة وأن تبقى فيها آثارا واضحة• ولن يتسنى لها ذلك الا بالقضاء على العربية ما وسعهم العمل •

وهذا العنف الاستعماري الذي أراد السيطرة على ثقافة امـــة بمحو حضارتها وابعادها عن اصولها العريقة ، بعث في الامة التونسية الوثبة الكبرى في الحفاظ على العربية وآدابها ، وهذا الحفاظ أو قل هذه الحماسة هي التي حملت أهـــل الادب عـلى أن يحتفظوا بما ورثوه من ثقافة ومنهج في فهم هذه الثقافة •

فاذا تهيأ للباحث أن يدرس هذا الادب التونسى فلا بد أن ينهج في ذلك منهجا علميا فيتقصى اللون التقليدي المحافظ الذي درج عليه الادباء التونسيون في مطلع هذا القرن ، حتى اذا اتيح لنفر منهم أن يتصلوا بالنهضة التي بدأت أنوارها تسطع في الشرق العربي من الناحية الثقافية ، أخذ هؤلاء بشيء من المنهج الجديد الذي سنعرض له في هذه الدراسة .

أقول : ان هذا الادب التونسى لم يكن شيئا غير الذي وجدناه في ديار المشرق ان لم يكن صورة تقليدية له . غير أن هؤلاء المغاربة قد شعروا بأنهم في اقليم يفصله عن المشرق أكثر من فاصل واحد ، وقديما كان المغاربة يشعرون هذا الشعور ، فقد كان فيهم الاديب والعالم والشاعر والمحدث والفيلسوف وغير هؤلاء من أصحاب الاختصاص . أما الحال في عصرنا الحديث فلم تكن شيئا يختلف عما كانت عليه في الاعصر الخالية ، فالتونسيون وغيرهم من المغاربة يشعرون بهذه الاقليمية الادبية ، وآية ذلك أنهم قلدوا المشارقة في تنصيب أمير للشعراء عندهم سموه أمير شعراء الخضراء . ويبدو من ذلك ان الاجماع لم يحصل على بيعة شوقي من شعراء المشرق ، وهم في ذلك يريدون أن يقولوا للمشارقة : اننا مثلكم أو خير منكم ، أو كأنهم أرادوا أن يقولوا مقالة السلف : « منا أمير ومنكم أمير » .

وهذا التونسى الذي بويع على أمارة الشعر هو محمد الشاذلى خزنه‌دار[1] من البارزين بين الشعراء التونسيين في مطلع هذا القرن.

---

(١) محمد الشاذلي خزنه‌دار من شعراء تونس . ولد سنة ١٢٩٩ للهجرة وقد نشأ في البلاط التونسي وترعرع في الترف والنعيم غير ان هذه النشأة لم تنسه الشعب التونسي فظل يتحسس بآلامه ويشيد ببطولته ومفاخره . ومن اجل هذا فقد أبعد عن اي منصب من مناصب الدولة العالية .

والنظر في شعره لا يؤيد هذا اللقب الخطير الذي بويع عليه ، فهو رصاف للقوافي ليس غير ، وما أكثر رصاف القوافي في كل مصر من الامصار ، ولكنه يرصفها بشكل جعلت محمد الفائز القيرواني ينعته « بهزار الخضراء »[٢] والخضراء تونس كما هو مشهور معروف ، وان « هذا الهزار » تفاخر به الخضراء « أرض الكنانة » في « يوم الرهان » • اذن فالمسألة مسألة سبق ورهان ، واذ كان من سبق فلا بد من قصب يحرزه السابق وقصب السبق عرش الامارة •

ولنرجع الى شيء من شعر أمير الشعراء خزنه‌دار فنسمعه يقول في « الحر » :

الحر من لا يستكين لمرهف ... فعليك خصمك مّم ويحك تتقي
واصدع بحقك في الحياة ولا تقل ... « ان البلاء موكل بالمنطق »
فالى م تستجدي وحقك بين ... شلت يد تمتد للمتصدق
تبا لمن ألف الخنوع لغاشم ... ما تلك الا شيمة المتملق
أولى وأحرى أن يبيت على ظما ... من ظل من ماء المهانة سنقي
فيم احتمالك والكوارث جمة ... ممن يراك بنظرة المتفوق
صمٌّ وعُميٌ ساخرين تطاولاً ... منا كأنّا في الورى لم نخلق

الى آخر هذه الابيات التي لم نتوقع أن تكون لناظم خامل الذكر في أيامنا فضلا عن أنها لشاعر ، بل أمير للشعراء ، فهذه الابيات أعلق بالنظم وألصق بالرصف ، فلا تقرب من مادة الفن التي تقتضي أدوات وآلات لا يملكها السيد الخزنه‌دار ، وليس في هذه الابيات

---

(٢) لقد بايع الشاعر التونسي مع آخرين الشاعر خزنه‌دار بامارة الشعر قائلا له :

أمير القوافي وحارسها ... وبلبل تونس شيخ البيان
فأنت الهزار بخضرائنا ... تفاخر مصر بيوم الرهان

الا جملة معان مختلفة متباعدة أفرغ الناظم كلا منها في بيت من عدة هذه الابيات بطريقة تقريرية حكائية لا تبعد كثيرا عما يخوض الناس فيه من شؤونهم اليومية • فأنت اذا رجعت الى هذه المقطوعة وجدتها أجزاء منفصلة لا توحي ان صاحبها قد نظر لموضوع « الحر » نظرة الفنان الذي يريد أن يصنع الصورة الموحية للحر في عالم يشقى فيه • وأين هذه الصورة التي نريدها من أبياته الاخيرة التي اقتصرت على النصيحة والعظة •

ومن المظاهر التقليدية في شعر الشاعر أنه عارض الشعراء الاقدمين • ومن الطريف أنه عارض بائية أبي نواس الخمرية المشهورة التي مطلعها :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

وكذلك فعل شوقي فعارضها قائلا :

حفٌ كأسها الحبب فهي فضة ذهب

أما صاحبنا التونسى أمير شعراء الخضراء فقد قال :

راحة النهى الطرب هاتها فلا عتب
الدنان مترعة والخمور تنسكب
والكؤوس جارية طاف فوقها الحبب
بنت كرمة جليت نعم ذلك النسب
رحبوا بآنسةٍ زفّها لنا العنب

وهكذا يستمر في وصف الخمرة ومجلسها وآلتها وما يصحب هذا المجلس من انس وقصف ولهو وغناء • والمعارضة باب من أبواب التقليد وأصحاب المعارضة يترسمون القديم وقد يأتون بالنظير في تحريف طفيف • والاغلب في المعارضة ان المعاني مستعارة من الشعر

القديم الا ما أملته ظروف الواقع الجديد .

ويجرى على هـذا النمط التقليدي شـعر أبي الحسن بن شعبان[٣] من الشعراء التونسيين في مطلع عصرنا الحديث. والتونسيون يرونه الشاعر الكبير ولكن النظر في شعره لا يخولنا تصديق هـذا الزعم فلنستمع لابي الحسن في رثاء الشاعر الامير (محمد الصالح باي) يعزي فيها السيد الشاذلي خزنه‌دار أمير الشعراء فيقول :

أمير الشعر قد عظم المصـاب	وحل بدار ندوتنـا الخـراب
وفاجأنا الزمان بفقـد خـدن	تفانت في محبتـه الصـحاب

الى أن يقول :

وكانت فيـه آمـال كبـار	فاسـدل دونهـا عنـا الحجاب
تغيب عن مجالسنا اضطرارا	فساء جميعنـا هذا الغيـاب
واظلم عنـه ذا النـادي وصدت	عن الانشـاد ألفـاظ عذاب
وكنت اسـائل الاتراب عنـه	دواما كلما عـز اقتراب
وأرجو أن تطيب لـه حيـاة	وأرجو أن تـزان به رحاب
فقالوا انه أمسـى عليـلا	فأرق مهجتي هذا الجـواب
وقالوا بات في خطر عظيم	فمس مكامن القلب اضـطراب
وقالوا مات من ألم فسحت	عيوني مثلما سـح السحاب

واذا عدت الى هذه الابيات لتقلبها فرادى وجدتها تشكو ضعف البناء ، فاذا نظرت الى البيت الثاني وجدت الشاعر يقول « تفانت في

---

(٣) ابو الحسن بن شعبان من مشاهير الشعراء التونسيين . ولد سنة ١٨٩٧ في اسرة عرفت بالنبل والزهد والتقوى . ومن اجل ذلك فقد شب على ثقافة دينية ، ثم دخل الجامع الاعظم وتخرج في « الزيتونة » العامرة .

محبته الصحاب » فاستعمل فعل التفاني الاستعمال المألوف فكأنه يريد به «الفناء» • والصحيح في دلالة الفعل «تفاني» أن يحصل الفناء كما تفني جماعة جماعة أخرى كما في قول الشاعر القديم :

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ثم انك تشعر أن الشاعر يتصيد الكلمات لتسلم له عــدة من الابيات على قافية واحدة وهو في ذلك يسلك كل مسلك وعر ، فادا قرأت البيتين الآتيين :

وأظلم عنـه ذا النادي وصـدت عن الانشـاد ألفـاظ عـذاب
وكنت اسـائل الاتراب عنـه دواما كلمـا عـز اقتـراب

تبينت ضعف التركيب في « واظلم عنه ذا النادي » وفي قولـه « كلما عز اقتراب » • ولا أريد أن اعلق على « الاتراب » الذين جعلهم وصفا للمذكر ، والكلمة لم يرد استعمالها الا في المؤنث كما في قوله تعالى : « عربا أترابا » ، وان قيل انها تصلح للمذكر •

ثم يتوجه الشاعر الى « أمير الشعر » فيذكره بيوم وفاة المرثى وكيف جاءوا به وواروه التراب بأسلوب لا يختلف عما رأيناه في الابيات التي أثبتناها ، والقصيدة في جملتها غير جيـدة • ولصاحبنا مقطوعة يبدو فيها ميل الشاعر الى النهج القديم• وهي أبيات في رثاء قطب من أقطاب الصوفية • والمتصوفة يومئذ قد فقدوا الحظوة لدى العامة ذلك أنهم شايعوا المستعمر الفرنسى • وأنت تقرأ هذه الابيات فلا ترى فيها مادة شعرية بل هي ألفاظ جرب فيهـا صاحبها صنعة النظم التي تفتقر الى عناصر الفن الاصيل • يقول الشـاعر في رثاء صاحبه :

قد عاش طول حيـاته متعبـدا في خلـوة وتبوأ المحـرابا

يتلو كتـــاب الله وهو أعـز ما يتلـــوه من قـــد لازم الآدابا
فالله جـــل جلالـــه قد خصـــه بمزيـــة يعلو بهـا الاقطابا

وما أظن ان هذه الابيات من مادة الشعر ، ولكن الناقد التونسي يعود فيعقب على هذه الابيات بأبيات أخرى تصور عواطفه نحو ذلك « القطب » فيقول :

قد كنت آمل أن أفـوز بزورة لعـــلاكم وأقبل الاقطـابا
وأنال من ذاك المحيـــا نظـرة تحيي فؤادا بالجوى قـــد ذابا
أكرم بها من زورة لو عجلت لرجعت منهـا قد ملأت وطـابا
قد كنت أرقبهـــا بلوعـة مغرم وأريد أن أشقى بهـا أوصـابا
حتى أتت أنبـــاء موتك بغتـة فبقيت بعـدك لا أسيغ شـــرابا
من ذا الذي من بعد موتك يرتجى كيما يسوق لنا الالـه ســـحابا
أم من يكون الى البلاد نصيرها ان أطلعت فيهـا السنون مصابا

تقرأ هذه الابيات فلا تثير في نفسك شيئا . فأين هي العواطف الحرار ؟ وأين هي الالتفاتة الفنية الشاعرة ؟ ولكنك من غير شـ واجد في هذه الابيات ضيق الشاعر وحرجه ومعاناته لتصيد ألفـاظ قوافيه لتتهيأ له عدة هذه الابيات التي لم تنصف الرثاء .

وشعر أبي الحسن بن شعبان لا يمكن أن يتخذ مادة للحكم له بشيء ، فهو نظم لا يصح أن يكون شعرا . من ذلك قصيدته التي أسماها « انشودة التونسي » وهي موشحة طويلة اشتملت على قوافٍ عدة ، ولنسمعه في شيء منها :

أيا تونس الانس مـــاذا الاقي بحبك من موجعـــات الغـرام
وكم لك من عاشق ذي احتراق براه الضـــنى وجفـاه المنـــام

لقد أودع الله فيـــك جمـالا   به قـــد تفردت بين البـــلاد
وأجرى بك المـاء عـــذبا زلالا   بهـام الربا وبطون الوهاد
وأكسب فيـــك الهواء اعتـلالا   فكان عليـــلا يداوي الفـــؤاد

وهذا النظم لا يفصح عن اغنية خفيفة عذبة لعاشق براه الضنى وجفاه المنام • انما يشير الى عناء صاحبها في اعداد هذه العدة اللفظية التي يعوزها شيء من لطف الصنعة وبراعة الاداء •

وقد قيد الشاعر نفسه في هذه الابيـات فجعل الاعاريض على قافية والاضرب على قافية أخرى وفي هذا أصبح سجين الالفاظ يصل اليها بجهد ويتشبث فيها بكل وسيلة فهو يقول :

أنا منـــك يا موطني في رواق   وفيـــك الهنـــا وافر مستدام
وجودك لي كان أكـرم سـاق   به ترتوى النفس بعـــد الاوام

ويختم هذا الحشد بقوله :

لتصـــبح تونس ذات اعتنـــاق   لعز ثوى اليوم تحت الرجـــام
واذ ذاك ينكف دمـــع المـآقي   واذ ذاك تحيـا حيـاة الـكرام

وما أظن هذا الضعف يخفى على الشداة •

ويستقبل الشاعر سنة ١٣٣٥هـ من سني الحرب الكبرى فيقول:

أهلا بطلعة بدر لاح في الافق   يزيل ما في نفوس الناس من فلق
لقد تجلت لنـــا أنوار طلعتـــه   والجو يختال في برد من الشفق
ومذ بدا والاسى في القلب منبعث   والجسم في تعب من شدة الارق
اني لآمل أن يبـــدو بطالعــه   للنـاس سلم به يرتاح ذو قلق
سـلم يعم بلاد الله قاطبـــة   به يزول الذي قد كان من حنق

وأن تزول الحروبات التي ظهرت بالارض حتى يسير الكون في نسق
ويصفو العيش مما حل من كدر كما صفت من فنون الزور نفس نقي
وتنزع الارض أثواب الحداد لكي تبـــدو الينا بثوب أبيض يقق

وعلى هذا النحو من البناء الركيك ينظم أبو الحسن بن شعبان قصيدته في استقبال سنة ١٣٣٥ • وليس بي حاجة الى أن أدل القارىء على مواطن الضعف ذلك أنه يعرف ان هذه الابيات تبتعد كل البعد عن الفن الاصيل •

ويستقبل سنة ١٩٣٦ من سني الحرب الكونية الاولى بقصيدة كصاحبتها من حيث البناء الذي لا ترمه مادة عامرة فهي ألفاظ صفت تستعين بشيء من الوزن • والوزن ليس كـــل شيء في الشعر ، فهو يقول :

هل لاح بدرك بالمسرة مشــرقا أم أنت مثل أخيك تنذر بالشقا
يـــدري الفتى ما مر من أيامه وسواه في الأذهان لن يتحققــا
والدهر فيـــه عجائب مكنونـــة كم جر من جيش الحوادث فيلقا
اني أرى الايــــام تعبث بالفتى وتنيله ما لا يكون الا وفقـــــا
لو يعلـــم الانســــان ما سيصيبه بغد لما لاقى (غـــدا) متشـــوقا
وتخل عن أعماله متحـــيرا في ذلك الامر الـــذي لا ينقي

الى أن يقول :

عام مضى فأتى ســـــواه وهكذا يجري الزمان بنا كراكب أبلقا
خفف خطاك أيا زمان وسر على مهل وكن بالمتطى مترفقـــــــا

وبعـــد فما أظنني قد جانبت الصواب في حكمي على الشاعر ، فصاحب هذه المقطوعات لا يمكن أن يكون في زمرة شـــعراء ، فهو

نظام والنظم غير الشعر • وما أظننا نعطي صورة صحيحة عن أدب قوم اذا استقرينا نماذجه في نظم لا يرقى الى الشعر الرفيع •

ولا بد أن نختم هذا الفصل فنأتي على أبيات تكلم فيها الشاعر على « الخلافة العثمانية والكماليين » والقصيدة لا تخرج عن المستوى الذي أشرنا اليه فهو يقول :

نلتم بفضل الدين أعظم عزة	وأردتمو لعظيمه اذلالا
وأتيتمو الامر الذي قد زلزلت	من هوله أقطارنا زلزالا
ونكبتمو الاسلام عن عمد وقد	كنتم عليه مع الزمان وبالا
أنزلتمو ذاك الخليفة من منا	زل عزة وأذقتموه نكالا
ورضيتمو ابعاده عن موطن	قضت به آباؤه أجيالا
يا مصطفى أغضبت طه المصطفى	وأضعت مجدا نلته وكمالا

ربما أيقنت معي أن هذه الابيات لا تملك من الشعر الا هذه الموسيقى • أما معانيها فكلام مما يسرده عوام الناس •

ومن التونسيين الذين لم يكن شعرهم الا نظما خلا من الكثير من أدوات الفن المقتضاة السيد حسين الجزيري[٤] •

والنظر في مختارات هذا الاديب يدل على انه لم يرزق القريحة الخصبة ولم يكن له في هذه المعاناة الا التقرير • ولنقرأ قصيدته « سائلوني » لنعرف صدق هذا القول :

---

(٤) حسين الجزيري من الشعراء التونسيين الذين انصرفوا للصحافة وكان صاحب « النديم » وهي صحيفة ادبية فكاهية اصدرها عام ١٩٢١ •

سائلوني ان رأيتم كدري ... وأردتم وقفة عن خبري
أنا مهموم حسير الطرف ما ... دام قومي همهم في الوتر
سائلوني ما الذي وقت الصباح ... دار ما بيني وبين الغرد
طائر أودى به فرط النواح ... وهو في سن أليف النكد
قلت مهلا ماالذي تشكو ؟ فصاح ... أترى مثلي أخي في رغد
كيف يسلو الوجد مقصوص الجناح ... كيف لا يبكي عديم السند
يا ترى مغتصبي كيف استباح ... هكذا حريتي من أمد
كنت أشدو في غدو ورواح ... وأنا اليوم جريح الكبد
قلت ويلي ! هذا جدّ أم مزاح ... لم يكن يخطر لي في خلد
طائر من ضره في ضجر ... وأخو الضرا بها لم يشعر
سائلوني ان رأيتم كدري ... وأردتم وقفة عن خبري
أنا مهموم حسير الطرف ما ... دام قومي همهم في الوتر

الى أن يقول :

عجيبي لا ينتهي مما أرى ... من نفوس في الملاهي مارحه
امة قد حلق العسف بها ... وهي للهو بجد جانحه
حق للاجفان أن تسقى الثرى ... وعجيب للثغور المازحه
فهي والله أهاجت فكري ... وأطالت يا لقومي سهري

وأظن أن هذه الابيات لم ترتفع عن النظم الذي ليس له من الشعر الا هذه القوافي وهذه الموسيقى : موضوع الابيات الشكوى ، والشكوى من الموضوعات العاطفية التي لو تهيأ لها صاحب الفن الموهوب لجاء بالموجع المؤلم في ثوب قد اتسق لعاطفاته الحرار .

أما السيد الجزيري فهو على شكواه الباردة التي تفتقر للدفء فقد جاء بناؤه ضعيفا يتشبث بالوزن بكل زحاف معيب ، فلا أرى شاعرا سلمت له المقدرة الشعرية وهو يقول مثل هذا :

قلت ويلي ! هذا جد أم مزاح ...

ومثل هذا لا يقوله الا الصبية المبتدئون ممن يلوكون الشعر فلا يأتون عليه الا بعد سنين من معالجة النظم .

ويدخل الشاعر السجن جزاء ما قدم لوطنه الحبيب من جليل العمل فيضيق ذرعا بهذه البيئة البغيضة ويشكو بثه ويطلق عواطفه حزينة كئيبة فيقول :

أي القلوب يرى ماقد عرى كبدي	ولا يذوب لما يلقى من الكبد
لم يبق للدهر سهم في كنانته	سهامه كلها آلت الى جسدي
آمنت بالله كم يلقى الرجال عناً	وكم يقاسون من ضر ومن نكد
وكم تقطع أسباب بهم ولكم	يعدو عليهم من الارزا بلا عدد
هو التجلد لو لا الصبر لانبعثت	نار بأفئدة من باطن الجسد
تَبَّتْ يدا زمن لا زال يرهقنا	بما يسيء لعهد الشيب بالولد
وامقت الضيم من كل النوائب ما	ينوب من يبتغي الاصلاح للبلد
يسعى لترقية الاوطان مجتهداً	فيغتدى قائلا ماذا جنته يدي
فالويل يطلبه والسجن يخطبه	يغدو رهيناً عديم الخل والسند

وعلى هذا النحو يطلق الشاعر عواطفه ، وليس من شك ان هذه الابيات لا ترتفع كثيرا عما أثبتناه في المقطوعة الاولى .

ويخاطب الشاعر العصفور على نحو ما يفعل الشعراء فيشكو

اليه مما يعاني من آلام فيقول :

غناؤك يذكي لهيباً بصدري — وما هو الا نواح الاسير
لقد كنت مثلك اذ طال أسري — ومثلك كنت أود أطير
وكنت اذا ما نظمت قريضا — يقولون عني أسير طروب
وشعري يفيض من القلب فيضا — وما الشعر الا دموع القلوب
أراك بريئاً وقد كنت أيضا — أسيراً بريئاً عديم الذنوب
فصرت اذا ما سمعتك أدرى — لشجوك معنى يهيج الضمير

تقرأ هذه المقطوعة فلا تحس حرارة النجوى ولا لذع الألم واذا افتقر الشعر العاطفي الوجداني الى الحرارة فماذا عسى أن يكون !

ثم يختم هذه المقطوعة بقوله :

يذكّر قفصك نفسي مضيقا — بذكراه تذكر نار الجحيم
فقلبي لقبلك أضحى شقيقا — وهاج بحزنك حزني القديم
لك الله اني أراك خليقا — بعطفي واني الشفيق الحميم
اذا ما أهاجك يا طير شعري — فشعرك أذكى فؤادي الكسير

وجملة هذه الابيات تفتقر فيما عدا ذلك الى البناء السليم ، فهي أبعد ما تكون عن صفاء الديباجة وهي تشعر أن صاحبها كان قد عانى كثيرا في جمع شتاتها على هذا النحو الذي لا يدعوك الى سماعه. ثم انه لايملك مادته اللغوية علىالوجهالصحيح. ألا تراه قد استعمل « أهاج » رباعيا مزيدا وكان عليه أن يستعمل الثلاثي في هذا المعنى ، لان الرباعي لا يؤدي معنى « هاج » فقد قالوا : **أهاجت** الريح النبت أي أيبسته . وهذا الاستعمال من الدارج المشهور في اللغة العامة حملا على « أثار » مما هو في معناه .

ويحب الشاعر وطنه فيشرح هذا الحب باسلوب هو اسلوب الغزل فيقول :

برى الحب جسمي فكيف العمل   وهل للاسى من حميم شفيق
يعيد الى القلب ميت الأمل   فينجى من الغرق جفني الغريق
أنا الصب لكن غرامي عجيب   أحب المزاحم في ذا الغرام
وأهوى الذي بات يهوى الحبيب   ويحرم مثلي لذيذ المنام
فأمزج حزني ودمعي الصبيب   بحزن ودمع له في انسجام
فقلب بنار الغرام اشتعل   بعمري أراه لقلبي شفيق

قلت انه يحب وطنه ولكنه لم يكن له أن يجلو هذا الحب في لون أنيق جميل • ويرى الشاعر أن الخمر أم الشر وأصل البلاء فيقول في هذا المعنى :

أفكارنا تضطرب   ممن نراهم كلبوا
فالجرم أضحى هيناً   أنواعه ترتكب
والخمر هوَّ السبب
ان البلايا كثرت   والاشقياء انتشرت
كم من رءوس كسرت   من يد قوم شربوا
والخمر هوَّ السبب
هذا قتيل مرتمى   قد عام ليلا في الدم
فتش عن المجترم   وابحث تجده يشرب
والخمر هوَّ السبب
ما دام في الناس الخمور   شيئا مباحا كالفطور
والأمن قد طار بخور   لا تنتهي ذى النوب
والخمر هوَّ السبب

نقرأ هذه الابيات فلا نرى حاجة الى صوغ هذه المعاني بهـذا القالب الشعري وما أغنانا عن سماع هذه الافكار التي لا يمكن أن تسمى شعرا ، والتي جاءت أقرب الى اللون العامي منها الى الفصيح •
ألا ترى أن الوزن لا يستقيم الا بتشديد « الواو » في « هو » على الاسلوب العامي ، ولكن ما العمل فقد حال افتقر الشاعر الى الشعر •

والشاعر لا يعلو عن هذا المستوى فكأنه ينقل بكلام معرب ما يتحدث عنه الناس اذا اضطربوا سحابة يومهم • ومن هذا البـاب قوله في وصف حفلة :

ليلـة قالوا حوت كل سـرور	وانشـراح
بنـات الخبث ربات الفجـور	في ارتياح
وأنا كنت كتنور يفـور	للصـباح
دارت الخمرة ما بين الرجـال	والاوانس
واذا القـوم تولاهم خيـال	أو مجانس
قلت ويلي انني وسـط جمال	بالبرانس
وبنـات الـدار ينظرن العجب	بالشـبابك
حاسـدات ربـة الحلى الذهب	والسـنابك
قل لرب الدار ذا داء الـكلب	قد أصابك

أقول هذا كلام عامي وان جاء فيه شيء من الاعراب الفصيح وهو من غير شك نظام بارد ضعيف لا ترقى مادته الى مستوى الكلام المقبول •

وله قصيدة شرح فيها « عجائب السجن » بأسلوب قصصي ، والذي نلاحظه في هذه القصيدة ان الشاعر قد استعمل فيها الالفاظ التي يستعملها السجناء في مطلع هـذا القرن في تونس • وهـذه الالفاظ فرنسية أكسبها الاستعمال المحلى لونا خاصا فاندست في العربية الدارجة التونسية •

هو السجن ان اسعدت يوما بزوره علمت به ما لم تكن قبل تعلم
عجـــائبه ما جاء عصر بمثلهـ ومن عجب عنـد الطليقين تكتم
ثلاثة أعـــوام قطعت بحورهـا وما لم يزل كَـم هو الله أعلم

الى ان يقول :

دنا خادم مني وظـل مفتشا جيوبي وما فيها الى الحجز صائر
وناولني من بعـــد ذلك نمرة حديدا لهـــا حد حكته البواتر
فقلت اذا للقطـــع يستعملونها نوامر قوم عنـد قوم خنـــاجر
وسلمني ذاك (القريف) لحارس تبعت خطـاه تعتريني الهواجس

فالنمرة تعنى قطعة معدنية محفور عليها رقم يخصص به الجاني عند حبسه وجمعها نوامر لانها عربت على هذا النحو من الاستعمال • والقريف هو اللفظة الفرنسية Greffier يطلقها السجناء على الكاتب •

ثم يقول :

فنظمنا « الكبران » مثنى وبعضنا توقى بمنديل له وهو صـــاحب
فأخرجت منديلي وقلت لمن معي منادل قوم عنـــد قوم سحائب

وفي هذين البيتين نقرأ « الكبران » • وما أظـن القاري يستطيع رد هـذه الكلمة الى أصلهـا بيسر ولكن النظر فيهـا يهدى الى انها لفظـة فرنسية هي Caporale وتعنى ضابط السجن • وفي البيت الثاني شيء من الاستعمال المحلي الذي لا نعرفه نحن اولمشارقة ، فالسحائب جمع سحابة. وهي لا تنصرف للمعروف من معناها الفصيح وانما تعنى الفصيح وانمـا، تعنى ما نطلق عليه « شمسية » وهي الاداة التي تستعملها توقيا من الشمس والمطـر •

ويصف الشاعر في هذه القصيدة كيف أخذ جماعة من كتاب السجن

في تحرير الرسائل للسجناء كما يصف طرفا من حياتهم فيقول :

وقد وزعوا الاقلام جمعا عليهم عدا واحداًضحى يرى وهو حائم
ولكنه قد شدّ بالخيط ريشه بمغرفة جاءت يراعا يلائم
فقلت وذاك الخيط حبرا قد ارتوى مغارف قوم عند قوم بلائم
وقد كان بين القوم شاب مطربش أقام الى أن حنكته التجارب
رأى ذات يوم أن طربوشه التوى وأعوزه التحديد والأمر واجب
فأدخل من جراء ذاك «قميلة» لطربوشه كيما تسوى الجوانب
فقلت وقلبي ضاحك أسفا معا « قوامل » قوم عند قوم قوالب

فهو يصف كيف يتهيأ الكتبة ليحرروا رسائل للسجناء ، فالكاتب يشد ريشة بالخيط والريشة معروفة وهي الاداة التي يكتب بها والريشة هذه قد شدت « بمغرفة » والمغرفة كلمة افريقية تعنى ما نطلق عليه الملعقة ، وهي من الادوات المعروفة عند الاكل • ثم ان هـذه « الريشة » صارت يراعا ، وهذه « المغارف » « بلائم » ، وما أظن ان القاري يهتدى بيسر الى مدلول هذه الكلمة الاعجمية ، وصورتها تشير الى أنها جمع غير مفرد ، وهي جمع « بلومة » على نحو ما ينطق بها التونسيون وهي تعريب Porte-Plume الفرنسية •

ويعرض الشاعر في منظومته هذه لشيء آخر فيقول : انه كان بين القوم شاب مطربش وان طربوشه قد رثّ من طول العهـد ، واعوزه « التحديد » والتحديد كلمة عامية تونسية وتعنى « الكيّ » الذي تعالج به الملابس لتجيء مرتبة أنيقة ، والكي يتم بالاداة الحديدية المعروفة ، اما اصطلاحهم « التحديد » فهو ترجمة للكلمة الفرنسية فالمكواة التي تعالج بها الملابس تسمى بالفرنسية "Fer" وهي تعنى أيضا مادة الحديد •

ويعرض الشاعر لهذه الطرفة فيذكر ان « التحديد » قد تم بوضع الطربوش في « قميلة » وهذه أخرى لا نستطيع أن نردها الى اصلها بيسر وهي تعريب

للكلمة الفرنسية Gammel وهي اناء يحمل فيه الماء وقد تم تعريبها فجاءت أيضا مجموعة على « قوامل » .

ومثل هذا استعماله « بوانت » جمع « بونته » وهي عقب « السيكارة » وهي كلمة اعجمية فهو يقول :

فتخطفها الايدي سراعاً وهكذا « بوانت » قوم عند قوم سكائر

ومن الشعراء التونسيين في هذا العصر الشيخ صالح النيفر(٥) ولابد أن نعرض لشيء من شعره فنرى قصيدته « اردنا السلام » التي يقول فيها :

بياض الهـــلال وقاني المحيط	على عزمتينا من الشـــاهدين
أردنا الســـلام وراموا الحسام	فكنا على ســـله قادريـــن
وقالوا الظبـــاة لتأديبنـــا	وســـيل الدماء يرينـا اليقـين
ورمنا اعتـدالا وراموا اشتطاطاً	وكنـا على حقنـا مذنبـــين
وأعظمْ بجرم نديهـــم أننا	لتربـة أجـــدادنا طالبــين
فكم جيشوا من طغام الوحوش	وكم من لجين لهم باذلين
وأنكر بعض احتـــلال الربوع	وبعض تولى مع الهـاربين

واجتزي بهذا القدر من قصيدة عدتها عشرون بيتاً تنسرب على هذه الوتيرة الباردة فأنت لا تجد فيها عناية بالشكل ، كما لا تلمس في أبياتهـا عمقاً في الافكار . وهي خلـو من خصائص الاثر الفني . ولا اشـك ان القارىء الناقد لا يحس ان صاحب الابيات مجهد متعب يفتش عن مادته اللفظية فلا يظفر منها بشيء ذي بال ، وهو من بعد هذا يلمّ هذا الشتيت المتنافر الذي يفتقر أحياناً حتى الى المشهور المعروف من معـاني الالفـاظ

---

(٥) الشيخ صالح النيفر من علماء الزيتونة المشهورين ، وهو من شعراء الحماسة فقد هتم بديوان عنترة . وشعره الحماسي جزل الالفاظ متين العبارة .

وصورها ، ويبلغ به الجهد الى ان يتجاوز على المشهور من قواعد النحو والصرف ، والا فكيف تحكم على متأدب لايعرف الظبى فيذهب الى « الظباء » وهي مادة لا وجود لها في مظان اللغة .

ولا أريد أن اترك هذه الابيات دون أن أقف على قوله :

ولولا القوات تبـــين الحقوق   لمـــا كان القـــوي الامين

لتدرك هذا الضعف الواضح الذي لا يهيىء الشاعرية لصاحبه .

ويفخر الشاعر النيفر في قصيدة عنوانها « الصدر أو القبر » أشار بها الى اطلاق الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم الحركة الدستورية في تونس في رمضان من سنة تسع وثلاثين والف للهجرة فيقول :

حمدنا السرى اذ طالع الصبح يفتر   وسمنا المعالي والثبات لها مهر
وطئنا السما فلتخضع الشهب للذي   نحاول وليسمح بما نرتجي الدهر
لآبائنا جيـــل فخـــاراً مكلل   لهم منه كل بر له ذكـــر
لهم عزمات طاولوا الشهب دونها   فهل عزمنا يوهى وانا البنو الغر
فلا والذي تجرى النجوم بأمره   سنثبت لو ان زلزل البر والبحر

ربما من حقه ان يفخر ومن حقه أيضاً ان يشيد بمآثر قومه فيزهى بها ويتيه على ألا نجور على الفن بسبب من هذا الفخر الذي لا يخرج عن دائرة النظم . وربما تهيأ لكثير من النظامين شيء يفوق هذه الابيات .

ويحب الشاعر وطنه ويتجلى هذا الحب في شعره كثيراً ، ولكن هذا الحب لا يعتلج في نفس الشاعر فتتأجج حماساً ينساب في قصيدة عامرة ، ولكنه لا يفارق أسلوبه ومنهجه . واذا كان أسلوب الشاعر مرآة تظهر فيها نفس الشاعر مرآة تظهر فيها نفس الشاعر متجلية بارزة ، فليس غريباً ان نرى ضآلة القدر الفني في قصيدة النيفر « وطني » التي يقول فيها :

وطني اليك فانّ كل حيـــاتي وقف عليـك ون أمتْ فرفاتي

اني بلوت الـــدهر في جريانه فوجدت كل الفوز في العزمات

ووجدت ليس الحق جانب نهجه بل ما بـــدا من جانب القوات

قالوا التمدن شـرعة اليوم التي تقضى بنبــذ تجبر السادات

وتآلف الملل العـديدة بالاخـا والسعي للمجموع لا للـذات

وفي مثل هذا الموضوع يقول الشاعر في « بث شكواه » ، وبث الشكوى ونداء الوطن من الموضوعات العاطفية التي تتيح للشاعر أن يجيد فيها وأن يقبس من الفن قبسات لو أنه رزق الشاعرية الاصيلة ، غير ان صاحبنا النيفر لم يخرج عن طريقة النظامين ولم يخرج عن نطق التقليد والحفاظ على القديم وها هو يقول :

لــي مسـتكى فأنــه سمـاء مغشـاك غضــير

فاليك تونس ما أرى لو أنها الذكرى تثير

فلـكم أنا متســـائل أين المنـاخ بـذا المسير

وأخاف ان لبى المنـون بنو البــلاد فلا نشــور

أفميت الاحيـــاء ان مـاتت مشـاعره تثـــور

الى أن يقول :

أفليس في خضـــرائنا شهم على المعنى غيور

أو مـــن أبي أروع بعـلاج كبوتهـا خبير

أو من همـــام صـادق دم حب وطنـه يفـور

وهكذا لم يوفق النيفر في بث شكواه فجاءت باردة جافة مبعثرة في مبناها ومعناها .

ومن الشعراء التونسيين في مطلع هذا القرن الشاعر محمد الفائز[٦] من شعراء القيروان وهو كسائر الشعراء التونسيين في هذه الفترة لم يخرج عن القديم في أفكاره ومعانيه ، ولكنه تميز عن غيره من شعراء تونس في تصرفه بحور الشعر مفيداً من الموشحات .

وأخذ مما ابتكره السوريون واللبنانيون المهاجرون في الدنيا الجديدة . ثم انك اذا قرأت شعر الشاعر وجدت فيه شبوب العاطفة ، وفي ذلك فق كثيراً من أقرانه من حيث صدق العاطفة ، والاصالة في التعبير عنها واليك شيئاً من « خطراته » :

يا رياض النرجس   في الربيع الناضر
فتقى في مجلسي   وابعثي من خاطري

نفحات الزهر

ناثرات رائحات

غاديات

وسط ذاك المحفل

وكؤوس الراح في   كف ذاك الاغيد
طرحت من أسفي   عبأة عن كبدي

وغدت في نظري

زاهرات حفلات

باسمات

عن حباب العسل

---

(٦) الشيخ محمد الفائز شاعر تونسي ولد في مدينة القيروان سنة ١٩٠٢ م عاصمة أفريقية منذ الفتح الاسلامي الى سنة ٣٠٣ . نشأ فيها وقرأ في كتاتيبها ثم حل في العاصمة التونسية ودخل الجامع الاعظم سنة ١٩٢١ وبعد تخرجه اشتغل بالتعليم .

يا قــوام البــان قــم غـنّ باللحــن الشــجي
واتل هاتيــك النغــم لا تخف مــن حــرج

فبنــات الفكر
خاطرات موحيات
بالحيـــاة
مثل عهد الموصلي

ومثل هذا اللعب بالشكل الذي يذكر بابتكارات شعراء المهجر قصيدته « خلني اندب » التي يقول فيها :

خل جفني باكياً في سهــري وصــباحي
لا تعنفني فما في كدري خير لاحي
واتل في لوحي سطور الخبر عن كفاحي
خلني ابكي جدودي العربا في نشيدي
انني ان لعبت ربح الصــبا بالقــدود
خلتها تبكي حياة النجبا من جدود
أعلى الرمضاء بات الشعب ام في هنــاء
أترى ندفع خطباً ان ألم بالبكـــاء
كم نقاسي من خطوب وألم في شــقاء

ثم اذا سمعت قصيدته « على قبري » تبينت صدق العاطفة الذي يشيع في شعره في لفظ رشيق ومعنى قريب الفهم :

قف على قبري اذا خلّفني اهــل ودى وتولّوا زمرا
واسقه من صيّب الدمع كما كان دمعي سابقــاً منهمــرا
وانثر الزهــر حواليه وقل هكـذا كنت تحب الزهــرا
وتحنَّنْ عنـده واشك لــه عادى الدهر اذا ما استنكرا

واذا اعوزك الصبر فنم	وترقّب زورتي عند الكرى
اني اهواك في رمسي فلا	تخش سلوانى بذياك الثرى
واذا هرولت الشمس الى	خدرها فاستجدها ان تصبرا
وذر الورق تغنيني كما	كنت من قبل اغني الشعرا
وخذ الغصن بكفيك وقل	ها هنا غصن ودادي هصرا

كما يظهر هذا اللون العاطفي في شعر الشاعر وهو يحس بما يعانيه وطن الحبيب فيقول في « صوت تونس » :

أتصبو بعد ما انصرم الشباب	وتغريك النواهد والكعاب
وتطرب والاسى وقف علينا	ونحن على المصائب لا نثاب
فشمر والتفت يوماً قليلا	الى ما كاد تبلغه الخراب
ربوع العلم ويحك دارسات	وربع اللهو ناطحه السحاب
جثا الآباء في حلق الزوايا	وهذا النشء فارقه الصواب
فما لك خادر الاعصاب نوماً	ونحوك قد تطاولت الرقاب
لقد عاف الجهالة كل شعب	وهب كأنه اسد غضاب
ومزقت الشعوب على يديها	قيود الاسر وارتفع النقاب
نهيب بنا فهل من مستفيق	وخوفى صوت تونس لايجاب

ويبدو التقليد في الادب التونسي في مطلع هذا القرن فيترسم نفر من الشعراء التونسيين خطى المشارقة فهذا الهادي المدني[7] الذي اعجب بجميل صدقي الزهاوي فصار يحكيه في طريقة النظم السهلة وفي طريقته في تسخير النظم لمعالجة ما جد في الحياة من أفكار وما ابتدع من وسائل ، كأن يتحدث عن الكهرباء وسره ومسألة الجذب والدفع فيقول في قصيدته « خواطر » :

انما هـذه الحياة خيـال	سوف يبدو حقيقة بعد حين

(٧) الشيخ الهادي المدني من الشعراء التونسيين ، ولد سنة ١٣١٨ هـ وتخرج في جامع الزيتونة سنة ١٣٤٠ هـ .

اجج الكهرباء في هذه الدنيا جنين مستتبع بجنين
انما نحن كهرباء بها نمشي وان كان اصلنا من طين
وأرى في دم الشرايين فكراً لم يزل في مواطن التخمين
خلف هذا الوجود تلقى قوى تبدو لفكر البحاثة المستبين
ان للبدر في البسيطة تأثيراً خفياً وقد بدا لعيوني
وارى الدفع علة الجذب فالدفع اذاً أصل قوة التمكين
ليس يلفى شيء احب الى نفسي وأهوى أراه مثل يقين

هذه الابيات ذات فائدة في توضيح منهج الشاعر التقليدي ، فأنت تحس أن صاحبها قد اتخذ من شاعرنا الزهاوي مثلا يحتذيه فهو يعرض لافكاره ولما صرح به من نظريات كقوله في مسألة الدفع وان قوة الدفع هي الغالبة لا كما قالوا بالجذب • ولولا اني اخبرتك ان هذه الابيات هي للهادي المدني لقطعت من غير شك بنسبتها الى الزهاوي فهي زهاوية مبنى ومعنى •

ثم لا نترك هذه القصيدة دون ان نعرض للمقطوعة الاخيرة فيها التي تبحث في مشكلة المرأة ، ومشكلة المرأة من « الزهاويات » أيضاً ، فالمعروف ان الشاعر الزهاوي كان من أنصار المرأة ، وله في ذلك شعر كثير ، وقصيدة السيد المدني هذه « زهاوية » في الشكل والمضمون • أقول : « في الشكل » لانها لا تشعر بجودة البناء وانسجام البناء مع الموسيقى الشعرية • ولنسمع السيد المدني في هذه الابيات :

وارى للنساء صوتاً سيبدو له في الخافقين اي رنين
علموهن علموهن ان المرأة اليوم ذات رأيٍ ثمين
انظروا للنساء في الغرب كيف اليوم أصبحن في قرار مكين
علموا المرأة العلوم تروها بعد حين لكم كحصن حصين
لقنوها الآداب تنبت لكم خير شباب يزهو بفكر متين
لقنوها مجد الجدود تروا ابناءها كالاسود عند العرين

أفهموهـا ان التبـاهي بالعفـة لا بالافـراط فـي التحسـين
نوّروا عقلها والا فأنتم لا تزالون في ضـلال مبـين
ان من شـل عضوه عامداً حـق عليـه سوط العذاب الهـون

ولابد ان نتعقب هذه الطريقة الزهاوية في شعر السيد المدني ، وهي واضحة في أكثر قصائده • والطريقة الزهاوية تعتمد على تقـرير أشـياء مفهـومة بأسلوب حكائي يفتقر الى الفن الأصيل • وهـاك قصيدة شاعرنا التونسي التي أسماها « أترى » :

أترى يعود المجد مجد بلادي	ام هكـذا تبقى على استعباد
أترى نهب لنيل حق ضائع	ام هكذا تبقى كثقل جمـاد
اترى بني الخضراء تنهض للعلا	ام هكـذا تبقى كثقل جماد
اترى بني الخضراء تنهض للعلا	فتعيد بعض الروح للاجساد
وتنيل تونس سؤدداً ومكانة	وتزيل أرجلها من الأصفاد
وتنيل فخـراً احكمت بنيانه	ايـدي اباة قادة امجـاد
ام هكذا ترضى حيـاة مذلة	جلّت مخازيها عـن التعداد

هذه الابيات ليس فيها من الشعر غير هذا الوزن الموسيقي • فلم يأت صاحبها الا بالالفاظ التي وصلت ببعضها فجاءت موزونة تفتقر الى عناصر عدة لتكون شعراً • أنظر استعمال الشاعر للاشارة « هكذا » في غير حاجة الى ذلك ، فقد أتى بها كما يأتي الرجل يتوكأ عليها ، وهي تشبه قـول الزهاوي في تحية العلم :

عش هكذا في علو ايها العلم فاننـا بك بعـد الله نعتصـم

وهذا اللون الادبي يفتقر الى الكثير من عناصر الشعر الحي ، وهو نظم ليس غير •

ونستطيع ان نلمح شيئاً من طريقة الرصافي الشاعر العراقي في الادب

التونسي وذلك في شعر الشاعر محمد المكي بن الحسين[٨] وذلك في الشعر الاجتماعي كأن يقول في « مكارم الاخلاق » أو يتحدث عن الفضيلة باكياً راثياً • وقد تثيره الحال في تونس وما آلت اليه من زوال مجدها القديم وحضارتها المشرقة •

لنسمع الى محمد المكي بن الحسين يقول في « مكارم الاخلاق » •

تبغي العلا وتعادي الفضل والادبا — خنت النهى ورضيت الذام والريبا
فكر بنفسك هل شمت الثناء على — سوى كريم تحرى البر مصطحبا
ان المعالي اذا ضلت معالمها — فابغ الفضيلة تستوضح لك السبيا
أنبت على حبها الأبناء من صغر — فقد كفاهم حلاها الدر والذهبا
لا تشرفن المساعي والطبائع في — سود انطباع وماء الوجه قد نضبا
وان تر العلم زين المرء فالخلق الزاكي يزين الفتى والعلم والنشبا

والى آخر هذه القصيدة التي لا تبعد كثيراً في أفكارها عما أسلفناه وهو ما يدخل في الحديث عن الاخلاق الحميدة وفضل العلم والادب • قلت اننا نلمح في شعر محمد المكي بن الحسين شيئاً من منهج شاعرنا الرصافي ، وأنا واثق أنك حين تقرأ هذه الابيات تستذكر الكثير من شعر الرصافي في هذا الباب وربما لم يفتك ان تذكر قصيدته :

هي الاخلاق تنبت كالنبات — اذا سقيت بماء المكرمات

ولابد من العود لشاعرنا التونسي لنقرأ قصيدته « دمعة على الفضيلة » :

قفا نبك من شجو يئن به الصدر — ولو حل في صخر لذاب به الصخر
شجون غدت ترمي الفؤاد نبالها — تباعاً وما أبلى معاقلها عصر
خطوب بها امسى الحشا مجمع الاسى — ومحمر دمعي لا ينهنهه الزجر

(٨) ولد الشيخ محمد المكي بن الحسين سنة ١٣٠١ في مدينة نفطة من مدن الجنوب التونسي المواجهة لصحراء الجزائر وقد نشأ في زاوية أبيه ثم دخل « الزيتونة » وقد هاجر مع اسرته الى دمشق سنة ١٣٣١ وأشتغل بالتدريس في المدارس الاهلية ، ثم رجع الى تونس سنة ١٣٣٨ •

ولست عـلى غـير الفضيلة باكيـاً انوح لمنآهـا وقـد عـدم الصبر
اقـول على رسم لها غـير باخـل بدمع بـه يخضل من وبله العفر
يجـدد تذكاري لهـا كلمـا بدا لعيني رسم او دهى مسمعي نكـر

في هذه الابيات شيء من ديباجة صافية تستند على الادب القديم . ومثل هذا كثير في شعر الرصافي الذي تشيع فيه أوابد الابيات القديمة يأبى بها على سبيل الاقتناص اللطيف لا التضمين الواضح .

ومثل هذه الديباجة الصافية نلحظها في شعر السيد علي النيفر[٩] من شعراء تونس في مطلع هذا القرن . غير أن صفاء دوبياجته شيئاً من الادب القديم ، فاذا قرأت شعره خيـل اليك انك تقرأ لشاعر من شعراء الاعصر الخالية .

ومن أمثلة هـذا التأثر بالقديم التزامه بالمعارضة على عـادة الشعراء المحافظين ومن ذلك قصيدته « في الليل » التي عارض فيهـا « الحصري القيرواني » :

الجفـن هـواك يسهّده من يسعده او ينجـده
والقلب تخوف راحتـه شـجن بالنفس تردده
والجسم يذوب عليك جوى ونبـا بي الليلة مرقده
يا بدر دجى في غصن نقـاً يسـبي الرائـين تأوده
الله نشـدتك في كلف دنف ملّتـه عـوده

وفي هذه الابيات يبدو الشاعر في منهجه التقليدي في هـذا الغزل المصطنع . ثم نقرأ قصيدته « دع ملامي » فيطالعنا شيء من الديباجة البحترية الصافية فيقول :

---

(٩) وقد ولد الشيخ علي النيفر سنة ١٣١٨ ونشـأ في اسـرة اشتهرت بالفضل والعلم وقد التحق بالجامع الاعظم وقد تخرج فيه بعـد ست سنوات واشتغل بالتعليم .

دع ملامي على الهوى فهـو دأبي ليس أمر العذول فيـه مطـاعا
أنت لم تدر ما الهوى فدع اللـو م الى أن تزيح عنه القناعـا
خلني اذكر الليـالي الخوالي وارجى لا نسهن ارتجـاعا

ومثل ذلك قوله في قصيدته « صوت من وراء حجاب » :

بنفسي صوت قد غدوت به صبـا أصيخ لـه مني المسامع والقلبـا
له موقع في السمع موقع عارض لدى ظامىء اهـدى لغلتـه شربا
اذا بلبل يشـدو على فرع ايكة يرنح عطفي من يصيخ له عجبـا
بلى صوت من اهوى على غير موعد ملا اذني دراً يساقطه رطبـا

وفي مثل هذا المنهج التقليدي نقرأ للسيد مصطفى آغه(١٠) من شعراء تونس البارزين في مطلع هذا القرن ولكنه يعيد الى سمعك الشعر القصصي الذي عرفته لدى الرصافي الشاعر العراقي في قصائده « اليتيم في العيد » و « ام اليتيم » و « المطلقة » وغيرها . وعلى هذا النحو نقرأ للسيد مصطفى آغه قصيدته « حياة البغي » :

حدثتهـا عن لعـوب معصر آنسـات جئنهـا للسـمر
قلن « ريا » يا « رباب » مالها من حليل طبـق ذاك الخبر
بل بغـيٌ احرزت منـزلة عظمت عنـد العظيم الموسـر
أكبروها مـذ رأوها قمـراً برزت في حلـة من صغـر

في مثل هذا الحوار الذي يقـوم على السؤال والجواب والحديث والاعراب ، يستمر الشاعر في عرض حكاية فتاة نصبت لها الحبائل فجيء

(١٠) ولد مصطفى آغه في مدينة « الكرم » وهي مدينة صـغيرة بالقرب من حاضرة تونس وهو حفيد مصطفى آغه الكبير مؤسس العائـلة الشهير ببطولته ووزير الحربية للمملكة التونسية في عهد الحسـينيين سنة ١٢٩٤ هـ . وهو من أصل مملوكي .

بها من عفاف وطهر الى حياة الرذيلة والعهر .

وهذا النمط الحكائي كثير في شعر مصطفى آغه ، وحديثه يدخل في باب الادب الاجتماعي . ومن ذلك قصيدته « البرىء المضطهد » وقصيدته « الزواج » التي يعالج فيها اغراء المدنية ومشكلة المهر الذي لا يطيقه طالب الزواج وفيها يقول :

سل من رمت مهج الورى احداقها   عما لقى من غدرها عشاقها
كم أحرقت كبداً بنارِ صبابة   قد حلّ في شرع الهوى احراقها
فاقت لواحظها سهام كنانةٍ   بين الوغى وقد انبرى فواقها
كسدت بضاعة صونها لكنما   راجت بحسن ظاهر اسواقها
فمن الخداع حياتها وغناؤها   اغراؤها ونفاقها انفاقها
ان القلوب اذا هوتها كلما   زادت خفوقاً زادها اخفاقها

وأنت من غير شك واجد في هذه الابيات الصنعة الواضحة في العناية بالشكل مما لا يطيقه ذوق هذا العصر ، وهي من مخلفات الماضي القريب .

الجديد في الأدب التونسى

أبو القاسم الشابي

ليس أبو القاسم الشابي مشكلة من المشكلات • لقد رزق أبو القاسم الشهرة ، شاع صيته • وكثير على امرىء أن يرزق الشهرة ولم يسلخ من العمر في هذه الدنيا الفانية إلا ربع قرن • اذن لابد أن يكون لهذا الفتى مكان هيأ له هذه الشهرة الفائقة وذلك الصيت الذائع •

صاحبنا السيد أبو القاسم شاعر تونسي ، وفي تونس شعراء كثيرون وان فاتنا ـ أن نعرف ـ نحن المشارقة ـ الكثير منهم • ولكن هذا الفتى الناحل قد بذّ جمهرة هؤلاء ، فلم يعرف في حيز هذه الخضراء التونسية حسب ، بل سبقه اسمه الى أقاليم عدة وربما قرأ له أو سمع به قوم لا يعرفون من حاله الا الشيء القليل • وأنا لا أشك في أن كثيراً من هؤلاء لا يعرف « الشابة » من أعمال الجنوبي التونسي ، ولكنه سمع الشاعر الشابي في صوت احدى مغنيات هذا العصر مرددة : اذا الشعب يوماً أراد الحياة » • ولا أريد أن أشير الى أن هذه القصيدة كانت سببا في هذه الشهرة التي أصابها الشاعر ، ذلك ان الشاعر قد اوتى هذه النعمة قبل أن تنبس شفتا المغنية بالنغم المطراب •

وقد : قلت ان في تونس شعراء كثيرين ، ومن عجب انهم لم يصيبوا ما أصاب السيد الشابي من ذيوع الاسم في تونس نفسها احياء أو أمواتا • قد تقول ان هذا الشابي قد سعى لنفسه ودعا لها وانه قد مل ما كان القوم يضربون فيه من مادة الادب فقيض له أن يعرف جماعة « ابولو » في مصر فوجد فيهم شيئا يطرب له ويصبو اليه ، فنشر شعره على صفحات مجلتهم المعروفة منذ نحو ثلاثين سنة • وكانت هذه الزمرة من « الابوليين » حاملة

راية التجديد في الادب ، وداعية الى الجديد ، فكان لهذه الدعوة انصار يؤيدون ويعضدون ، وآخرون وجدوا فيها معول هدم لهذا التراث العتيق الذي تفخر به العربية بين اللغات .

ولعـــل تونس دون سائر الشمالى الافريقي ، كانت على صلة بهـذا المعمعان الفكري . والتونسيون انفسهم كانوا بين ناصر للقديم داع للحفاظ عليه ، وآخر برم بالاساليب العتيقة التي درج عليها المتأدبون بخاصة وأهل العلم بعامة ، فجامع الزيتونة معهد تونس الاكبر يؤمه أفواج كثيرة من طلاب العلم تونسيين وأفارقة آخرين . وهو من مفاخرهم وعنوان مجدهم ، وكان له أن حفظ للعربية مكانها في تونس التي أجهز عليها المستعمر الاجنبي بخيلة ورجله وعلمائه . ولكن شيوخ الزيتونة لم يبغوا حولا عما ألفوه من أساليب الدرس العتيقة ، وان الجديد في رأيهم لون من التخليط والعبث .

وهكذا برمت النـاشئة التونسية يومئـــذ بالأدب التونسي بحدوده الضيقة ومفاهيمه التي تأبى أي لون من الوان الجديد . وقد بدأت تنفتح لهؤلاء الشبان الوان جديدة من الادب ومن الفهم الثقافي عامة ، فاتخذوا من هذه الواجهة البحرية بابا ينفرج عن العالم الحديث ، او قل عن فرنسا التي بهر ادبها العقول والقلوب ، فاما الذين يملكون مفتاح هذا الباب ، وهو الفهم الصحيح للغة الفرنسية فقد انصرفوا الى هذا المعين الاوربـــي الجديد متخذين منه متاعا طيبا للعقل والنفس ، وأما من لم تتهيأ له معرفة بالفرنسية ، وجل هؤلاء من الزيتونيين ، فقد بقي في حدوده ضجرا برما بما يقدم اليه من زاد فكري . وكان الشابي من هذا الفريق الثاني المبرم ولكن برمه بلغ أبلغ الحدود ، وربما سرى به الى النفرة من الادب العربي عامة ، كأن الذي لا يمت الى العربية بسبب . فقد غلا واستبد وبلغ به غرام الشباب وطيشه ان يجرد العرب من الادب والفن الرفيعين فقد عاب عليهم ضيق خيالهم وانصرافهم للمادة دون العاطفة وان « خيـــالهم لا يطير

بجناحين » وأن بيئتهم القاسية الجافية لا يمكن ان تمنح أهلها السمو في التصوير والتلوين ، ومن أجل ذلك لم يبدعوا في مادة « الاساطير » ابداع الاغريق والرومان وقدماء المصريين[11] . وهذه فورة من فورات الشباب العارم الثائر ، وأن هذا الذي كتبه الشابي عن العرب وادبهم لم يكتبه واحد من الغلاة ، ولم يخطر على بال أحد من الشعوبية الاولين . ولكن هذا الفتى ثائر ، وثورته قد يكون من اسبابها عدم التثبت ، وعدم الاحراز على الكفاية من مواد البحث . وقد قيل : ان المرء عدو لما يجهل .

وقد تعجب أشد العجب اذا قلت لك : ان هذا الفتى الشاعر لم يحرز على ثقافة اوربية ، ولم يتهيأ له أن يعرف الفرنسية لغة وثقافة . أذن فأين درس الادب الحديث في أنماطه الاوربية فصار يتخذ منه مادة للموازنة والمقارنة ، او قل فصار بسبب من ذلك ينعى على الادب العربي جموده وجفافه وانعدام الصور الحية فيه وافتقاره الى الجانب الانساني ؟

والجواب عن ذلك أنه كان يقرأ ما يترجم من نماذج ادبية اوربية وبخاصة في المشرق العربي ، في مصر . فقد كانت مجلة الرسالة ومجلة « الرواية » وقبل ذلك بقليل كانت مجلة « ابولو » ، وهذه المجلات قد عرفت القراء بشيء من نماذج الادب العالمي . واذا اتيح للسيد الشابي ان يعرف « لامرتين » من الشعراء الرومانتيكين الفرنسيين ، فانما ذلك قد تم له فيما قرأ من ترجمة احمد حسن الزيات لقصته « رفائيل » فصار يتحدث عن بحيرة لامرتين .

وفي الحق ان هذه الراءات لا تمكن صاحبها من التزود بالزاد الكافي من هذا الادب الاوربي بحيث يتصدر لمثل ما تصدر له الشاعر الشابي الذي اتخذ من هذا الزاد الغث معول هدم سلطه على الادب العربي ، وهنا من

---

(١١) انظر الخيال الشعري عند العرب لابي القاسم الشابي (تونس الشركة القومية للنشر والتوزيع) .

شر الثقافة الناقصة يعضدها طيش من شباب مندفع •

لقد قلت ان الشابي لم يجــد في تونس شيئا من ادب تستريح اليه نفسه ، ولكنه وجد في أدب اللبنانيين المهاجرين في الدنيـــا الجديدة شيئا يستهويه فاتخذ منه مادة وغذاء ، ثم وجد في أدب المجددين في المشرق وهم جماعة ابولو شيئا من ذلك • وهكذا تم للسيد الشابي ان يفاجىء القارىء التونسي بمادة جديدة لم تنبت في « خضرائه التونسية » فهو مجدد ابدا اذا قيس بادباء عصره التونسيين الذين لم يتهيأ لهم أن يقلعوا عن الحفاظ على القـديم في أشكاله ومعانيه ، والموازنة أو المقارنة بين أدب الشابي وأدب الجمهرة الكبيرة من شعراء تونس في تلك الفترة تؤيد هذا الذي نذهب اليه • وقد ظل السيد الشابي من المجددين مع غيره من الادباء المشارقة في تلك الفترة •

وقد تقول : انه زيتوني ونهج الزيتونة معروف في الحفاظ على القديم من الثقافة والتمسك بالتراث الاسلامي ، وطبيعي ان يكون هذا الحفاظ سرى الى الناحية الادبية فالادباء الزيتونيون في تلك الحقبة نفر لم يستقبل الجديد بعين الرضا ، وان أساليب المجددين الوافدة عليهم ان هي الا قوالب عقيمة لا تخدم الادب العربي في شيء • وطبيعي ايضا ان تبقى هذه المدرسة العتيقة آثارا في أدب السيد الشابي ، والاستقراء يدل على شيء من هذا • والنظر في « أغانيه » يطلعنا على نماذج قليلة تتبين فيها القدر الذي تأثر به مما أملتـه عليه نشأته الاولى ، فاذا قرأت هذه « اللقطات » وجدتها بين « أغانيه » فلم تلبس لبوسها ، ولم تتحل بحليتها • وهي مادة تعيد الى ذهنك ابيات المتنبي في ارساله الحكمة السائرة ، وفرائد المعري في التفاته الى سر مـــن اسرار الحيـاة ، شـامخة بوقارها وبهـائها • أنظـر مقطوعتـه التي أسماهـا « المجد[١٢] » :

---

(١٢) اغاني الحياة ص ٥٢

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى وصد الخميس المجر والأسد الوردا
ليدرك أمجاد الحروب ولو درى حقيقتها ما رام من بينها مجدا
فما المجد في أن تسكر الارض بالدما وتركب في هيجائها فرساً نهدا
ولكنه في أن تصد بهمة عن العالم المرزوء فيض الأسى صدا

ومن غير شك أنك تحصى في هذه الابيات مادة لغوية هي ليست من آلات السيد الشابي في ديوانه ، وربما عاد الى ذهنك شيء من شعر المتنبي في وصف معارك سيف الدولة « فخوض عاصفة الردى » و « صد الخميس المجر » و « الاسد الورد » ادوات لم تألفها في شعر هذا الفتى الحزين الناحل الذي يغني الحياة ويبكيها ، وما أظنك غير ذاكر قول المتنبي :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

ومثل هذا كثير في شعر المتنبي .

ونعود الى هذه « اللقطات » فنقرأ قوله « سر مع الدهر »[١٣] .

سر مع الدهر لا تصدنك الأهوال ، او تفزعنك الأحداث
سر مع الدهر كيفما شاءت الدنيا ولا يخدعنك النفاث
فالذي يرهب الحياة شقي سخرت من مصيره الاحداث

وهذا نمط آخر من ارسال الفكر على نحو ما عرفناه في شعر المتنبي واضرابه ممن ارسلت الحكمة في شعرهم ارسال الامثال كأبي تمام والمعري . والتزام « الدهر » شيء واضح في الادب القديم ، والامثلة كثيرة في مختلف العصور الادبية .

ولم يستطع الشاعر الشابي أن ينفلت من الوزن ، فلم يتصرف بالموسيقى الشعرية تصرف شعراء المذهب الجديد من انصار جماعة « ابولو » مثلا .

---

(١٣) اغاني الحياة ص ٥٢

وربما كان يرى في الحفاظ على الموسيقى الشعرية ابقاء على اهم ما يتصف به الشعر العربي • وقد تبلغ به المحافظة على الوزن أنه يعمد الى لون من الوان المعارضة فأنت حين تقرأ قصيدته « صفحة من كتاب الدموع »(١٤) ومطلعها :

غنـاه الأمس وأطربه   وشجاه اليوم فما غده

لابد أن تعود الى ذاكرتك قصيدة الشاعر الحصري القديم المشهورة التي مطلعها :

يا ليل الصب متى غـده   أقيـام الساعة موعـده

ومن عجيب ان هذا الوزن الموسيقي من بحر المتدارك قد شغف به الشعراء • والاعجب من ذلك أنهم لم يكلفوا به الا بعد قصيدة الحصري المعروفة ، فكأن الحصري قد نبه الاسماع الى هذا النغم الراقص • وما اظن أن قصيدة الحصري على رقتها وأناقتها قد لفتت الشعراء اليها لبلوغها مراقي الفن الاصيل ، والذي أراه ان خفة الوزن واطرابه قد يسرا لهذه القصيدة أن تظل عالقة في اذهان الناس من قديم الزمان الى يومنا هذا وقد شاعت معارضتها وذلك معروف • يأتي السيد الشـابي فيـدلى دلوه في الدلاء ويعارض ولكنه لم يكن مقلدا بل جاء مخلصا لفنه وأدبه باكتساء قصيدتـه هذا الثوب الجديد الذي يشيع في شعر شاعرنا الشابي ، ولكنك لا تعدم أن تقرأ في هذه الجدة الممتعة شيئا من أدب قديم فانظر اليه كيف يتحدث عن الايام فيقول :

يا للأيام فكـم سـرت   قلبـاً في الناس لتكمـده
هي مثل العاهر ، عاشقها   تسقيه الخمـر وتطرده
يعطيك اليـوم حلاوتهـا   كالشـهد ليلبسها غـده

فأنت اذا قرأت هذه الابيات وكان لك بصر بالادب القديم عرفت أن

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٠٦

السيد الشريف الرضي قد قـــال في رثاء أمه شيئا في قصيدته الباكية التي مطلعها :

أبكيك لو نقـع الغليل بكائي وأقول لو نفع المقـال بدائي

• • • •

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنـع آونـةً وللاعطـاء
طـوراً تبادلك الصفاء وتارةً تلقـاك تنكرها من البغضـاء

وقد اسلفت ان الشاعر قد شغف بشعراء المهجر ، ولابد أن يكون هـــذا الشغف قد أثر في أدبه ، ومن غير شك أن الانصراف الى الطبيعة والركون اليها على النحو الذي عمر به شعر الشابي كان نتيجة هذا التأثر الجديد ، وعلى هذا فليس لمؤرخ الادب الحديث الا أن يضع السيد الشابي مع هذه الزمرة الجديدة من مهجريين وآخرين كجماعة « ابولو » • واستقراء « أغاني الحياة » يدل على هذا المنحى الذي يجمع بين الشابي واضرابه من دعاة الجديد•

وأنت لا تقرأ « اغاني الحياة » الا عادت اليك صور من ميخائيل نعيمة وجبران وابي ماضي وغيرهم من شعراء المهجر ، فاذا قرأت معي قصيدته « جدول الحب بين الامس واليوم » التي يقول فيها •

بالامس قد كانت حياتـــي كالسمـــاء الباسمه
واليوم قد أمست كأعمـــاق الكـــهوف الواجمه

ويستمر في هذا النغم الباكي الممتع على طريقته • أقول تقرأ هـذا وتعود الى « النهر المتجمد » لميخائيل نعيمة فتحس أن شيئا متقاربا يجمع بين صاحبنا التونسي وشعر ميخائيل الذي قال في « النهر المتجمد » قصيدته باللغة الروسية ثم ترجمها الى العربية قائلا :

يا نهر هـــل نضبت مياهـــك فانقطعت عن الخرير

أم هـــل هرمت وخـــار عزمك فانقطعت عن المسير

ولكن النغم يتدفق كموسيقى وترية عندما يسيل النهر في فصـــل الربيع كما يقول جورج صيدح[15] ، ثم يقارن بين النهر وبين قلبه الذي ينتظر الربيع عبثا :

يا نهر ذا قلبي أراه كمـــا أراك مكبـــلا
والفـرق انك سـوف تنشـط من عقالك وهـولا

هذا مثل من كثير من الامثلة التي زخر بها شعر السيد الشابي والتي تعيد الى سمع القاريء صورا مهجرية يستدل منهـــا الى ان بين الشاعر الشابي وشعراء المهجر صلة الفن الذي يجنح في طريق واحد .

وبعد فالشابي من شعراء العربية الكبار الذين رزقوا الشهرة لما قدموا من روائع الادب ولما انصرفوا اليه من اجادة الفن والخلوص اليه ، والفناء فيه ، والنظر في ديوانه « اغاني الحياة » يسعف على تأييد هـــذا القول ، والا فماذا عساك ان تقول وأنت تسمع الشابي في « صلواته في هيكـــل الحب »[16] قائلا

عـذبة أنت كالطفولة كالاحلام كاللحـــن كالصبـاح الجـديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كـالورد كابتســام الوليـــد
يا لهـا من وداعة وجمـال وشـباب منعـــم املـــود
يا ابنـة النور انني أنا وحـــدي من رأى فيـــك روعـة المعبـود
فدعيني أعيش في ظلـك العـذب وفي قرب حسنك المشـهود
عيشة للجمال ، والفـن والالهـام والطهـــر والسـنا والسـجود
عيشـة الناسك البتول يناجي الرب في نشـوة الذهـول الشـديد

(١٥) جورج صيدح ، ادابنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ص ٢٤٧
(١٦) اغاني الحياة ص ١٢٩

لاشك انك تقرأ لشاعر اوتي الشاعرية فأصاب من ذلك بسهام عدة وان كنا نأخذ عليه انه استعار مادة لا تمت الى بيئته الاسلامية ، الا ترى ان الهيكل من مصطلحات العمارة في الكنيسة النصرانية • وما ارى ذلك الا من تأثره بهذا النمط المهجري الذي اسلفنا الكلام عليه • ولا أدري كيف جمع بين « الناسك الذي يناجي الرب » و « البتول » ذلك ان «البتول» المرأة التي انقطعت عن الازواج او التي انقطعت لله تعبدا وتنسكا فهي العذراء التي أخلصت لله فهي صفة لمؤنث • ومثل هذا التجاوز اللغوي كثير في شعر السيد الشابي ، الا تراه في القصيدة نفسها يقول :

خطوات سكرانة بالاناشيد وصوت كرجع ناي بعيد

فاستعماله « سكرانة » مأخوذ من المستعمل المألوف غير الفصيح ذلك ان الوجه فيه (سكرى) ، وما اظن ان الشاعر استعمل الكلمة جريا على لغة بني أسد في اجازتهم تأنيث « أفعل » على « فعلانة » •

وعلى هذا النحو من التجاوز جاء قوله في قصيدته « الغاب »[17] :

والى اناشيد الرعاة مُرَفّة في الغاب ، شادية كسرب يمام

فقد التجأ الى « مرفة » مريدا بذلك « رافة » واستعمال الرباعي من هذا الفعل غير وارد ، والثلاثي هو المعروف المألوف ، اما التجاؤه للرباعي فلم يكن الا مراعاة للوزن وهذه الهنات لا تضير بناء السيد الشابي الانيق المنسجم، ونماذج الادب الجميل في شعره كثيرة اجتزأت منها بهذا القدر اليسير في هذه الالمامة الموجزة التي لم أرد منها ان تكون دراسة مسهبة وافية علما مني أن مادتي لا تعين على ذلك فينبغي أن يكون من ادواتي شيء آخر افتقر اليه في هذه الالمامة القصيرة ورحم الله الشابي •

ومن آثار الجديد في الادب ما نلمحه في شعر السيد سعيد ابو بكر[18]

---

(١٧) اغاني الحياة ص ١١٨

(١٨) ولد سعيد ابو بكر في مدينة « المكنين » على الساحل الشرقي التونسي سنة ١٨٩٩ .ولم يتهيأ له ان يتثقف ثقافة عالية ولكنه زود نفسه بالمعارف التي حصل عليها بدرسه وجده •

من الشعراء التونسيين في هذه الفترة •

اقول : الجديد في الادب التونسي ولا اريد بالجديد الشيء الذي ابتكر في الادب التونسي ولكني أقصد بالجديد ما قصدته في الكـــلام على شعر ابي القاسم الشابي ذلك ان صاحبنا أبو بكر قد أحب اللون الجديد في الادب المهجري وتأثر به كما حصل لصاحبنا الشابي •

ويبدو هذا التأثر في موشحات أبي بكر التي خرجت عن المألوف المحافظ من الادب التونسي في هذه الفترة ولنســـتمع الى قصيدة الشاعر « ايها الليل » :

فوق هذا التل عن هذي الرمال — في انفرادي
ها انا ما بين فرسان الخيل — عن جوادي
ارمق الليل بعـين الانذهال — وهـو هادي
انت يا ليـــل حبيبي وأنا — في ارتياحي
ان لي فيــك سويعات هنــا — وانشـــراح
ولذا أبدو اذا كنت هنـــا — غـــير صاح
انت تدري
هكـــذا ارنو بعيني للســـما — نحـو بدري
فاستمع مني حديثـاً عندمـــا — ضاق صدري

وفي هذا النغمات تأثر واضح بالاسلوب المهجري في نجوى الليل مـع الالتزام بهذه العناية في النظام •

ايه يا افق الرزايا والنقم — لا تخن عهدي
ههنا وحدي اناجيك نعـم — ههنـا وحدي
أنت شوك ناعم في لمسه — طبّب الاوجاع
انت يوم مطرب في حسه — شنفَ الاسماع
انت موت مخرج من رمســه — ميتـاً قـد ضاع

ان يكــن فيــك انتقالي للعدم   والهنا بعــدي
ههنــا وحــدي اناجيك نعــم   ههنــا وحــدي

ثم انا قرأت قصيدته « الغصن المجرد » بدا لك هذا التأثر بالاسلوب المهجري :

يا غصن كم غنت عليك بلابــل الروض الجميـــل
من نغمــــة فيهــا ارتيــاح للمتيــم والعليــل
يا غصن كم لعب النسيم بمـــا لــديك مــن الورق
فلعبت مثله بالعقــول تعنتــاً وبدون حــق

الا ترى انك ذاكر قصيدة ميخائيل نعيمة في « النهر المتجمد » التي يقول فيها :

يا نهر هــــل نضبت مياهــك فانقطعت عن الخرير
ام قد هرمت وخــــار عزمـــك فانثنيت عن المسير

وبعد فهذا جهدي في استقراء ما زال مفتقرا الى اشياء كثيرة ، والكمال معوز ولكنني ماض في هذا السبيل املا في المزيد من البحث والاستقصاء في استجلاء الادب في هذا الجزء من المغرب العربي •

ويبدو هذا التأثر في موشحات ابي بكر التي خرجت على المألــــوف

ربما انصرف ذهن القارىء الى اني سأتكلم على اللغة العامية الدارجة في تونس ولكنني لم اقصد الى هذا ، وان كانت هذه الالوان العامية حرية بالدرس والبحث عملا بالمنهج العلمي في درس اللغات دراسة تاريخية تعين على فهم شيء من تاريخ فصيح العربية •

وقد تهيأ لي ان اقضي في تونس ما يقرب من سنة كاملة ، فكان لي ان المت بشيء يتصل بأدب القوم وطرف آخر من معارفهم وأسلوبهم في الكتابة ولم اقتصر على النظر في هذه الامـــور فقد استوقفني لغة الصحيفة اليومية بما فيها من خبر سياسي ، وآخر يتعلق بما يجري بين الناس فــي

معاملاتهم وشؤونهم الخاصة وما يعرض من امور • ولم اقتصر كذلك على النظر في هذه الابواب في هذه الفترة التي نباشرها من تاريخنا المعاصر بل تخطيتها الى النظر في الصحف والمجلات التي ظهرت في عهد ما قبل الاستقلال •

وهذه الفترة الاخيرة مفيدة لنا نحن المشارقة الذين ضرب المستعمر بيننا وبين اخواننا في الشمالي الافريقي • وقد قلت اني وقفت على أشياء كثيرة تتصل بلغة التونسيين فرأيت ان اسجلها واشير اليها خدمة للتاريخ اللغوي • ولم ارد ان اسلك في هذا البحث مسلك التخطئة فادل على مكان التجاوز للفصيح في هذه الاستعمالات التونسية ، ذلك ان هذه الاستعمالات التونسية فصيحة وان عرض لها شيء يبعدها عن الفصيح المشهور فقد اتصفت بلون من الاقليمية أو قل المحلية • ولهذا أسباب سأعرض لها عند الكلام على هذه الاسعمالات • ولا اريد ان انهي هذه المقدمة القصيرة دون أن اشير الى ان هذه العربية التونسية قد حفلت بشيء من الفصيح القديم الذي ندر استعماله في بلاد المشرق •

يشيع في هذه اللغة صيغ عربية لم تجر على نحو ما نصت عليه كتب اللغة او على نحو ما جرى الاستعمال به في غير هذه الديار فمن ذلك :

« الفعل حجر » فالمعروف ان استعماله ان يجيء ثلاثيا مجردا والقاعدة اللغوية تجر على انه اذا سمع المجرد فلا يلجأ الى المزيد الا لفائدة مقتضاة • ولكن التونسيين يستعملون هذا الفعل بصيغة التضعيف فيقولون مثلا « حجرت » الحكومة الافطار العلني في خلال شهر الصوم » •

او انك تقرأ على لافتة في الطريق « وقوف السيارات محجر هنا » ومعنى هذا ان صيغة المضعف من هذا الفعل هو الفصيح الجاري عندهم فهم يستعملونه كما يستعملون سائر الصيغ التي تأتي منه كاسم المفعول مثلا •

هذا هو الاستعمال التونسي اما الفصيح المشهور فان الفعل « حجر »

الثلاثي المجرد يعني « منع » الحجر هو المنع وفي لغة التنزيل : « ويقولون حجرا محجورا » اي حراما محرما فقد استعمل الثلاثي المجرد في صيغة اسم الفعل ومنه قولهم « حجر القاضي يحجر حجرا » اذا منعه من التصرف في ماله • وفي حديث عاشه وابن الزبير : « لقد هممت ان احجر عليها » هو من الحجر المنع ، ومنه حجر القاضي على الصغير والسفيه اذا منعمها في التصرف بمالهما •

وينبني من هذا الفعل وزن « تفعل » فيقال تحجر على ما وسعه الله • أي حرمه وضيقه وفي الحديث « لقد تحجرت واسعا » أي ضيقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك وقد حجره وحجّره •

وينصرف المضعف من هذا الفعل الى معان أخرى فيقال : حجر القمر اذا استدار بخط دقيق من غير ان يغلظ ، وكذلك اذا صارت حوله دارة في الغيم • والتحجير أيضا ان تسم حوله عين البعير بميسم مستدير ومن هذه الاستعمالات التونسية الفعل « تحصل » على وزن تفعل وهي تدخل في الباب المتقدم الذكر • يستعمل التونسيون هذه الصيغة ولا يفطنون الى أن المجرد يغني عنه ويسد مسده ، وليس من ضرورة تستدعي اللجوء الى هذه الصيغة فهم يقولون مثلا « تحصلت الحكومة على النتائج الباهرة في مقاومة التخلف الاقتصادي » فيعدون الفعل بـ « على » كما تعدى الفعل المجرد حصل بهذا الحرف نفسه • وهذه الصيغة غير معروفة على هذا النحو في الفصيح المشهور ذلك انهم يقولون « تحصل الشيء » بمعنى تجمع وثبت وهذه الزيادة في هذا الفعل قد نقلت الفعل الى معنى اخر • ومن هذه الافعال التي ترد في الاستعمال التونسي على نحو خاص الفعل « وقع » • ولابد من النظر في هذا الفعل فقد كثر استعماله بشكل يدعو الى التأمل كان يقال « المسألة التي وقع بحثها » ولا يقال المسألة التي بحثت • ويقولون : (المشكل الذي وقع النقاش فيه) وانت واجد مثل هذا الاستعمال

في الصحف والمجلات والكتب العلمية وهو من الكثرة بحيث يجب الوقوف عليه • وأظن ان هذا الاستعمال قد حصل في العربية التونسية بسبب التأثر بالاستعمالات الفرنسية واللغة الفرنسية ذات اثر في الاستعمال التونسي كما ستتبين •

ومن هذه الافعال ايضا الفعل « اطرد » والتونسيون لا يستعملون المجرد الفصيح المشهور الذي يغني عن هذه الصيغة المزيدة فيقولون مثلا : « اطرد العامل من عمله » وفي الفصيح المشهور الطرد الابعاد والرجل مطرود وطريد اما الفعل « أطرد » فله استعمال خاص فيقال « أطردت الابل » أي امرت بطردها ، وفلان اطرده السلطان اذا امر باخراجه عن بلده قال ابن السكيت : « أطردته اذا صيرته طريدا وطردته اذا نفيته عنك » وقلت له : اذهب عنا • وابن شميل يقول اطردت الرجل أي جعلته طريدا لايأمن • فأنت ترى ان صيغة « اطرد » تفيد فائدة وهي تؤدي خصوصية معنوية لاتأتي من المجرد «اطرد»•ومن هذه الاستعمالات التونسية قولهم « أقتبل » فخامة الرئيس الموفد التجاري على الساعة العاشرة صباحا » وفي هذه الجملة نجد الفعل (اقتبل) فيثير استغرابنا ، ذلك اننا لم نألف هذه الزيادة في الفعل (قبل) والمراد منها (استقبل) المشهور الشائع وفي كتب اللغة : (اقتبل) امره اذا استأنفه فالاستعمال التونسي استعمال خاص لم تذكره معجمات العربية وكتب اللغة الاخرى •

ثم انك تلمح في هذه الجملة شيئا اخر ذلك هو استعمال حرف الجر « على » للدلالة على الظرفية ، والمشهور المعروف ان الحرف « في » هو الذي يؤدي هذه الظروف الزمانية وليس لنا ان نلجأ الى التأويل فنقول ان الحرف « على » تضمن معنى «في» فنقول بالتضمين الذي يشيع في حروف الجر ذلك ان الخروج التضميني لم يؤيده السماع •

ومن هذه الافعال التي يتجاوزون في استعمالها الفصيح المشهور الفعل

« أبهر » ويريدون به الثلاثي « بهر » فيقولون مثلا « ابهرت » بما شاهدته في التقدم العلمي « وكان الاصوب والارشق أن يقال بهرت » •

وزيادة الهمزة في هذا الفعل تنقل الفعل الى معان اخرى كما تنص على ذلك كتب اللغة ، فالفعل « أبهر » استغنى بعد فقر ، وأبهر تزوج سيدة وهي البهيرة ، وأبهر الرجل اذا تلون في اخلاقه دماثة مرة وخبثا اخرى •

وقد نقرأ في الصحف التونسية ولا سيما ما ظهر منها قبل الاستقلال قولهم : « ذكرت الرصيفة الثريا خبر استقالة الوزارة » وفي هذه الجملة بنوا من الفعل « رصف » لـلى « فعيلة » للدلالة على ما نستعمل في عربيتنا السائرة في ايامنا لفظة « الزميلة » وهو استعمال خاص بهم لا يدرك الا بهذا التوسع في دلاله الفعل « رصف » •

ومن الفاظهم الاصطلاحية كلمة «التصبير» وهي كلمة تدل على الوان من الوان الصناعة الحديثة وهو اصطلاح لا تعرفه في المشرق وانما نستعمل (التعليب) ومعناه خزن الفواكه واللحوم والخضر في الصفائح المعدنية واستخدامهم هذا الاصطلاح لا يخلو من اساس لغوي معروف فاصل الصبر الحبس وكل من حبس شيئا فقد صبره ومنه الحديث : نهى عن المصبورة ، ونهى عن صبر ذي الروح والمصبورة التي نهى عنها هي المحبوسة على الموت • وفي حديث آخر في رجل امسك رجلا وقتله آخر : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر أي احبسوا الذي حبسه للموت حتى يموت كفعله به • قال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو اذا نفس الجبان تطلع

فأنت ترى انهم بنوا مصطلحهم من فكرة الحبس الذي يؤدي بالفعل « صبر » كما ان (التعليب) في استعمال المشارقة جاء من (علبة) والعلبة في اللغة قدح ضخم من جلود الابل • وقيل العلبة من خشب كالقدح الضخم يحلب فيها • ومازال العراقيون يستعملون العلبة للاناء الذي

يضعون فيه اللبن الخاثر ، وهي من خشب •

وانت تقرأ في كتبهم الفقهية مثلا « يجوز لمتسوغي اراضي الدولة ان يمتعوا بالفوائد التي تضمنها فصول القانون » والمتسوغ من مصطلحاتهم القانونية فهو المستأجر ويبدو ان هذا الاستعمال قديم في لغتهم •

و « الفصول » عندهم تقابل « المواد » القانونية في اصطلاحنا •

وتأخذ الصحيفة اليومية فتقرأ في الصفحة الاولى: « خطاب الممثل القار للجمهورية التونسية في ندوة الامم المتحدة» • وتعيد قراءة هذه الفقرة فتقف على كلمة « القار » فتلمح فيها شيئا لم تألفه ، ثم تعرف ان التونسيين يريدون بالقار كلمة « الدائم » أي الممثل الدائم • فقد بنوا من الفعل « قر » على وزن فاعل للتعبير عن هذا المعنى وما أظن ان هذا الاستعمال يوصلهم الى ما يريدون بيسر • وهذا لون من الوان التوسع في الاستعمال •

وربما يدفعك حب التطلع فتقرأ الاخبار القضائية فتقرأ فيها : « القرار المخدوش فيه » ويريدون بالخدش على سبيل المجاز لطعن كما في استعمالنا « القرار المطعون فيه » •

وللقوم اساليب خاصة في التعبير عن شؤونهم وما يضطربون فيه وهده التعابير وان كانت عربية فهي موسومة باقليمية محلية فأنت تقرأ في الصحيفة التونسية « ازدان فراش السيد فلان وعقيلته بمولود ذكر اسمياه محمدا » فهذا اللون من التعبير لا نجده الا في الصحف التونسية •

وقد نجد في هذه العربية التونسية شيئا آخر هو ان المادة العربية الفصحة استعملت في دلالة جديدة لا تمت الى الاصل بسبب او قل ان المادة الفصيحة قد احالها الاستعمال الى مادة عامية دارجة • ومن ذلك مادة (شيح) فيبنون منها الفعل (شاح) واسم الفاعل (شايح) لتدل على الجفاف واليبس فاذا قالوا : لحم شايح فيريدون به (جاف) وشاحت الفاكهه جفت ويبست •

واذا رجعنا الى كتب اللغة نجد مادة « شيح » ودلالتها على الحذر والجد والشائح والمشيح والشيح هو الحذر الجاد ولا نعلم وجها للتقريب بين الفصيح والمستعمل الدارج •

وقد تقرأ من استعمالاتهم ما ينبني على اصول قديمة ولكنهم استخدموه بشيء من التوسع لاغراض جديده ومن ذلك ما نجد احيانا في الصحف من استعمالاتهم (الوسق) بمعنى التصدير للبضائع • والوسق بالفتح للواو وكسرها هو حمل البعير ، وهو ستون صاعا ، والوسق وقر النخلة ، ووسقت الشيء أسقه وسقا اذا حملته • وفي لغتنا التجارية التصدير للبضاعة ويقابله الاستيراد ، ولكن التونسيين يعدلون عن الاستيراد الى التوريد • قال ابن سيده تورده واستورده كوّردة •

وتقرأ في هذا الباب قولهم « وردت الحكومة البضائع الى ثبتت صلوحيتها » (للاستهلاك) ويريدون بالصلوحية الصلاح ، والمصدر من (صلح) صلاح وصلوح وليس من حاجة الى المصدر الصناعي « صلوحية » لان هذا المصدر اكثر ما يلجأ اليه في المصطلح الفني •

وهناك الفاظ ذات مدلولات تونسية اصطلاحية غير معروفة عند المشارقة مثلا ومنها : « التربص » ويراد به ما يراد بالكلمة الفرنسية stage وما يصطلح عليه « بالدروة التدريبية لا كتساب الخبرة والتجربة في فن من الفنون • وليس من سبيل الى استعارة « التربص » في هذا المعنى الا بالتوسع البعيد • ومثل هذا المصطلح : « المناظرة » بمعنى الاختبار والامتحان للحصول على السابق في النتيجة وفي هذا مجاوزة وابتعاد عن الامتحان والاختبار اللذين يراد بهما النجاح ليس غير • على ان في أخبار الادب القديم ما يشبه استعمال التونسيين لهذه الكلمة كالمناظرة بين الكسائي وسيبويه مثلا •

وتقرأ في الصحف التونسية « السلم العالمية » و « استتبت السلم » وهو خلاف المشهور من تذكير السلم في لغة المشارقة وكتب اللغة تشير الى جواز

هذا الاستعمال فقد جاء في لسان العرب السلم بفتح السين وكسرها : الصلح يذكر ويؤنث • وقد وردت هذه الكلمة في لغة التنزيـــل فجاءت بكسر السين في سورة البقرة كما جاءت بفتح السين في سورة الانفال « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » وقد جاء ضمير الغيبة الذي يعود للسلم مؤقتا في هذه الآية • كما جاءت بفتح السين واللام في اربع لغات اخرى في سور مختلفة •
وترى التونسيين يستعملون الفاظا لا نجدها في استعمالنا المشرقي ولكنها فصيحة تثبتها معجمات العربية فانت تقرأ في صحيفة مـــن صحفهم : ان التاجر الفلاني يزف البشرى الى (حرفائه) والحرفـــاء جمـــع حريف وحريف الرجل معامله في حرفة • والحريف يقابل الزبون في لغة المشارقة وجمعت على زبائن كما هو الدارج المألوف واستعارة الزبون لهذا المعنى شيء مولد ، وكتب اللغة لا تثبت هذه الدلالة فالناقة الزبون وهي التي تدفع حالبها • والفصيح القديم كثـير في اللغة التونسية فهم يطلقون (الشارع) على الطريق الضيق الواسع (والنهج) على الطريق الذي دونه و (الزنقة •) على الطريق الضيق الذي لا ينفذ (Impasse) واكبر الظن ان هذه الكلمة الاخيرة تقابل الزقاق في استعمالنا وهي قريبة منها في الاشتقاق • والزقاق بضم الزاي السكة يذكر ويونث وقيل الزقاق الطريق الضيق دون السكة على ان (الزنقة) قد وردت في فصيح العربية وهي ميل في جدار في سكة او عرقوب واد ، والزنقة السكة الضيقة وفي حديث عثمان من يشتري هذه الزنقة فيزيدها في المسجد •

ويستعملون (الاحواز) جمع حوز للدلالة على الجهات القريبة مـــن المدينة الكبيرة كما نستعمل (الضواحـــي) او (الارباض) او ما شابه ذلـــك فيقولون مثلا (تونس والاحـــواز) يريـــدون العاصمة ومـــا جاورهـــا • والحـــوز في كتب اللغة مـــا انضـــم الى الدار من المرافق ، والمنافع وفي الحديث : فحمى (حوزة الاسلام) أي حدوده ونواحيه • وهكذا

استعملت الكلمة التونسية بشيء من التوسع للاستفادة منها في هذه الدلالة الجديدة • وفي التنظيمات الادارية تجد ان المدينة الكبيرة يطلق عليها « الولاية » وصاحب الولاية « هو الوالي » والولاية والوالي من الكلمات التي استعملت قديما وظلتا مستعملتين الى العهود القريبة الماضية وكان على الولاية قبل فترة الاستقلال « القائد » ويأتي بعد الولاية في التنظيم الاداري (المعتمدية) وهي اصغر من الولاية ومعنى ذلك ان الولاية يتبعها (معتمديات) عدة ، وصاحب المعتمدية هو (المعتمد) وهذا من المصطلح الجديد الذي لا نراه في غير تونس وكان على هذه الشعبة من التنظيمات الادارية في عهد الحماية التونسية (الكاهية) ثم تأتي (المشيخة) للقصبة الصغيرة وصاحبها هو الشيخ • وقد تسمع في تونس وغيرها من الشمالي الافريقي الفاظا في هذا الباب لا تعرف لها اصلا ومن ذلك : « الدشرة » للجماعة الصغيرة المستوطنة في مكان معين وهي لا تدخل في التنظيمات الادارية الرسمية ومثلها « المداشر » في المعنى نفسه للمجتمعات الصغيرة • ومن المناسب ان نعرض للالفاظ المتعلقة (بالوظيف الحكومي) ونقول الوظيفي الحكومي وليس الوظائف الحكومية كما هو المسموع عادة • وفي هذا الباب مادة كثيرة لم نعرفها في غير أقطار الشمالي الافريقي بصورة خاصة ولابد ان نأتي على هذا الجانب من هذه المادة اللغوية وهو :

١ - مدير المراسيم لرئيس الجمهورية هو الموظف الكبير الذي يكلف امورا معينة كاستقبال ضيف كبير او ما اشبه ذلك وهي تقابل عندنا مدير التشريفات أو شيئا يشبه ذلك •

٢ - كاتب الدولة وهو منصب معروف في تونس و (كاتب الدولة) عندهم هو (الوزير) عندنا • كأنهم عدلوا عن الوزير وهو كلمة واحدة الى هذا التركيب الاضافي تقليدا وترجمة للكلمة الفرنسية في هذا الباب (Secretaire d'Etat) وعلى هذا الاساس ايضا لم تكن لفظة الوزارة

في جـــدول مناصبهم الرسمية فهي (كتابة الدولة للتربية القومية) •
وأود أن انبه الى ان الوصف بكلمة (القومية) أو (القومي) ورد كثيرا في اسماء الادارات الرسمية وشبه الرسمية نحو (الصندوق القومي للضمان الاجتماعي) • و (الجامعة القومية لاتحاد النقابات) وهذا الوصف لا يرمز الى شيء من معناه المتعارف عندنا من الديـــار الشرقية فهو مقابل للكلمة الفرنسية (National)

٣ ـ كتابة الدولة للفلاحة ، والفلاحة عندهم هي (الزراعة) في الميادين الرسمية وفي اللغة العامة ، و (الفلاح) عند التونسيين هو غـــير العامل في الارض كما هي الحال عندنا ، فهو المالك للارض والمنتفع منها والمستثمر لها فلا يقولون : (زارع) او (زراع) او كما تقول في استعمالنا الشائع اليوم (مزارع) وهكذا جاءت (الفلاحة) في كثير من مصادرهم التاريخية القديمة وقد استعمل ابن خلدون في المقدمة (الفلاحة) ولم يستعمل (الزراعة) مثلا •

٤ ـ (مصلحة الاستخلاص) نجد لفظة (الاستخلاص) مستعملة كثيرا لغرض فني فالمراد بها (الاستحصال) للرسوم والضرائب مثلا ، كان تقرأ (استخلاص الاداءات القارة) وقد تقرأ (قباضـــات الاداءات القارة) و (القباضة) تعني المكان الـــذي تسلم فيه (الاداءات) والاداءات هي (الضرائب) التي يجب اداؤها ، أما (القارة) فقـد مرت بنا واسلفنا الكلام عليها • وقد تكون « القباضة » الادارة التي يستلم منها الموظفون مرتباتهم الشهرية •

٥ ـ (المكتب الجهوي لجراحة التقاعد) والمـــراد (بالمكتب الجهوي) المكتب الذي ترجع اليه شؤون الجهات والاقاليم غير العاصمة وقـد يطلق على هذه (الجهات) (الافاق) كما يقال : فلان من محامي الافاق) أي مختلف الجهات ما خلا العاصمة •

(والجهوي) نسبة الى (جهة) • وهذه النسبة غير معروفة في الفصيح المشهور فكأنهم ردوا الى الكلمة المحذوفة وهـــو الواو ، والفصيح فيها عدم رد المحذوف اذا كان المحذوف فاء لا لاما فالنسبة الى (عدة) (عدي) ومثل هذا التجاوز مانرى من النسبة الى (وحدة) في ايامنا هذه فيقولون : (فلان وحدوي) أي من انصار (الوحدة) للوحدة بين الدول العربية ، وزيادة الواو قبل ياء النسب لم تجر على الوجه الصحيح ، والفصيح هو (وحدي) أما (الجراية) فهي المصطلح الذي لم يشع في عصرنا فهو المعين المرسوم من نقد او عين •

٦ ـ (القيم العام) وهو ما يقابله في الفرنسية Surveillant general وهو مسؤول في المدارس الثانوية عن النظام وعن أمور اخرى وهو يساعد ناظر المدرسة في ذلك •

٧ ـ (المتفقد) هو ما يقابل عندنا (المفتش) وعندهم متفقد للتعليم الثانوي ومثله للتعليم الابتدائي وغير ذلك مما يمس دائرة التفتيش في مجالات عـــدة •

٨ ـ (الحجرة التجارية للحاضرة) وقد عدلوا عن (الغرفة) التي يستعملها اهل المشرق في هذا الامر • وما اظنهـــم ارادوا التمييز بين الحجرة والغرفة من حيث الاصطلاح اللغوي • (والحاضرة) عندهم هي مدينة تونس دون سائر المدن الاخرى فاذا اطلقت فهم المـــراد من لفظة (الحاضرة) ولم يختلط الامر بالحواضر الاخرى •

٩ ـ (الرائد الرسمي) وهي الجريدة الرسمية سميت بهذا الاسم تمييزا لها من كونها تختلف عن الجرائد الاخرى •

١٠ـ (الصبايحي) وهو من اعوان الوالي يقوم بشؤون الوالي نحو سجن الموقوفين او غير ذلك •

١١– (المطلب) ويقابل (العريضة أو الطلب) عند أهل المشرق وربما كان من اثر الترجمة من الفرنسية فهو (Demande) وهم يقولون مثلا : (على المترشحين للمدارس الثانوية ان يعمروا المطالب الضرورية) ولفظ (التعمير) يقابل (التحرير) عندنا وهذا شيء لا نعرفه من معنى التعمير •

الالقاب العسكرية

ما زالت هذه الالقاب تحفل بالدخيل الاجنبي من تركي قديم الى فرنسي جاء به الحكم الاستعماري • ومن ذلك مثلا (الشاوش) و (الباش شاوش) و (الامير الاي) • (والـيوزباشي) و (القائممقام) و (الكوميسار) وغير ذلك •

مصطلحات الجامع الاعظم

(هو جامع الزيتونة) الشهير في التاريخ التونسي وهو صفحة من الصفحات المشرقة ، والمعهد الاول لتونس • ولهذا المعهد مصطلحاته وألقابه فعندهم :

١ – (الشيخ) ويطلق على خريج الجامع الاعظم وعلى من يباشر التدريس فيه •

٢ – (الاهلية) وهي شهادة الدراسة الابتدائية في المعهد •

٣ – (التحصيل) وهي شهادة الدراسة الثانوية وتقابل البكلوريا •

٤ – (العالمية) وهي شهادة الدراسة العالية وتقابل الليسانس في الانظمة الحديثة •

المصطلحات القضائية

للتونسيين مصطلحات خاصة بهم في هذا الباب لابد من تسجيلها ومن ذلك :

١ ـ (محكمة التعقيب) التي يطلق عليها في جهـــات عدة من الشرق (محكمة التمييز) او (محكمة النقض والابرام) كما في مصر •

Le Trebunal correctionnel

٣ ـ (سابقية الاضمار) من الالفـاظ الاصطلاحية في القضـاء التونسي ويقابله (سبق الاصرار) في اللغة القضائية في المشرق العربي •

٤ ـ (تهمة التمعش بالخنا) ويراد بالتمعش الاحتراف أي العيش بالخنا وفي صوغ هذا المصدر توهم بأصالة الميم مع حذف الياء • وقد جاءت الميم من المصدر (معيشة) ولا نعـــرف لهذا التوهم وجها ولـــم يستعمل الا في هذه القرارات القضائية التونسية ، والعربية في غنى من الوقوع في هذا الدرك •

٥ ـ (التدليس) وهذا من الالفاظ التي ترد في الاحكام التونسية كأن يقال : (حكـــــم على فلان بجريمة (التدليس) في الشهادة او (التدليس) في الحساب مثلا ، والمراد بالتدليس هنا (التزوير) الذي يشيع في اللغة القضائية في المشرق واستعمال التدليس فصيح قديم في هذا الباب والذي نعرفه ان من كتب ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ رسالة في (طبقات المدلسين المسمى تعريف اهـــل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس) •

٦ ـ ويقولون مثلا : (تركبت الهيئة العليا للمحكمة من ستة اعضاء) واستخدام التركيب في هذه الجملة ممـــا لـــم نألفه نحن المشارقة ذلك اننا نقول (تألفت الهيئة العليا) •

٧ ـ ومن هذه المادة ما نقرؤه في الصحف من الاعلانات ، ومن ذلــك (يعلن السيد ••• ان بتة كراء مخزنين عـــلى ملك احد المعمرين ستتم يوم الجمعة ٢٠ ففري) • وفي هـــذه الفقرة نعرف ان (مناقصة) باصطلاحنا المشرقي لايجار مخزنين ستنتهي في التاريـخ

المذكور ، ثم ان المخزنين (على ملك احد المعمرين) أي ان المالك لهما احد المعمرين والمعمرون هم Les Colons في الفرنسية أي الفرنسيون الذين استوطنوا تونس فعمروا لانفسهم المزارع الكبيرة والمتاجر الضخمة .

الأسلوب المترجم في اللغة التونسية

تأثرت العربية التونسية الحديثة بالاساليب الفرنسية في التعبير ولم تكن العربية التونسية بدعا في هذا التأثر ، ذلك ان العربية الحديثة بصورة عامة قد اكتسبت شيئا نتيجة هذا الاسلوب المترجم .

وهذه الترجمة تبدو بوضوح في لغة الخبر السياسي الذي نسمعه من المذياع وفي كثير من الاساليب الصحفية .

فاذا أصغيت الى المذياع التونسي وحان وقت اذاعة الاخبار سمعت المذياع يقول : والان تستمعون الى الجريدة الناطقة . ويريد بالجريدة الناطقة (نشرة الاخبار) والجريدة الناطقة نقل للتعبير الفرنسي .

ثم نسمع في هذه الاخبار ان (الجند الفرنسي قد اعتدى على التراب التونسي) ويراد (بالتراب) الارض التونسية أي ان الاعتداء قد حدث في الارض التونسية . واستعمال (التراب) مقابل للتعبير الفرنسيTerritoire

وفي هذه الاخبار ايضا : (ان الرئيس قد قام بمسعى لفائدة السلم الجزائر واستعمالهم (لفائدة السلم) يريدون به (من أجل السلم) ومجيء الفائدة جاء من ترجمة للفرنسية

ثم تسمع المذيع يقول : (اتصل الرئيس ببرقيات من طرف تعاضديات للفلاحين والصنائعية ..) واستعمال الفعل (اتصل) على هذا النحو شائع في اللغة التونسية وربما كان لترجمة عن الفرنسية . ثم ان استعمالهم (من طرف) ويريدون به (من لدن) او (من قبل) كان نقلا للتعبير الفرنسي de la part . والتعاضديات استعمال تونسي مقابل لـ Coopérative

وهي التعاونية في اصطلاحنا • اما الصنائعية فهي جمع يريدون به الصناع وهذا الجمع لم نسمعه في غير تونس من اقطار العربية •

ثم تسمع ايضا ان (الوزير قد قابل طائفة من الاطارات الحزبية) فتستغرب كلمة (الاطارات) وتراها جديدة على سمعك ولم تدر انها ترجمة للتعبير الفرنسي cadres ولفظة Cadre تعني الاطار في معناه الحسي وهي الاداة المعروفة • ولكن الفرنسيين يتسعون في دلالته فينقلونه مجازا الى معنى آخر ويريدون به الافراد المتعلمين الفنيين الذين يؤلفون العناصر الضرورية في التنظيمات الاجتماعية بصورة عامة وهكذا فان التونسي ينقـــل اللفظة الفرنسية فيجد اللفظة المقابلة لها في العربية في معناها الحسي • ولا يكتفي بذلك بل يتوسع في هذه العربية على طريقة المجاز كاتوسع الفرنسيون فـي لفظتهم وهذا شيء لا تسيغه العربية كثيرا فلكل امة مجازاتها وطرقهـــا الخاصة في التعبير •

ومن هذا الاسلوب المترجم جاء في العربية قولهم (كونغولي) و (طوغولي) في النسبة الى (الكونغو) والى (الطوغو) من الاقطار الافريقية• واللام في هاتين النسبتين ليست جارية على قواعد النسب العربية فهي زائدة ، وهي غريبة ، وهي من الفرنسية • ومثل هذه النسبة استعمالهم (الكترونيكية) في قولهم (الآت الكترونيكية) فالكاف الثانية في الكلمة من Electronic الفرنسية في والصحيح ان تكون الكلمة في العربية من دون الكاف الاخيرة التي جيء بها في الفرنسية للوصف الذي هو مثل النسب في افادته للوصفية فيقال (آلات الكترونية) •

ومن هذا الاسلوب المترجم استعمالهم للظرف (أين) في غـــير الاستفهام مثلا (سيقام الاحتفال في بطحاء الحكومه اين يخطب الرئيس) • والصحيح ان يستعمل الظرف (حيث) ولكنهم تأثروا بالظرف المستقبل في الفرنسيه في مثل هذه الحال وهو Ou

ما يتعلق بالزراعة والنبات من الالفاظ

نلمح في هذا المجال مادة لغوية خاصة جديرة بالتسجيل والنظر ، ذلك ان تونس بلد زراعي يعتمد على الزراعة الاعتماد الكلي •

فمن هذه المادة اللغوية ما تعلق بالارض المزروعة فالارض الكبيرة المعدة للزرع يسمونها (هنشير) ولا نعرف في مواد العربية شيئا من هذا • وربما كانت الكلمة من المخلفات اللغوية القديمة فقد حفل التاريخ التونسي بلغات عدة كالرومانية والفنيقية واللهجات البربرية • وقد حدثني العالم الجليل السيد حسن حسني عبدالوهاب ان الكلمة كانت تطلق على المواقع التي هي مكان للعاديات والنفائس العتيقة ثم استعملت الاستعمال الاخير الشائع •

ويسمون الارض المعدة للزرع والتي تسقى من بئر تنصب عليها واسطة لايصال الماء (السانية) وهذه الكلمة ذات أصل فصيح فالسانية في معجمات اللغة الغرب وأداته • والسانية الناضجة وهي الناقة التي يستقي عليها • وفي المثل سير السواني سفر لا ينقطع • وعن الليث : السانية وجمعها السواني ما يسقى عليه الزرع ، والحيوان من بعير وغيره • وقد سنت السانية تسنو سنوا اذا استقت • وها نحن نرى ان السانية الغرب وأداته ثم توسع فيها في فصيح العربية فصارت تطلق على الحيوان الذي يستقى به ، ثم توسع التونسيون فيها فصاروا يطلقونها على الارض التي تسقى بهذه الطريقة •

ومن هذه لفظة (الكرد) في العراق وهي مادة غير عربية ومعناها الاداة التي تنصب على بئر أو حفرة يجتمع فيها الماء الذي مصدره النهر ثم يستعان بالحيوان على ادارة عجلة هذه الاداة فيرمى بالماء في أوعية مربوطة بالعجلة • أقول توسع في مدلول هذه الكلمة فأطلق (الكرد) أو (الكرود) بصيغة الجمع على الارض التي تسقى بهذه الطريقة ثم صار المشتغلون بهذه الارض (كرادة) على صيغة المبالغة •

ويزرع التونسيون (الزيتون) وقد اشتهرت تونس بزيتونهـــا منذ أقدم العصور • وفي تونس من اصول الزيتون ما يرجع الى عدة قرون وهم يسمون ما يظهر منه من دون ان يتعهده الانسان بالزرع (الجالي) والمادة عربية فصيحة ولكننا لا نعرف هذا الاستعمال في مدلولات الكلمة الفصيحة •

ويسمون حاصل الزيتون (الصابة) وربما كانت ما يصيبه الفـــلاح من هذا الثمر المبارك •

واشتهرت تونس في كونها تنتج الفواكه الحمضية كالليمون والبرتقال وغيره وهذه الثمار تدعى (الحوامض) في الديار الشامية والعراقية ويدعوها المصريون (الموالح) أما التونسيون فيسمونها (القوارص) وهي المصطلح العلمي والتجاري عندهم على ان لفظ (القارص) يطلقونه على الليمون الحامض citron دون غيره • أما الليمون الحلو فيسمونه (الليم) •

ومن فاكهتهم (العوينة) لما يدعى بالفرنسية prunnes على ان التونسيين قلما يستعملون لفظ (الفاكهة) أو الفواكه وانما يعدلون عنها الى (الغلة) او (الغلال) بصيغة الجمع ، فاذا قيل عصير الغلال فالمراد به عصير الفواكه وانصراف (الغلــة) الى هــذا المعنى استعمال تونسي وتخصيص للـكلمة بشيء دون غيره وحقيقة (الغلة) في كتب اللغــة : الدخل الذي يحصل من الزرع والثمر واللبن والاجارة والنتاج ونحو ذلك وجمعها (غلات) وفلان يغل على عياله أي يأتيهم بالغلة) •

ومن الملاحظ ان (الفاكهة) عندهم قد تنصرف الى ما يجفف من أصناف الفاكهة • ومن أسماء (التين) عندهم (الكرموس) أو (الشريحة) ولا نعرف لذلك وجها •

ومن أصــناف الفــاكهة ما يدعونه (بوصـــاع) لما يسميه الشاميون (ايكي دنيا) و (ويني دنيا) •

أما الخضروات Legumes ففيها شيء آخر خاص بهم ومن ذلك «القنارية»

لما يدعى بالفرنسية Artichaut ولم يثبت P.J. Bellot هـذه الكلمه في معجمه الصغير الفرنسي العربي واكتفوا بذكر (شوكي أو أرضي) ولا أدري من اين جاء بهذين الاسمين ولعله اخذهما مما هو مستعمل في لبنان وقـد فاته إن الخفاجي في (شفاء الغليل) قد ذكره وعده من الدخيل ولم ينص على أصله الذي جاء منه ٠ قال الشهاب الخفاجي : القنارية هو بالمغرب نوع من الخس ومنه نوع يسمى (الخرشف) وخس الكلب والكنكر قال ابن المعتز : ـ

وقد بدت فيها ثمار الكنكر   كأنها جماجم من عنبر

على ان التونسيين لا يلفظونها بالقاف بل بالكاف الشديدة على نحو ما ينطق المصريون بالجيم ٠

ومن خضرواتهم (السفنارية) ويريدون بها الجزر ومنها (الجلبان) بكسر الجيم وهي ما نوعوه (بالبزاليا) أو ما يدعى بالفرنسية Peit Pois والكلمة ذات أصل فصيح وان تغيرت صورتها فالجُلُبّان بضم الجيم واللام مع تشديد اللام نوع من القطاني ٠ قال أبو حنيفة : لم أسمعه من الاعراب الا بالتشديد وما أكثر ما يخففه قال : ولعل التخفيف لغة ٠

ويسمون القثاء او الخيار (فقوسا) و (الفقوس) من اسمائهم المحلية الشائعة في كثير من أقاليم الشمال الافريقي ٠

أما (البـامية) المعروفة في المشرق فلهـا اسم غريب عند التونسيين لا يعرفون غيره هو (القناوية) بتشديد النون ٠

ويطلق التونسيون على بعض (الحيوان) اسماء لم اهتد الى اصولها اللغوية فالخروف الصغير يدعونه (علوش) بتشديد اللام وهم ينطقون بالواو كما ينطق الحرف اللاتيني

ومن ذلك (العتروس) للعنز ، و (السردوك) للديك و (الحلوف) للخنزير ٠

الأقليمية والنقد الأدبي

حفزني الى الكتابة في هذا الموضوع تعليق نشرته مجلة « الفكر »[1] على مقالة نشرتها في مجلة [الأديب العراقي] عنوانها [امارة للشعر وأمير للشعراء] ، وأمير الشعراء في هذه المقالة هو الشاذلي خزنه‌دار من شعراء تونس الكبار . وقد عرضت في هذه المقالة لشعر الشاعر وقلت فيما قلت : انه لم يبلغ من روعة الشعر ومستوى الابداع ما يجوز به مبايعته أميرا للشعراء ، ولم يأت منه الارصف القوافي بعضها الى بعض ..... » وقد قلت ان اخواننا التونسيين لا يؤمنون بالقول المشهور : « منا أمير ومنكم أمير . وكانهم يرون في انفسهم الوجه البارز المعبر عن أفريقيا الشمالية ، وربما ارادوا ان يقولون للمشارقة : اننا مثلكم أو خير منكم .

وقد بويع هذا الشاعر الأمير على هذه الامارة كما بويع أخ له من قبل ، ذلكم هو أحمد شوقي أمير الشعراء المشارقة . أما صاحبنا الشاذلي خزنه دار فقد بايعه مواطنوه التونسيون وفيهم شاعر القيروان محمد الفائز .

ولا أدري كيف خلص الاستاذ رئيس تحرير « الفكر » الى قوله : اني أتهم التونسيين بالغرور والصلف والتظاهر بالسبق في كل المجالات . وأنا أريد أن ادفع هذه التهمة ، ومعاذ الله أن أرمي قوما بالذي جاء على صفحات المجلة أو اغمزهم بشيء لا يرضونه وقد لمست فيهم الخير والفضل، وكيف أتهمهم بمثل ذلك وقد خبرتهم فوجدت فيهم الصديق الكريم والسيد الوفي والعالم الجليل .

وقد أبى المعلق الفاضل ان تنسب مبايعة الفائز القيرواني الى شيء من التملق والتزلف « وفاء لروح الشاعر الصادق الرفيق محمد الفائز الذي

---

(١) مجلة الفكر العدد الخامس ١٩٦٣

لم يعرف عنه انه كان ميالاد للتملق والتزلف » .

أما أنا فساعود الى شعر السيد خزنه دار ليقف القاريء على قيمته الفنية وعلى قيمة مبايعة شاعر القيروان اياه بالامارة .

ولابد من التوجه بالشكر للسيد رئيس تحرير «الفكر» الذي حفزته مقالتي فعلق عليها خدمة للتاريخ ، ووفاء للنقد الادبي ، وأشهد اني قد افدت منه فصححت من وهم دفعت اليه فنسبت الشاعر الى زمرة الوزراء ولم يكن له أان عرف هذا المنصب .. ولكنه على أي حال من طبقة عليا ومن أرومة علية تصل به الى البيت المالك وان لم يبعده مقام هذا البيت عن الانغمار في صفوف الشعب .

وكأن السيد المعلق لم ترضه الاحكام التي وردت في مقالتي في حق أمير لشعراء الخضراء فمضى يقول : « فما رأي الاساتذة : الفاضل بن عاشور وزين‌العابدين السنوسي والصادق مازيغ ومحمد الحليوي والهادي العبيدي ومصطفى خريف والهادي العامري وعثمان الكعاك .

وانا أريد ان أشرك هذه الزمرة الفاضلة في الذي سأعرضه من شعر الشاعر ولكني استثني من هؤلاء السيد العامري الذي طلع علينا في العدد السادس من مجلة الفكر لهذا العام بمقالة عنوانها « أمير شعراء الخضراء الشاذلي خزنه‌دار » استجابة لنداء المجلة في عددها السابق . وكأني به قد أمسك بالقلم والغضب قد ملك عليه كل شيء على هذا [التجني والكذب] الذي لحق بأمير شعراء الخضراء فلم يشأ الا ان يغمس هذا القلم في الخل فيزعم أني كتبت ما كتبت عن قصد سيء ، ولا ادري كيف جوز لنفسه هذا الزعم الباطل .

وقد سررت بادىء ذي بدء بنداء المجلة في العدد السابق واستطلاعها آراء السادة الافاضل ، حتى اذا طلع العدد القابل ورايت السيد العامري مستجيبا للنداء توقعت الخير وظننت انه سيصحح خطأ ويرأب صدعا وأن

له من اصوله ومواده وأدواته ما يعين على بلوغ هذه الغاية فقرأت المقالة آملا أن أجد فيها نماذج تغير من رأيي في شعر الشاعر الذي بينته في المجلة العراقية ، ولكني لم أجد شيئا من ذلك وأنا آسف أشد الأسف •وسأعرض للموضوع كله ذاكرا النماذج التي اعتمدتها أنا والتي اقتبستها من كتاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر »[٢] للسيد زين العابدين السنوسي أحد السادة الذين استطلعت «الفكر» رأيهم فيما قلت في شاعر الخضراء الامير ، كما سأعرض لنماذج السيد العامري لأطلع هؤلاء السادة الأكرمين ، ولأطلع جمهرة القراء الذين يعرفون الشعر فيقدرونه قدره ، على القيمة « الفنية » لادب الشاعر الأمير • وأنا آسف أيضا ألا تكون مقالة السيد العامري قد خدمت النقد الأدبي بقدر ما أرضت هوى وعاطفة فدفعت تجنيا لحق بالأدب التونسي كما توهم السيد العامري في مقالته الغاضبة •

وانت ايها القارىء ربما تعجب من عنوان مقالتي هذه فأقول لك : اننا معاشر العرب مشارقة ومغاربة مازلنا نعاني هذه الاقليمية ، هي اقليمية تطغى على أحكامنا في السياسة والاجتماع والأدب ، وليس من غايتي ان اتكلم في السياسة والاجتماع فلم أتهيأ لذلك ، ولكني أريد أن أشير الى هذه الاقليمية التي تسود النقد الأدبي فيما نصدر من أحكام ، فما زلنا نلصق النعوت المجلجة والالقاب المدوية بشعرائنا فهذا شاعر العرب الكبير ، وهذا شاعر القطرين ، وهذا شاعر العراق الاكبر ، وهذا أمير الشعراء ، وهذا شاعر النيل•وانت تعرف ان هذه النعوت لم تخدم النقد في شيء ، وأن كثيرا من أدب هؤلاء لا يرقى عن مستوى الرصف الذي تقتضيه مناسبة عابرة ، يفتقر الى القيمة الفنية افتقارا أصيلا كما يقول النحاة،ولا يحتفظ الا بالفائدة التأريخية • وبعد أليس هذا من دواعي هذه الاقليمية الضيقة • ولنعد الى

(٢) الادب التونسي في القرن الرابع عشر لزين العابدين السنوسي تونس ١٣٤٦ •

أمير الشعراء وشعره لنقول فيه الكلمة الاخيرة معتمدين على مختارات السيد السنوسي والمختارات التي جاء بها السيد العامري .

أما مختارات السيد السنوسي فمنها قصيدة عنوانها «الحر»[٣] فلنسمعه يقول :

الحر من لا يستكين لمرهق	فعليك خصمك إمَّ ويحك تتقي
واصدع بحقك في الأباة ولا تقل	« ان البلاء موكَّل بالمنطق
فلى م تستجدي وحقك بيّن	شلت يد تمتدّ للمتصدق
تبّاً لمن ألف الخنوع لغاشم	ما تلك الا شيمة المتملّق
أولى وأحرى أن يبيت على ظما	من ظلّ من ماء المهانة يسنقي
فيم احتمالك والكوارث جمة	ممن يراك بنظرة المتفوّق
صُمٌّ وعُميٌ ساخرين تطاولاً	منا كأنا في الورى لم تُخلق

وعلى هذا النحو يستمر الشاعر في هذا النظام الذي تعوزه وحدة البناء والاتساق بين المعاني بحيث تأتي وكأنها قد افرغت في وحدة متماسكة ، ولكن الشاعر يملك شيئا من الافكار العامة يوزعه على عدة هذه الابيات فيلتزم طابع الموعظة واسلوب النصيحة ، وما أظن أن في ذلك شيئا يمس الفن الرفيع . وارسال الفكرة على هذا النحو شيء يعرض للنظامين فضلا عن الشعراء المبدعين .

ثم انك اذا فحصت القصيدة بيتا بيتا وجدتها تفتقر الى عناية في البناء، والا فهل لك أن تسيغ بناء هذا البيت :

أولى وأحرى أن يبيت على ظما من ظل من ماء المهانة يستقي

وأنا أسائل هؤلاء السادة الذين استطلعت الفكر رأيهم ليقولوا ان كانت هذه القصيدة من شعر أمير للشعراء ام من النظم الذي لا يرقى بصاحبه الا الى رتبة النظامين .

ثم تعال معي أيها القارىء لنستمع الى قصيدة الشاعر « نداء » التي

يقول فيها :

نادت بينهـا الـديار بالله أيـن المصـير
هـذا عليّ يغـار وذا عليّ يغـير

: ⊙ :

التونسـيُّ بُنَيّ أضحى بحقي ينـادي
لـكنما ذو الغـيِّ رآه أعـدى الاعادي
حيث اغتدى في الحيِّ يقـول هـذي بلادي
وحـق هـذا الأبيّ قامت بـه الآثـار
الى ذويهـا تشـير

: ⊙ :

من يرتضي بالـدنايا لم يفتكر بالمعـالي
عش سيداً في البرايا معـززاً بالرجـال
كم في الزوايا خبـايا فانهض بهـا في الحال
وخض غمـار المنـايا فمـا هي الأعمـار
وهـل لهـا تأثـير

كـن مؤمنـاً باللـه لا مؤمنـاً جغـرافي
في يقظـة وانتبـاه كالسـادة الأسـلافِ
ما في ارتكاب المنـاهي كالسـادة الأسـلافِ
الا كبـار الـدواهي الا الـدواهي الـكبار
والانحـار الـكبير

إدأبْ عليـه وطـالبْ به الخصـوم الألـدا
لم تأت ـ والله غـالب ـ يا صـاحب الحق إدّا
لا سـلب يبقى لسـالب مهما طغى وتعـدّى

كــن بالعزيمة جـالب ما تبتغيـه الـديار
فأنت فيهـا الخبـير

نقرأ هذه القصيدة في افكارهـا الوطنية فلا تحس الحماس المتقد ، ولا نستطلع زحمة الصور الشعرية التي تترجم هذا الحماس ، وانما نرى نغما باردا يتداح على هذا النمط الحكائـي في سرد الافكار التي تشغل بال العامة ، والتي يتحدثون بها سحابة يومهم في زمن طغى فيه المستعمر أيمـا طغيان •

تقرأ هذه القصيدة فلا تلتمس فيها ماء ولا رواء كما يقول النقـاد الاقدمون ولكنك لا تعدم أن تجد عناية في الرصف ، ألا ترى أن الصدور قد بنيت على قواف متسقة كما بنيت الأعجاز على شيء من ذلك •

على أن في هذه العناية ما يذكر بأساليب المتأخرين من شعراء الفترة المظلمة • انظر الى قوله :

هذا عليّ يغـار وذا عليّ يغـير

تدرك هذه العناية المفضوحة في « الغيرة » و « الاغارة » • وهـذا والتجانس لم يحدث عن غير قصد •

ومن هذه العناية على نحو ما جاء في شعر المتأخرين قوله :

ما في ارتكاب المنـاهي ما بـين بادٍ وخـاف
الا كبـار الـدواهي الا الدواهي الكبـار

فقوله « الاكبار الدواهي » ثم اعادته العبارة نفسها في العجز بالتلاعب في المضاف والمضاف اليه اسلوب مرذول مبتذل وهو من باب « رد العجز على الصدر ، ثم ان استعماله « المناهي » لا يؤدي « المنهي عنه » فهو جمـع « منهى » مثل « مسعى » والمراد هو زنة اسم المفعول ، وهو يبدأ اربعـة

(٣) الادب التونسي ١/٢٤

الابيات هذه بقوله :

كـــن مؤمنـــاً بالله   لا مؤمنـــاً جغرافي

وهو يريد « بالمؤمن الجغرافي » كمـــا نلمسه في البيت ، المؤمن بالطبيعة والمنكـــر لله ، ومـــا أرى أن استعماله « جغرافي » يسعفه في ترجمة هذه الفكرة .

ولا أريد أن اترك هذه المقطعات قبل أن أشير الى ان الشاعر قد نقل فيها شيئا فيه مسحة من العامية الدارجة ، ألاترى في قوله : « فما هي الاعمار وهل لها تأثير » شيئا من هذا التأثر بالعامية في استعماله « وهـــل لها تأثير » .

ثم انظر الى قوله :

إدابٌ عليـــه وطالب   به الخصوم الألـــدا
لم تأت ـ والله غـالب ـ   يا صاحب الحـــق إدّا

فقوله « والله غالب » عبارة تلوكها ألسنة العامـــة كل يوم وان كانت من مادة فصيحة وهذه العبارة يعرفها التونسيون دون سواهم .

ولست أرى وجها لمجاوزة الشاعر ، او قل أمير الشعراء للفصيح المشهور في قوله : (وطالب به الخصوم الألدا) فالالد صفة المفرد وهو الخصم ، أما الخصوم فينبغي ان توصف بالجمع ، فكان يلزم أن يقول « الخصوم اللد » جريا على قوله تعالى : « وتنذر به قوما لدا » فاللد بضم اللام جمع الألد .

وماذا عسى السيد العامري أن يقول في هذه التجاوزات ! اهـــي هنات من حقها ألاتذكر أم هي مراعاة اقتضناها الوزن ، وكيف لا يحاسب بعد أمير للشعراء في ارتكاب شيء من ذلك . هون عليك ايها القارىء ـ ولا تضق ذرعا فسأطيل عليك لاوطنك على هذا النغم « الخزنه داري » .

يبكي الشاعر في قصيدة « ضحايا » المجاهدين الأبرار فيقول :

نبكي لفرقتهم وهم أحياء سبعاً بكتهم تونس الخضراء

ما كان في كفي الحسام وانما من تحت فكي حيّة رقطاء

أرسلتها حصباً على مغتالهم فتريه ماذا يفعل الشعراء

سأهزّ من قومي الذين بلوتهم ما ترتضيه الهمة القعساء

عربية الاحساس في نخواتها لله تلك النخوة العرباء

* * *

دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا يفنوا يبيدوا يفعلوا ما شاءوا

في هذه الابيات يبكي ضحايا الوطن ، فالموضوع جليل ، وكان يستدعي من الشاعر قصيدة عامرة غير هذه الابيات ، يستوفي فيها ما تقتضيه هذه المناسبة الكريمة . غير ان الشاعر لم يستطع أن يتخلص من طريقته في ارسال الافكار بصورة لم يمسها الفن تصويرا وخيالا وعاطفة . نقرأ مطلع هذه المقطوعة فنجده مثقلا بتجاوز نحوي فقد قال « وهم احياء » ثم جاء بالعدد على هيئة التذكير « سبعا » وليس لنا أن نقول ان « سبع » تتبع « الضحايا » عنوان القصيدة ، ذلك ان عود العدد على المعدود القريب « نبكي لفرقتهم وهم أحياء » .

قد تقول : هذا شيء هين ، وأنا اقول معك : انه هين لو تهيأ للشاعر ان يبلغ في مقطوعته شيئا من الاجادة الفنية .

أقول : موضوع القصيدة جليل وخطير ، ولكن هذه الخطورة لم تنس الشاعر اللعب بالالفاظ ، ألا ترى الى الجمع بين « كفي » و « فكي » في البيت الثاني مما يذكرك بصناعة المتأخرين المبتذلة . ومثل هذا قوله :

عربية الاحساس في نخواتها لله تلك النخوة العرباء

وهذه أيضا صناعة مبتذلة ، ألا ترى الى التكرار في عجز البيت فهو يكاد يكون اعادة للصدر وهذا ما أسموه بالمرصود من القوافي . وماذا يقال في شاعر يحرص على هذه الألاعيب البديعية !

ثم انظر الى البيت الاخير :

دعهم يريقوا يُزهقوا . . . .

ألا ترى ان « الاراقة » غير واقعة في حيز الطلب ، فلم تكن جوابا للفعل الامر « دع » وعلى هذا فليس من الحق ان تجزم كما توهم الشاعر .

وأعود اليك ـ ايها القارىء ـ لأخبرك ان صاحبنا الأمير ممن عالجوا باب المعارضات وباب المعارضة تقليد محض ، فقد حلا له ان يعـارض ابا نواس في خمريته المشهورة :

حامل الهـوى تعبُ يستخفه الطـربُ

كما عارضها أحمد شوقي وغيره ، أما قصيدة خزنه‌دار فهي :

راحة النهى الطرب هاتهـا فلا عجب

الدنـان مترعـة والخمـور تنسكب

والكؤوس جـارية طـاف فوقهـا الحبب

الى آخر هذه القصيدة الطويلة التي لا تخرج عن اطار القديم في مبناها .

ويصف الشاعر واحدة من الانسيات من « بنات المعفاف » فيقول :

بين المـزارع والحقول طفقت بمفردها تجول

طوراً على هام الصخور وتارة بين السـهول

كالظبي في فلواتـه ألف التسـلق والنزول

فرنت شبحي رنو الظبي بالطـرف الكحيل

تقرأ مطلع القصيدة فتجد استعماله « بمفردها » وما اظنك مستملحا لهذا الاستعمال فـ و يريد أن يقول « وحدها » وهذه أخف وارشق ، ثم تقرأ هذه القصيدة الطويلة ، فترى الشاعر لم يخرج عن اسلوب القدماء في التشبيهات وارسال المعانـي ، وأنا أحيلك على هذه القصيدة في كتاب

السيد السنوسي ولكنني لا اترك القصيدة دون أن أشير الى البيت الاخير فيها وهو :

فلتهنــأ الازواج ما اقـ ـترنت بربّات الحجول

وأظنه أراد « ربات الحجال » فالحجـال جمع حجلة ، هي قبة تضرب للنساء لها أزرار تشد عليهن ، كما جـاء في احدى خطب أمير المؤمنين على بن ابي طالب : « يا أشباه الرجال ولارجال ، حلوم الاطفال ، وعقول ربات الحجال » . أما الحجول » فشيء غير هذا ، فهو جمـع الحجل بكسر الحاء أو فتحها وهو الخلخال .

ويختم السنوسي منتخبـاته بقصيدة في وصف « دقة » المدينة الرومانية العتيقة ، والقصيدة من جيد شعر الشاعر لما اشتملت عليه وصف رائع فهو يقول :

اطلال دقّـة والرسـوم خوال ما للمباني الخـاويات ومالي
عبث الزمان بهـا كما عبثت به فكلاهما في صـدمة ونزال

الى آخر هذه القصيدة التي يأتي فيها على وصف معالمها التاريخية في تأمل حالفه الفن . وأعود الآن للسيد العامري الذي أشكر له نصحـه « بمراجعة بيان شعر أمير الشعراء الخضراء » فأقول له متلطفـا : ان النماذج الشعرية التي جاءت في مقاله لا تعين كثيرا على تغيير الحكم الذي أسلفته في شعر الشاعر .

ذكر السيد العامري[٣] : أن شاعر الخضراء وأمير شعرائها قـد عاش مرهقا مبعدا محروما من عطف البايات ، فكان بمعزل عنهم وهـو القريب منهم ، وغاية ما ناله على عهودهـم (خطة وظيف ضابط شرفي) بالرغم عنه . فلم يتمالك عن الاصداع بالحقيقة فقال :

---

(٤) انظر مقالة السيد العامري عن أمير شعراء الخضراء في مجلـة الفكر العدد السادس ٣ ، و ١

ها انني بالرغم عني قائد ما بينهم لكن بدون عساكر

ما لي بهـا الا الحسام علامة وتحية جبراً أجل بالخاطر

لو بت تسألني على أحوالها لشفيت قلبك بالجواب الحاضر

قد كنت أحمل ذلة لا خطية حتى تراني خاجلاً من ناظري

تلك النجوم حقيقة في نفسها كبرى وتصغر في عيون الباصر

يسوق السيد العامري هذه الابيات على أن الشاعر لم ينله من جلال البيت المالك النعم العريضة ، وأنا أقر وأعترف له بذلك وأشكره على تصحيح شيء مما ذهبت اليه ، ولكني أفيد من الأبيات فائدة اخرى وهي أنها ليست من شعر الشاعر النفيس ولا تقوم دليلا على ان قائلها صاحب امارة بين أقرانه على فائدتها التأريخية •

وهأنا ادلك على مواضع في هذه الابيات لترى أنها تشكو ضعفا في التأليف فقوله : « وتحية جبرا أجل بالخاطر » من هذه المواضع الضعيفة في البناء ، الا ترى أن « الجبر » لا يكون « بالخاطر » بل « للخاطر » ثم ما مقام حرف الجواب « أجل » في هذا التركيب ، فهو تكأة اعتمد عليها صاحبها لاقامة وزن ليس غير •

ثم يقول : « لوبت تسألني على أحوالها » وكأن الشاعر لا يعرف أن « السؤال عن أحوالها » لا « علىأحوالها » وهذا من عمل شيطان الوزن أيضا•وفي قوله : «حتما تراني خاجلا من نظري» تجاوز للمألوف المعروف وهو « خجل » بفتح الاول وكسر الثاني ، ولم يسمع الوصف منه على « فاعل » وان صحت قياسيته واذا ثبت السماع بطل القياس كما هو معلوم ، ألا ترى انك لا تقول « فارح » من « فرح » ولا « حازن » من «حزن» بل تقول « فرح » و « حزين » •

وقد اضطر الى ان يذيل البيت بقوله (من ناظري) والفصيح المليح ان يقول « من ناظر الي أو في » ذلك ان تعدية الفعل لا تصح الا بأحد

الحرفين وفي ذلك دفع لوهم وبما وقع فيه من قرأ « ناظري » .

وربما يقول السيد العامري ـ حفظه الله ـ : ان هذه هنات ، وأنا أقره على هذا القول بأن هذه هنات ، ولكني أقول : انها لا يتغاضى عنها في شعر شاعر مغمور ، فضلا عن أمير للشعراء .

ويعقب السيد العامري على هذه الابيات بأخرى في الموضوع نفسه يبدى الشاعر فيها عزوفه عن هذه « الخطة » التي لا تشرف ، والتزامه بسمته ووقارة وطيب معدنه ، وانصرافه عن هذه التوافه وتعلقه بوطنه الحبيب ، وفي كل ذلك فوائد تأريخية .

قلت : سأتعقب نماذج السيد العامري لنخلص منها الى فائدة فتثبت حقا ، وندفع وهما . ذكر السيد العامري فيما ذكر « ... ... بل هو أول شاعر تونسي نادى بترقية الشعور وارهافه وتحريكه في الجماهير ... . » وجاء لذلك بقصيدته التي سنشير اليها دليلا . يقول الشاعر :

وحسبك بالشعور اذا ترقّى ... وأجرى سلسبيله في المجاري
فكم بعث الحياة الى نفوسٍ ... فأرجعها وكانت في احتضار
وقلّدها شريط العزّ فخراً ... فبات الشأن مرفوع المنار
وكم نفثت به الالباب سحراً ... وكم أجرى ببحره من جوار
وكم رضعت لبانه من شعوب ... صغار فارتقت به للكبار
وكم رفعوا به للحق صوتاً ... فأصبح لابساً تاج الوقار

... ...

ودونك من دنانه كأس راح ... تنوب لديك عن كأس العقار
وخصّصْ من بنات الفكر جَوقاً ... فعشاق الرواية في انتظار
وحافظ على كيانك في وجود ... ولا تنظر له نظرَ احتقار
وبادر في الرياض لقطف زهر ... فان العود أصبح في اخضرار

يعقب السيد العامري على هذه الابيات فيقول : « أوليس من الغبن

الفاحش أن يقال لشاعر الشعور انه ملفق أو ناظم » • أما أنا فأشهد اني لم أقل « ملفق » ولكني قلت انه « ناظم » والابيات التي ســـاقها الكاتب الفاضل كما هي مثبتة في هذه المقالة تعين على هذا الرأي فنقول ان صاحبها نظام ، لا يمكن أن يرقى الى طبقة أمـــراء الشعر • وانا أريد أن أشهد محبي الشعر والعارفين بنقده أن يقولوا ما يرون في هذه الابيات ان كانت شعرا قد حاز على الخصـــائص الفنية من ابداع في التصوير وروعة في الخيال واحتدام في العاطفة ، ام نظما جرى فيه صاحبه في ارسال الافكـار ارسالا على نحو ما يفعل كثير ممن رزقوا القدرة على النظم •

فالشاعر في هذه الابيات يحكي فائدة الشعور وأثره في حياة الناس في نمط تقريري والتقرير أبعد ما يكون عن اسلوب الشعر الذي يعتمد اللمحة الخاطفة والالتفاتة البارعة • وفي هذا التقرير اسلوب يقرب مـن العامية والا فكيف تشعر بغير التعبير الدارج في قوله :

وقلَّـــدها شـريط العز فخـراً فبـات الشـأن مرفوع المنـار

فالشعور هو الذي « قلد النفوس شريط العز » على نحو ما يقلـــد الملك قائده المنتصر وسام الشرف فيحلي بذلك صدره « فخرا » ليكـــون « الشأن مرفوع المنار » •

ثم تقرأ قوله :

وخصَّصْ من بنـات الفكر جوقاً فعشـاق الرواية في انتظـــــار

فهو يتخذ من « بنات الفكر جوقا » ذلك ان شهود « الرواية » بـــل « عشاقها » « في انتظار » لها واللجوء الى عرض « بنات الفكر في هـــذا الثوب الخلق اهانة للشعر وابتذال لبنات الفكر •

ولن أدع هذه الابيات دون أن أشير الى ان الشاعر في هذه الابيات قد جاء بشيء تجاوز فيه الـــوزن ، ولم أرد أن أشير الى هذا لولا أنبي علمت مما كتبه السيد زين العابدين السنوسي من أن للشاعر معرفة أكيدة

بالعروض ، وعليه تخرج الكثيرون في هذا الفن . وها أنا مشير الى هـذا التجاوز الذي لا يحتمله الوزن ، ومن ذلك : قوله « وأجرى سلسبيله في المجاري » ألا ترى أن ضمة الهاء في « سلسبيله » زيادة على الوزن ، فالبيت من الوافر والوزن يقتضي حذف الضمة واسكان الهاء وتقطيع البيت على النحو الآتي : ـ

وأجرى سلـ سبيلـَهـْفـِلْ مجاري

مفاعلتن مفاعلتن فعول

ومثل هذا التجاوز قوله « وكم اجرى ببحره من جوار » وقـوله « وكم رضعت لبانه من شعوب » وقوله « ودونك من نانه كأس راح » ففي هذه الابيات زيادة في الوزن اقتضتها حركة الهاء في « بحره » و « لبانه » و « دنانه » .

واصعب من ذلك أن يأتي قوله « وحافظ على كيانـك في وجود » فهذا خروج واضح لا تطيقه موسيقى البيت .

وبعد فهل أتيت كذبا ، ولفقت باطلا على « شاعر الشعور » .

فيأتي السيد العامري بأبيات يفخر فيها أمير الشعراء بمقامه في الشعر و « منبره » في « المشاعر » وأنه « يجر وراءه من القوافي عسكرا » زهاء نصف قرن خدمة للحق واعلاء للوطن فيقول :

خدمت به الخضراء والحق والهدى وصـنته عما بالفضيلة يزدري

رفعت بـه أيام لا صوت سـوطه وندّدتُ بالتقريع عن كـل منكر

تقرأ البيت الاول فتجور على الوزن في قوله « وصنته » ثم تترك هذا البيت وتأتي للذي وليه فيبدو لك شيء من الألاعيب المتأخرة في الجمـع بين « صوت » و « سوط » . وبعد فماذا تقول في شاعر « يجر هـذه القوافي عسكرا » غير اخلاصه للقديـم . فطريقته قديمة وفهمه للشعر قديم ومادة بنائه قديمة أيضا .

والشاعر معجب بشعره ، مزهو به وقديما قيل « كل فتاة بأبيهـــا معجبة » ولكن اعجابه قد جاوز الحدود فهو يقول :

لو شـــاء ربـك للـكتاب زيادة   لأضـــاف آياتي الى تنزيلـه

ـ رحمك الله ـ يا ايها الخزنه دار فقد جرت عن القصد ، وسلكت غير الحق ، وأي ضير في ذلك والشعراء يقولون مالا يفعلون ، فقد جاء من ذلك قول ابي الطيب المتنبي :

وكلّ ما خلق الله وما لم يخلقِ   محتقرٌ في همتي كشعرة في مفرقي

ويختم السيد العامري مقالته فيأتي بقصيدة للشاعر كان قد أهداهـا اليه يهنئه فيها بولادة طفل ، والسيد العامري معجب بهذه القصيدة اعجـابا لا حد له ، ومن حقه ان يعجب وان يطرب ، وأن يحفظ للشاعر عاطفته الكريمة ومنزلته العالية • والقصيدة من « المتقارب » وهي: ـ

ولادة طفـــل وعام جديـــد   وهـــذا لعمري قران سعيدْ
وللعـــامري من الخزنـــداري   تهاني الودود بهذا الوليـــدْ

وكأن الشاعر يعبث في الوزن عن قصد منه فما أراه يجهل هـــذا الامر فهو يقول : ـ

شـــقيق « عيـــاض » محمده   وطالع يمن وعيش رغيـــدْ
و « هاديه » للخـــير والـــده   له أمل في الصبيِّ وطيـــدْ

ألا ترى ان في صـــــدر هذين البيتين وفي عجز البيت الثاني شيئا لا ينسجم مع الوزن ، ومثل هذا الخروج عن الوزن قد وقـع في ابيات عدة من القصيدة نفسها • ثم اقرأ قوله :

هو اليوم في الدوح خشفٌ وديع   وفي الغـد ليث هصور عنيـــدْ

لترى مقام مقام « الخشفٌ » في نظم الشاعر ، فليس « الدوح » مقاما للخشفٌ كما هو معروف • ويختم الشاعر هذه القصيدة مؤرخا على نحو ما

شاع عند المتأخرين من باب التاريخ في منظومهم • والقصيدة على طـــولها لا تخدم مكانة الشاعر الفنية فليرجع اليها القارىء •

وبعد فأنا ادعو السيد العامري ان يعود الى ما كتب ، فيعيد النظر ، وينفي عني سوء القصد واصطناع الخبر وقلة الاستقراء •

ولا اريد أن اختم هذه المقالة قبل أن أعود الى مسألة بيعة شاعر القيروان محمد الفائز للشاعر خزنه دار فاذكر القارىء بهذه المســـألة وبقيمة هذه البيعة ، بعد الذي عرضت من البحث في شعر الشاعر ليحكّم في هذا الامر وليرده الى أصوله ودوافعه خدمة للحق ، ووفاء للتاريـــخ وعملا بقواعد النقد التي تأبى المحاباة بسبب من اقليمية او قرابة أو أي صلة اخرى •

قطوف من تونس

لن أحدثك ـ صديقي القاري ـ عما ينزل بالتونسيين من خطوب في هذا الايام ، فقد جاءك نبأ القوم في تلك الديار وعرفت عن المدينة الباسلة الصابرة ، وكيف نازلت جيش فرنسا البغيض ، ولكني اود ان انقل اليك « قطوفا » من تلك الارض الطيبة ، واخصك بها ، فما اغنى التونسي عن هذا الذي سأسوقه اليك ، وانا لا يضيرني ان يقول اصدقائي التونسيون : « هذه بضاعتنا ردت الينا » كما قال أسلافنا من ذي قبل ، وهأنا اوثرك بهذه القطوف لتعرف شيئا عن تلك الديار التي انقطعت عنا او قل انقطعنا عنها ، ومازال فينا نحن المشارقة حاجة ان نعرف عن اخواننا « المغاربة » .

والمشارقة هم اهل المشرق عند التونسيين والمغاربة عامة ، ولا ينصرف المشرق الا الى الديار الواقعة الى الشرقي من برقه وطرابلس الغرب من عالمنا العربي ، وقديما كان اهل المغرب يقصدون هذه الديار في موسم الحج ، حتى اذا انتهت مناسك الحج ، القوا عصاء الترحال فطاب لهم المقام يتزودون من علم المشرق في بغداد او دمشق او في القاهرة ثم يتصدون للتدريس ، فاما أن يقيموا اقامة دائمة ، واما أن يقفلوا الى ديارهم .

ومن اجل هذا كثر بينهم الرحالون كالادريسي الشهير وابن جبير وابن بطوطة والتجاني وغيرهم .

ولا تعجل علي ـ حفظك الله ـ متسائلا اين هذه القطوف ، ولم وصفت هذا الذي اقوله بالقطوف ، وما اظنك جهلت ان تونس قد وسمت بالخضرة ، وانها استحقت من أجل ذلك ان تسمى بالخضراء ، والخضرة

صفة واضحة المعالم في تونس التي احبها التونسيون فقال قائـــل منهم :
تونس دار الانس •

والذي سأنقله اليك هو الوان شتى من لغه وادب وتأريخ ، وقـــد سميتها « قطوفا » لاني اقتطفتها من هـــذه الديار الانيقة التي اتشحت بالخضرة ، وعقبت بالزهر ، وازدهت بالظلال • وما اراك تجهل ان هـــذه الديار بلد الزيتون الذي بوركت شجرته ، ولا ارى في حاجة ان اعيد اليك قوله تعالى « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيهـــا مصباح المصابيح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار »• وانه خص بالشرف العظيم فكان من اشجار الجنة مع النخيل والاعناب والرمان في غير موضع من التنزيل ، ألا ترى ان الآية قد اقسمت بالتين والزيتون ، وان التين قد سبق الزيتون في القسم الشريف لحاجة لفظية يقتضيها نظام تأليف الجمل على هذا النسق المنسجم الموسيقى ، وما اظن ذلك خافيا عليك • والزيتون في تونس خير وافر تكتسي به البقـــاع الفسيحة ، ومن هنا جاءت الكلمة عندهم بصيغة الجمع فقالوا (زياتين) ولم تألف نحن اهل المشرق جمع هذه الكلمة على هذه الصورة لانعدام الحاجة الى هذه الصيغة ذلك ان هذه الشجرة غير معروفة عندنا بهـــذه الكثرة العجيبة • والزيتون في تونس قديم جدا ترجع اصوله الى العصور التي سبقت العصور القديمة ، فأنت تجد بين اشجاره الجذوع النخـــرة التي تحدت الدهور وسخرت بالاحداث • وقد اهتم التونسيون بهذه الشجرة المباركة التي افادوا منها الخير العميم ، فاعتنوا بزراعتها والفوا في ذلـــك الكتب ، ومن ذلك كتاب « العقد الثمين في تأريخ غراسة الزياتين » لاحمد الكعاك • وتونس كما اسلفت بلد يزدهي بالخضرة ، واهلـــه يشتغلون بالفلاحة ، وفاتني ان اسجل هنا أن كلمة « الفلاحة » هي الشائعة في هذه

الديار ، وهذا الاستعمال قديـــم فقد ذكرت الفلاحة في « مقدمة ابن خلدون » عدة مرات وهو يريد بها ما يريده التونسيون اليوم ، وهـــي تؤدي ما تؤدي عندنا كلمة الزراعة ، فوزارة الزراعة مثلا تكون عندهـم « كتابة الدولة للفلاحة[١] » على ان التونسيين لم يفيدوا من هذه الشجرة المباركة على نحو ما أفاده اللبنانيون الحذاق من شجرة الارز ، فقد تفنن هؤلاء اللبنانيون بالدعوة لهذه الشجرة المباركة عندهم ، والتي جاء ذكرهـا في اسفار العهد القديم ، والتي تغنى بهـــا الادب القديم في تلك الديار الانيقة ، ثم جاء الجيل الحاضر فأكبر هذه الشجرة وعظمها واحاطها بكل رعاية وعناية ، وصارت اشجار الارز القليلة ، مكانا يقصده المصطـــافون الا ترى ان العلم اللبناني يحمل صورة الارز الشامخة ، ولكن شيئا مـــن هذا قد حصل عند التونسيين ، فأنت تسمع بالجامعة الزيتونية وهي فـــي جامع الزيتونة الكبير والذي سيأتي ذكره •

وقد اسلفت ان قطيعة وقعت بين المغرب والمشرق ، وان هـــذه القطيعة كانت بعد زوال الـدولة الاموية في الشام ومجيء العباسيين سنة ١٣٢ للهجرة ومنذ ذلك الحين اخذ الولاة في القيروان يتمتعون بشيء من الاستقلال ، بسبب بعد مركز الخلافة العباسية عن هذه الديار ، والانشغال العباسيين بالثورات والفتن في الاقاليم التابعة لهم ، ولان كثيرا من دعـــاة الخلافة من ادراسة وهاشميين وأمويين قد حلـــوا في القيروان ، فكثر الطامعون بالخلافة ومن اجل ذلك حاول احفاد عقبة بن نافع هذه المحاولة كما حاول ذلك غيرهم •

ولكن هذه القطيعة لم تغير نظر الناس الى ان المشرق دار العلـــم والمعرفة ، وان لابد لطالب العلم من التزود بهذا الزاد الاصيل على الرغم من ان المغرب كان له علماؤه في مختلف العلوم والفنون ، وانهم كانـــوا

(١) : وتعني لفظة « كتابة الدولة »الوزارة في الاصلاح الشرقي، هذا الاستعمال جاء عن ترجمة الكلمة الفرنسية •

يستقدمون المشاهير من علماء المشرق ، وأن جامع عقبة من مراكز العلم المشهورة ، وان المغاربة كانوا يقصدونه من كل مكان ، وربما قصده الاندلسيون من الاندلس في العصور المتأخرة •

وصلة الاندلس بالمغرب قائمة في مختلف العصور ، فلما انتهى الحكم المغربي في الاندلس ، هاجر المسلمون الاندلسيون الى المغرب واستقروا في هذه الديار ، وكان لهم في تونس مراكز خاصة بهم •

وقد اهتموا « بالفلاحة » ولاسيما الزيتون منها • ومازال في هذه المراكز حتى يومنا هذا أسر اندلسية تحمل اسماءها الاولى مثل اسرة (مروش) وهي من الاسبانية Moros أي اهل الاندلس الذين بقوا في اسبانيا بعد سقوط غرناطة ومثل اسرة الشاطمي وهي منسوبة الى (شاطبة) وقد حدث ابدال بين الباء والميم •

ولقد هاجر الاندلسيون الى تونس في فترات مختلفة ، فقد كان اول العهد بذلك في ايام صنهاجة ، واشهر من هاجر منهم امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت الذي جاء بالموسيقى الاندلسية الى تونس ، والتي تحتفظ بها تونس حتى يومنا هذا ثم كانت الهجرة الثانية على عهد الحفصيين ، ولا سيما ما كان منها بعد سقوط اشبيلية ، ومالقة ، وبطرنة ، فهاجر منهم حازم القرطاجني صاحب (المناهج الادبية) وهو من اجل كتب النقد الادبي ، والذي اعتمد فيه على المناهج الاوربية في هذا الباب ، وهو صاحب المقصورة التي شرحها الشريف الغرناطي ، في مدح السلطان الحفصي المستنصربالله الذي بنى الحنايا الشهيرة لجلب الماء سنة ٦٤٠ هـ - ٦٥٠ ، وقد جاءت ترجمته في نفح الطيب مع ذكر شيء من شعره ، وكما ذكره ابن سعيد المغربي •

ثم هاجر الاندلسيون بعد سقوط غرناطة ، على ان المهم من هذه الهجرة ما حدث منها حينما اجلى فيليب الثالث (الموريسكو) سنة ١٠١٧

للهجرة والموريسكو هم المسلمون الذين بقوا في اسبانيا بعد زوال الحكم العربي ، وكان ذلك على عهد عثمان داي في تونس .

ولقد اسس الاندلسيون مراكز خاصة بهم كما اسلفنا ، وهي نهرية على شواطيء الانهار ، وجبلية في الجبال ، وسهلية في السهول .

وهكذا جاء الاندلسيون فكانوا عامل نشاط وجد في تكوين هذا البلد من عدة وجوه .

ويؤلف البربر طائفة كبيرة من التونسيين ، وقد استوطن البربر منذ اقدم الازمنة في ديار المغرب جيمعها ، فنحن نلاقي البربر في كل عصر من اعصار المغرب ، والبربر من الشعوب الاسلامية التي لعبت دورا اساسيا في تاريخ الاسلام ، وحسبك ان تعرف ان طارق بن زياد قد فتح الاندلس بجيوش العرب والبربر ، وان عبد الرحمن الغافقي الذي انطلق في فرنسا فاتحا كان يقود جموعا بربرية ، وان دولا كثيرة قامت معتمدة على هذا الشعب العريق الذي اسلم واحب الاسلام فأمتزج بالعرب امتزاجا كليا حتى ان كثيرا من افراده وجماعاته قد استعرب ، غير ان البربر لم يعاملوا معاملة الموالي في المشرق . ذلك انهم اهل هذه البلاد قبل ان يدخلها العرب فاتحين . ومازال قسم من هؤلاء محتفظا ببربريته على شدة اتصاله بالاسلام والعرب . وربما وجدت فيهم من لا يعرف العربية ولاسيما اولئك الذين يسكنون في المغرب الاقصى وفي جهات من الجزائر العربية .

وقد اسلم هؤلاء منذ سنة ٢٧ للهجرة أي منذ فتح العبادلة اثر وقعة سبيطلة في الجنوب الغربي التونسي ، وتم اسلام جميع البربر في اواخر القرن الاول الامن قل منهم ، . وحسن اسلامهم ، وصاروا من كبار المناصرين للاسلام والمسلمين ، قال ابن خلدون :

« وأما اقامة البربر لمراسم الشريعة ، وأخذهم بأحكام الله ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء في

الفروض لاعيانهم ، وابتغاء الائمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين احيائهم ، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم[1] وقضاياهم . واصغائهم الى اهل الخير والدين من اهل عصرهم التماسا للبركة في آثارهم وســؤالا للدعاء من صالحهم . . . » .

ولهؤلاء البربر تقاليدهم وعاداتهم واساطيرهم وأدبهم ، كما ان لهم لغتهم التي نستطيع ان نتبين فيها لهجات متعددة . وبقيت هذه اللغة بعد الاسلام ولكنها صارت تكتب بالرسم العربي . وقد الف في هذه اللغة المصنفات التي تناولت تعاليم الاسلام دين البربر الجديد ، ولهم فيها مؤلفات تؤرخ الفنون الادبية عامة من شعر ونثر ونوادر وحكايات واساطير . واعتنى اصحاب المجاميع النباتية من الغافقي الى ابن الجزار الى ابن البيطار بأيراد التسميات البربرية للنباتات التي وصفوها ثم ان هذه اللغة كانت لغة الاسر المالكة » البربرية من صنهاجيين وحفصيين ومرابطين وموحدين ، وقد استعملها عبدالله الشيعي في دعوته للفاطميين بجبال القبائل وزواوة ، كمـــا كان المعز الفاطمي استعملها في صلاته مع امراء صهناجة ، كما تكلم بها المهدي بن تومرت في دعوته بين العروش والعشائر البربرية . ومن اجـــل ذلك كان التراث البربري قد ابقى آثاره في الثقافة العربية في هذه الاقاليم . ثم اتيح للغة البربرية في العصر الحديث ان توجد لنفسها نحوا وادبا مكتوبا ، فألف كتاب للنحو البربري وصنفت المعجمات البربرية ووضعت مجاميع النوادر والقصص ، ودفع الفرنسيون البربر الى العدول عن الحروف العربية التي كانوا يستعملونها الى الحروف اللاتينية هروبا بالبربر من العرب والعربية ، على ان ذلك لم يتم لهم فخابت هذه المساعي .

غير ان شيوع العربية وانتشار التعليم قـــد ادى بالبربرية الى ان

---

[1] (النازلة) من الالفاظ الاصطلاحية التونسية ، وما زالت مستعملة حتى يومنا هذا ، وهي تعني « الدعوة الحقوقية او الجزائية » التي تنظر فيها المحاكم .

تنكمش على نفسها وتصبح لغة ضيقة غزتها العربية من عدة نواح ، وقد حدث معظم ذلك ابان غزو الهلاليين من شبه الجزيرة في اواخر القرن العاشر للميلاد .

وكان للغة العربية وللثقافة العربية الاسلامية ان كتب لهما الفوز ، وقدر لهذه ان تأتي على ما كان من امر لغة البربر ومن بقايا لهجتها وثقفتها لولا نكبة هذه الديار بالغزاة الفرنسيين ، وتشجيعهم للغة البربرية والثقافة البربرية ، ووقوفهم ضد تقدم العربية وتطويرها ، ثم انهم جعلوا الفرنسية اللغة المعتمدة في الادارة والمعاهد الثقافية ولغة الشؤون العامة ، . وكان من نتائج ذلك ان ضعفت العربية الفصيحة ، وان العارفين لها قد قل عددهم ، وانها بقيت في لونها الدارج الذي لا يصلح ان يكون وسيلة نافعة للنهوض ومسايرة ركب العالم المتحضر . وربما كانت المشكلة في تونس اقل منها خطرا في الجزائر والمغرب ، ذلك ان في تونس معاهد قد تمسكت بالعربية وتعصبت لها وقاومت المستعمر الغازي الذي يريد ان يمسخ طابع الثقافة العربية في تونس . ومن هذه المعاهد العريقة الجامعة الزيتونية الزاهرة التي ثبتت تجاه المستعمر وكانت عاملا مهما من عوامل ازدهار الثقافة العربية الاسلامية . وجامع الزيتونة معهد للتعليم العالي ، وقد بناه عبدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة تخليدا لذكرى انتصاراته في الديار المغربية . وأتم بناءه على الشكل الحالي ابو العباس محمد بن الاغلب في عهد المعتصم العباسي وصار معهد افريقية العلمي في عهد ابي زكريا الاول الملك الحفصي في اوائل القرن السابع . وندب اليه الاساتذة من طرابلس مثل عبد الحميد بن ابي الدنيا ، ومن صقلية مثل آل الصقلي الاطباء ، ومن الاندلس مثل ابن عصفور النحوي وابن سعيد وابن الآبار المؤرخين ، وحازم القرطاجني وابن ابي الحسين الاديبين وابن القصار والبطرني الفقيهين ، وحسبك ان تعرف ان عبد الرحمن بن خلدون كان

قد درس في هذا المعهد العظيم وتصدى للتدريس فيه •

وهكذا اقامت الجامعة الزيتونية بدور فعال في نشر الثقافة العربية ، ودام ذلك طوال الاحتلال الفرنسي ، حتى اذا جاء عهد الاستقلال الجديد واخذ التونسيون مقاليد الامور ، وجدوا ان لا فائدة في بقاء هذا النوع من التعليم ولذلك عملوا على انهائه واستبدال التعليم الحديث به • والتعليم الحديث يستند على النظم الفرنسية وربما كان للغة الفرنسية فيه نصيب كبير ، والتونسيون يشكون في اصلاح التعليم القديم ، وهم غير متحمسين الحماس الكافي الى زحزحة هذه الفرنسية عن الميدان ، واحلال العربية محلها او قل تعريب التعليم كما يقولون هم ، • فما زالت المواد تدرس بالفرنسية ، في المدالس الثانوية وربما استعين بالفرنسيين على القيام بهذا ، وقد تجد شيئا عجيبا ، ذلك ان مادة التاريخ الاسلامي تدرس بالفرنسية ، وربما كان مدرس هذه المادة فرنسي لا يقيم العربية اقامة جيدة • وقد قيض لي ان اناقش نفرا كبيرا من التونسيين كان من بينهم من يضطلع بالمسؤلية في هذه المشكلة الخطيرة ، غير اني لم اجدهم شاعرين شعورا كافيا بعظم خطورة الامر وعندهم ان لا ضير على العربية على الثقافة العربية في ظل هذا النظام وان تعريب التعليم لابد ان يتم ولو كان ذلك في خطى متباطئة ثقيلة • ولكن النتيجة هو ان العربية قد خسرت وأن حملة القلم في هذه الربوع والمتصدين لشؤون الادب يواجهون مشكلة التعبير الفني ، ومن اجل ذلك حفلت اساليبهم بالالوان الاجنبية المترجمة مما هو موجود في الفرنسية ، والمثقف فيهم يترجم هذه الاساليب ويدرسها في عربيته شعر ام لم يشعر بذلك • على ان طائفة منهم كان لها اساس متين في بناء عربي قويم ولذلك سلم اسلوبها من هذه الرطانات ، وهؤلاء من الباقين على العهد القديم ، ومازال فيهم شوق للكتاب العربي ، والكتاب العربي هو المطبوع في المشرق بصورة عامة ، وهم يقرءونه فيتأثرون بذلك ويظهر ذلك فيما

يكتبون • ولكن طائفة اخرى قد استهوتها الثقافة الفرنسية بأدبها وفنها ، وجرها ذلك الى العزوف عن الثقافة العربية الاصيلة وعندهم ان لا فائدة مرجوة من الاتصال بالمشرق ثقافيا ما دام هذا المشرق متأخرا في ثقافته معتمدا فيها على الاوربيين •

فعلى مؤرخ الادب التونسي الحديث بعد ذلك ان يتبين هذا الاختلاف بين انصار الثقافة العربية ، والداعين للثقافة الاوربية الحديثة او قل بين انصار القديم وأنصار الجديد على زعمهم •

وانصار الجديد من التونسيين لم يشعروا بخطورة الامر كما بينا ، وهم يقرءون الصحيفة اليومية ولا يضيرهم ان تكون مملوءة بأساليب غير عربية ، كأن تقرأ ان فخامة الرئيس يخطب في الاطارات والقارىء الشرقي يستغرب هذه الاستعمالات وربما استغلقت عليه ، ويريدون بالاطارات مجموع المنظمات والمؤسسات التي تخص الحزب القائم • ولفظ الاطارات ترجمة لكلمة Cadres الفرنسية وتدل الكلمة في معناها غير الحقيقي وهو المجازي هذه الدلالة ، غير ان الكلمة في العربية لا تنتقل هذا الانتقال المجازي •

وتقراء ايضا ممثل تونس القار في المنظمة العالمية ، ولفظ « القار » يعني في اصطلاحهم الدائم ، وكأنك لا تجد كلمة (زبائن) عندهم جمعا لزبون ، فهم يستعملون بدلا منها (حرفاء) جمعا لحريف وهي من الفصيح القديم الذي زال استعماله •

وهناك الفاظ واستعمالات لا تقع عينك عليها الا عرفت ان صاحبها تونسي او مغربي او جزائري ، فالعام الماضي او المنصرم كما نقول ، يكون عندهم العام الفارط والصيفية الفارطة للصيف الماضي • وتقرأ كل يوم ان هيأة من الهيئات تنظم تربصا لطلابها او لاتباعها ، وقد استغلق علي الامر حين قرأت هذه العبارة لولا ان اسعفني احدهم فأوضح لي المراد بالتربص

وهو التمرين والتدريب ، ولا اعلم من اين حمل (التربص) هذا المعنى ، وكأن تقرأ ان الاحتفال سـيقام في موضـع ما اين يخطب الرئيس في الاطارات ، واستعمال الظرف (اين) مكان حيث غير صحيح ، وهو مـن آثار الترجمة للاسـاليب الفرنسية وهو يقابل Ou الفرنسية التي يراد بها (حيث) .

هذا غيض من فيض أقدمه للقارىء تعريفا بهذه الثقافة العربية المغربية .

علم اللغة بين علماء العربية وابن خلدون

الاهتمام باللغة امر تستدعيه ضرورة قائمة • ذلك ان المشكلة اللغوية من المشكلات الخطيرة • ومن اجل ذلك نشطت المجامع اللغوية في الاقطار العربية في العمل على حل هذه المشكلة القائمة ، وتبرز المشكلة في ان العرب في يومنا هذا لا يتكلمون بالفصيح من العربية • فالعامي الدارج هو المستعمل ، وامر العامي مشكلة من المشكلات ايضا ، فهناك لهجات مختلفة باختلاف البلاد ثم ان البلد الواحد مشتمل على لهجات وطرائق في التعبير مختلفة ايضا ، وربما صعب على العربي من شمالي العراق ان يفهم من قروي من سكنة القسم الجنوبي من العراق •

والبحث اللغوي التاريخي في العربية صعب جدا ، وصعوبته آتية من افتقار الباحث الى كثير من المواد الضرورية لهذا البحث ، فالذي نعرفه ان العربية وصلت الينا ناضجة كل النضج ولغة القرآن تشهد على المستوى العالي الذي بلغته العربية •

ومن اجل ذلك فلا نعرف كثيرا عن نشأة هذه اللغة وتطورها في مراحلها الاولى التي سبقت عصر القرآن،وانا لم ارد أن أخص القرآن بالمثل الوحيد على هذا الرقي ، ومن اجل ذلك ايضا استعملت مصطلح (عصر القرآن) لادخل في هذا الشأن ما صح من الشعر الجاهلي وسائر فنون القول المعروفة •

ولابد ان اخلص من هذه المقدمة القصيرة الى الحديث عن علم اللغة عند الباحثين الاقدمين ثم كيف كانت نظرية العلامة الشهير ابن خلدون في هذا الموضوع •

ولقد كان لعلماء اللغة في القرن الرابع الهجري وقبل ذلك بكثير اقوال في علم اللغة • غير ان هذه الاقوال لم تنته الى بحوث علمية واسعة ،

ويجدر بنا ان نعرض لراي ابي الحسين احمد بن فارس احد ائمة اللغة في القرن الرابع الهجري ، فهو يعرض في كتابه الذي اسماه « بالصاحبي » الى رايه بقوله !

باب القول على لغة العرب اتوقيف ام اصطلاح ؟

وهو يجيب عن هذا السؤال قائلا : اقول : ان لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله ـ جل ثناؤه ـ «وعلم آدم الاسماء كلها» . فكان ابن عباس يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وحمار واشباه ذلك من الامم وغيرها .

وظل ابن فارس يبسط القول في هذا الراي متمسكا به اخذا بالآية الكريمة التي اشرنا اليها . ولم يسلم ابو الفتح عثمان ابن جنى من القول بهذا الراى فقد قال بالتوقيف في اصل اللغة ثم عـــاد الى القول بمبدأ الاصطلاح كما جاء ذلك في كتابه المشهور « الخصائص » .

ولم يقتصر قول ابن فارس بالتوقيف على اللغة وانما قال بذلك فـي موضوع الخط فقد جاء في الصاحبي ما نصه « والذي نقوله فيه ان الخط توقيف ، وذلك لظاهر قوله عزوجل : « اقرأ باسم ربك الـــذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » وقال تعالى « والقلم وما يسطرون »

ولم يكن المسلمون اول من قال بالتوقيف في هذا الموضوع معتمدين على الآية الكريمة ، فقد جاء مثل ذلك في سفر التكوين من العهد القديم وفحوى ذلك ان الله علم آدم اسماء المخلوقات جميعهـــا . والنتيجة التي نستلخصها من قولهم بالتوقيف مفسرين الآية كما يشاؤون ، هي انهـــم جمدوا على العربية الفصيحة ولم ياخذوا ما سواها ، وانهم لـــم يتقيدوا بالاستعمال ، وتطور هذا الاستعمال في اللغة ، فقد رسموا لانفسهم صورة للغة لا يحيدون عنها ، وحملوا بذلك ما خالف هذا المرسوم المتفق عليـه

على الخطأ واللحن ومجاوزة الصحيح • وقصة عبدالله بن أبي أسحق الحضرمي مع الفرزدق دليل على هذا ، فقد قال الفرزدق في قصيدة له :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من الناس الا مسحتا أو مجلف

فقال النحوي : على أي شيء ترفع « مجلف » فقال الفرزدق : على ما يسوؤك • وليس الحضرمي بدعا بين اللغويين ، فقد ذكر ابو حاتم السنجستاني : سالت الاصمعي : اتقول التهديد (ابرق وارعد) قال : لا ، لست اقول ذلك الا اني ارى البرق واسمع الرعد ، قلت قال الشاعر الكميت :

ابرق وارعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

قال : الكميت جرمقاني من اهل الموصل ليس بحجة،ولكن الحجة هو الذي يقول :

اذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لابي قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متاخر لا يؤخذ بقوله • قال ابو حاتم فاتيت ابا زيد الانصاري ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد ! فعلت السماء ؟ قال رعدت وبرقت ، قلت : فمن التهديد ؟ قال : رعد وبرق وارعد وابرق ، فاجاز اللغتين ، ثم سالت أعرابيا فصيحا فاجاز اللغتين ولم يجز الاصمعي الا لغة واحدة •

وكان الاصمعي ينكر كلمة « زوجة » ويقول « زوج » ويحتج بقوله تعالى « امسك عليك زوجك » فقيل ،له ان الشاعر ذو الرمة يقول :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال ذو الرمة ليس بحجة ، اذ طالما اكل البقل والمالح في حوانيت البقالين وقد عرف عن الاصمعي هذا التشدد والحرج ، فهو يابى كلمة خالفت لغة التنزيل ، وهو من اجل هذا لم يرض لنفسه ان يبحث في لغة

التنزيل على نحو ما فعل ابو عبيدة وابن قتيبة مثلا • ويقول ابن جني : كان الاصمعي ليس ممن ينشط للمقاييس وانه معروف بقلة انبعاثه في النظر وتوفره على ما يرى ويحفظ •

وهكذا ظل علم اللغة سائرا في هذه الطريق التقليدية ، في اعتبار كل تغيير في اللغة خروجا عن سنن الفصاحة • وحسبك أن تعرف ان اللهجات السائرة وهي الحية المستعملة قد اعتبرت عند هؤلاء العلماء الاقدمين من طرائق التعبير المذمومة • وها هو ابن فارس اللغوي الذي أشرنا اليه قد اعتبر هذه الانماط الكلامية من اللغات المذمومة • وهذا النظر في اللغة لم يفد البحث اللغوي ذلك ان الحقيقة اللغوية قد ضاعت ، وان نماذج من القول قد اعتبرت مما لا يستحق التسجيل ، وهذا ما لا يقره علم اللغة الحديث • فالبحث العلمي الحديث ينظر الى ان اللغة ذات مظهرين اساسيين متكاملين وهما : المظهر الجامد Syncronique والمظهر المتحرك Diacronique ومن هذين المظهرين تتبين ان اللغة صورة وليست مادة كما يقول بذلك اللغوي السويسري Caussure على اننا لو تخطينا الزمن وجاوزنا القرن الرابع حتى نصل الى عصر ابن خلدون نجد هكذا المفكر ينظر الى اللغة نظر العالم الاجتماعي فيقول بالتطور ، ويرد اللغة الى انها ظاهرة اجتماعية تتأثر سلبا وايجابا بألزمان والمكان • وهو من اجل ذلك لا يرتضي احكام اللغويين والنحاة وتشددهم في هذا الامر ، فيقول : « ومازالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبم لهذا العهد ، ولا تلتفتن في ذلك الى خرشفة النحاة اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه ، وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاها القصور في افئدتهم ، والا فنحن نجد اليوم الكثير من الالفاظ لم تزل في

موضوعاتها الاولى ، والتعبير عن المقاصد ، والتعاون فيه بتفاوت الابانـــة موجود في كلامهم لهذا العهد ، واساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم ، وفهم الخطيب في محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك • ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في اواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان معتبر طريقـــة واحـــدة ومهيعا معروفا ، وهو الاعراب وهو بعض من احكام اللسان » •

ولابد من الاشارة الى استعمال كلمة « خرشفة النحاة » وهـــــو استعمال يريد به التكلف الشديد الذي أدى اليه البحث العقيم في مسائل منطقية مجردة لا تمت الى الحقيقة اللغوية بسبب • ولابد من الاشارة ايضا الى تقريره ان فقدان الاعراب في اواخر الكلم لا يفقد اللغة صفاتها الاخرى التي تكون منها عنصرا حيا جميلا ، فالاعراب على حد قوله بعض من أحكام اللسان العربي• وابن‌خلدون يذهب الى أكثر من‌هذا وهو يقرر ان‌الاستقراء الشامل الوافي في لغة عصره ربما يهدي الباحث الى ضوابط تغني عن قوانين النحو المقيد المعروف فهو يقول « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي « لهذا العهد » واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المنهـاج الاول في لغة مضر •••• ولقد كان اللسان المضري مع اللســان الحميري بهذه المثابة وتغير عند مضر كثير من اللسان من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته » •

وهذا النص يدلنا على ان ابن خلدون العالم الاجتماعي يقول بتطـور اللغة وان لكل عصر لغة تتطور فتبتعد عن اصلها وعن لهجاتهـــا • ويعقد فصلا يبحث فيه ان لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها ، وهو في هذا الفصل يعرض لموضوع ان لكل مصر من الامصار لغة تختلف عن الاخرى ،

وهو يؤكد استعمال كلمة (لغة) دون غيرها ، وهو يقول : وكل منهم متوصل بلغته الى تادية مقصوده ، والابانة عما في نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم » • وفي هذه الاقوال الاخيرة يبدو نظر ابن خلدون الدقيق الى الحقيقة اللغوية فنتبين من ذلك انه مخالف كل الخلاف لاولئك اللغويين الاقدمين الذين لم يؤمنوا بالتطور والاستعمال ولم يهتدوا الى حقيقة الكلمة ودلالتها وانتقال هذه الدلالة Semantique عبر الـــزمان والمكان •

إمارة للشعر وأمير للشعراء

لعلك لا تعرف غير شوقي اميرا للشعراء ، وامارة الشعر لم تكن بدعة هذا العصر الحديث ، فقد درج اصحاب الاصناف والصناعات والحرف في مختلف العصور على هذا التقليد ، فكان لكل منهم رئيس او امير وربما تجاوز الامر حد الرئاسة او الامارة الى الملوكية ، فللتجـار ملك يتردد ذكره في حكايات الف ليلة وليلة مثلا • ومن الطريف ان نذكر ان احد النحويين المتأخرين وهو الحسن بن صافي كان يدعى ملك النحاة • اذن فلم لا يكون للشعراء امير يجمعون على بيعته لما يجدون فيه من احكام الصنعة ، واصالة الطبع ، وهم صنف من اصناف المجتمع ؟ ولا اريد ان استعمل لفظة «الفن» فقد عدلت عنها الى « الصنعة » لا ظل بين ارباب الصناعات فأجعل من هذه الزمرة التي اتخذت الشعر حرفة لها صنفا متميزا خاصا •

وربما غاب عن ذهنك ان هذا اللقب قد عرفته امم اخرى غير العرب ، ولعل العرب قد اخذوه عن غيرهم من الامم الاعجمية ، فما زال في فرنسا الى عهد قريب امير للشعراء لا ندري كيف حصل على هذا اللقب العظيم ، ومن الغريب ان لطبقة المتشردين في فرنسا Clochards ملكـــا يتمتع بهذه الملوكية الغربية وما زلت أذكر منذ سنين خلت ان الصحف الفرنسية أشارت الى وفاة هذا الملك الغريب ، ونوهت بذكره ، وبشخصه العظيم ، وانه كان يحتفظ بصداقات الشخصيات الكبيرة والملوك فكان من اصدقاء صاحب تاج المشردين ملكة هولندا وفيصل الاول ملك العراق •

وهكذا فليس شوقي غريبا بين العرب في احتفاظه بلقب « الامير » فله من مكانته وصنعته ما يسعف على الزهو بالامارة المصطنعة ، اقول : المصطنعة ذلك ان شوقي من أصحاب الحظوة والجاه ، ومن أرباب الترف والنعيم ،

وان مقامه بين الملوك والامراء دفعه الى ان يطلب هذا المجد ، وربما اريد له أن يكون « الامير » فأتاه فلان وفلان من معاصريه مهنئين ، ولا أريد أن أقتصر على التهنئة فالامارة تقضي البيعة ، وهكذا فقد جاء اليه حافظ ابراهيم من الشعراء المصريين . « مبايعاً » :

امير القوافي قد اتيت مبايعاً ... وهذه قـوافي الشعر بايعت معي

وجاء اليه غير حافظ من الشعراء من هنـا وهناك مهنئين « مبايعين » معترفين بسبقه في الاحتفاظ بهذه الامارة ، ويبدو ان اجماعاً لم يحصـل على هذه « البيعة » فلم تقر أقاليم العربية جميعها بهذه الامارة ذلك ان بين المغاربة من لم يعترف بذلك ، ومن اولئك التونسيون الذين حـلا لهم ان يعتلي عرش الامارة تونسي يكـون امير شعراء المغرب عامة ، ذلك ان التونسيين يرون في انفسهم الوجه البارز المعبر عن افريقيا العربية الشمالية ، وهم في ذلك يريدون ان يقولوا للمشارقة اننا مثلكم او خير منكم ، وقديما كانت المنافسة بين المغاربة والمشارقة ولكن المغاربة لم يأتوا بجديد من افانين المعرفة ، فهي مادة المشرق اعيدت وشرحت ، وكأن هؤلاء ارادوا ذلك حين قالوا « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

وهذا التونسي الذي بويع على امـارة الشعر هو محمد الشاذلي خزندار وجدير بنا أن نقف عند هذا العلم الذي نعرفه فهو محمد والمغاربة عامة ذوو ولع بهذا الاسم عملا بالمأثور من الحديث « خير الاسماء ما حمد وعبد » فأنت تجد الكثرة العظيمة من الرجال قد سميت « بمحمد » ومن تعلقهم بهذا الاسم انهم ينادون به عابر السبيل الذي يجهلون اسمه ، فكأن هذه « النكرة المقصودة » هي « محمد » أو قل كأن هذا العلم يصح أن يطلق على أي من المسلمين ممن يحملون اعلاما مختلفة ، ذلك ان تفتح دليـل « الهاتف » ولا اقول « التلفون » لان الهاتف هو الشائع المعروف لترى هذه الكثرة من الرجـال ممن اسمهم « محمد » بهذا الرسم ، ومن اسمهم

« امحمد » على الاستعمال العامي الدارج ، وكأن « سي محمد » هو غير « سي امحمد » « وسي » هذه مرخمة عن « سيد » على الطريقة العامية المحلية • ونعود الى صاحبنا « الشاذلي » المصدر بالاسم « محمد » فنقول : ان الشاذلي من الاعلام المشهورة في الشمال الافريقي وربما جاء الاسم بهذه الكثرة تيمناً بالشيخ الشاذلي احد المتصوفة ومن اصحاب الطرق ، والطريقة الشاذلية معروفة مشهورة ، وقد غبر زمان كان فيه الشمالي الافريقي يعج بالمتصوفة وأرباب الطرق وأهل الزوايا ، فقد عمل المستعمر الفرنسي على تقوية هذه النزعات وقد وجد فيهم آلات طيعة تعمل على تمكينه وتقوية نفوذه • اما « خزنه‌دار » فهو لقب الشاعر الذي يشير الى ارومة غير عربية ومن الطريف ان نشير الى ان « شوقي » امير الشعراء في المشرق ينمى الى أصل غير عربي •

ولد صاحبنا محمد الشاذلي خزنه‌دار سنة ١٢٩٩ هـ في بيت نبيل ، وشب على الترف والنعيم في البلاط التونسي وتقلب في اهم المناصب الوزارية ما يقرب من نصف قرن الى ان عزل الامير محمد الناصر فاضطر خزنه‌دار الى تقديم استقالته •

ولم تثنه ابهة المناصب عن الانغمار في صفوف الشعب ، ولا أريد أن اعرض لترجمته الا بمقدار ما يخص القاريء من ذلك ، وانا اثبت هذا القدر من ترجمته حرصا مني على تعريف هذا العلم لجمهرة القراء الذي يجهلونه كل الجهل كما يجهلون العدد الضخم من معاصريه ممن يزخر بهم تاريخ الادب التونسي الحديث فجمهور المشارقة لا يعرف من هؤلاء الا صاحب الحظ الذائع الصيت ابا القاسم الشابي ، ولا اريد ان ادخل في سر هذه الشهرة فربما كان اشعر التونسيين عامة •

اما صاحبنا الامير فلا اراه بالقدر الذي يؤهله الى الامارة كائنة ما كانت هذه الامارة • وسنعرض لشيء من شعره ليتبين القاريء انه لم يكن

الشاعر الذي وهب العرق النابض ، ولا الصانع الماهر الذي يدلك على احكام الصنعة ومهارة الاداء • ولكنه كان صاحب الجاه الكبير والمكانة العـالية وانه يمت للبيت الملوكي العامر • ونسب يوصله الى السدة العالية لابد ان يضفي عليه ثوب الشرف ووسام الامارة ، ثم انه لما كان يرصـف القوافي بعضها الى بعض ، فلابد أن يهيئه المنافقون المتملقون ويغرونه بعرش امارة الشعر فيعقدون الحفلات من اجل اعلان هذا اللقب الادبي ، كأن يقـول قائل منهم هو محمد الفائز شاعر القيروان في بيعة صاحبنا خزنه‌دار بمناسبة ظهور الجزء الثاني من ديوانه :

أمير القـوافي وحارسـها	وبلبل تونس شيخ البيـان
تقبـل هنـاء يقـدمه	لدست الامير فتى القـيروان
فهـذا اللـواء بكفك أضحى	يظـل الرعيـة في كل آن
وأنت عـلى التخت تحدو القوافي	فتأتيـك طوعاً بدون امتنـان
فأنت الهـزار بخضرائنـا	تفـاخر مصر بيوم الرهـان
أفي الصيف أخرجت للشعب روضاً	وعززته اليوم منـك بثـان
تفيـأ ظلـه كل أديب	وبشم العبـير بذاك الجنـان
وطوقت جيـد القريض بعقد	تهيم العـذارى به والقيـان

ولا ادري ماذا اقول تعقيبا على هذه الابيات التي « لم تأت طوعا بدون امتنان فقد بدا عليها ان صاحبها يتملق الامير خزنه‌دار صاحب المنزلة العلية والرجل النبيل الذي يجله التونسيون ، فلم لا يجمع المجد من أطرافـه فيكون صاحب الصناعتين •

وقد عرف عنه ان مقامه والطبقة التي ينتمي اليها لم يثنياه عن التحسس بالقضايا العامة ، ولعل هذه الناحية هي التي اكبرته وجعلت الجمهور ينظر فيه شاعره الكبـير المفضل على نحو ما أفاد شاعرنا الرصافي الكبـير من مشاعره الوطنية ومواقفه الجريئة في قضايا عدة •

ولا بد أن نعرض لشعره فقد أشرت انه يرصف القوافي ، وما أكثر رصاف القوافي في كل مصر من الامصار ، ولكن صاحبنا يرصـــفها بشكل جعلت « محمد الفائز القيرواني » ينعته « بهزار الخضراء » والخضراء تونس كما هو مشهور معروف وأن « هذا الهزار » تفاخر به الخضراء « ارض الكنانة » في « يوم الرهان » اذن فالمسألة مسألة سبق ورهان ، واذا كان من سبق فلابد من قصب يحرزه السابق والقصب عرش الامارة ، فكأن أخواننا التونسيين لا يؤمنون بالقول المشهور : « منا امير ومنكم امير » .

ولنرجع الى شيء من امير الشعراء خزنه‌دار فنسمعه يقول في «الحر» قصيدة اسمها ذكرى الزعيين :

الحر من لا يستكين لمرهـــق ... فعليـــك خصمك مم ويحك تتقي
واصدع بحق في الاباة ولا تقـــل ... « ان البـــــلاء موكل بالمنطق »
فالى م تستجدي وحقـــك بـــين ... شلت يـــد تمتـــد للمتصـــدق
تبا لمن إلف الخنوع لغاشم ... ما تلك الا شـــيمة المتملق
أولى وأحـــرى أن يبيت على ظما ... من ظل من ماء المهـــانة يستقي
فيم احتمالك والـكوارث جمة ... ممن يراك بنظـــرة المتفوق
صم وعمي ساخرين تطـاولا ... منـــا كأنا في الـــورى لم نخلق
لا تشـــكهم ان الشكاة مذلـــة ... والى مراقي العـز وحـدك فارتق
مستضعف من بات يرقب منـــــة ... من أهله أو من عـــدو أخـرق
اســلك لصالحك السبيل بحكمة ... وافتـــح بحزمك كل باب مغلق
وهما الطريقـــان السعادة والشـقا ... فكن السعيد اذا أردت أو الشقي
واحمل بفولاذ العزيمة وفرها ... واصـعد مع البـازي المطل وحلق

ولقد اكثرت عليك صديقي القاريء ــ ذلك اني اظنك ضقت ذرعا بهذه القطعة الطويلة التي لم تتوقع ان تكون لناظم خامل الذكر في ايامنا فضلا عن انها لشاعر ، بل أمير للشعراء ، فهذه الابيات اعلق بالنظم والصق بالرصف،

فــــلا تقرب من مادة الفن التي تقتضي ادوات وآلات لا يملكها صاحبنا كالتصوير والخيال والسير في السبيل الذي يعطي طابع الوحدة والارتباط بين اجزاء المقطوعة ، اما السيد الشاذلي خزنه‌دار فلديه جملة معان مختلفة متباعدة يفرغ كلا منها في بيت من الابيات بطريقة تقريرية حكائية لا تبعد كثيرا عن حديث الناس وما يضربون فيه من أبواب • وقد حصل لشعراء كثيرين شيء كثير من ذلك فأنت اذا رجعت الى هــذه المقطوعة وجدتهـا اجزاء منفصلة لا توحي ان صاحبنا قد نظر لموضوع « الحر » نظرة الفنان الذي يريد أن يصنع الصورة الموحية للحر في عالم يشقى فيه ، • وأين هده الصورة التي نريدها من ابياته الاخيرة التي يشفعها بوصيته ونصيحته عــلى نحو الوعاظ • ويعرض الشاعر للموضوعات الـــوطنية فيعمد الى طريقه الالقائية التقريرية التي لا تلتزم الا بايصال الفكرة بأيسر السبل فيقول في قصيدته التي اسماها « نداء »

نادت بنيهــــا الـــديار ‏ ‏ ‏ ‏ بالله أيـــن المصـــير
هـــذا علي يغـــار ‏ ‏ ‏ ‏ وذا علـــيّ يغـــير
التـــونسي بنـــيّ ‏ ‏ ‏ ‏ أضحى بحقي ينـادي
لـــكنما ذو الغـــي ‏ ‏ ‏ ‏ رآه أعـــدى الأعــادي
حيث اغتـدى في الحي ‏ ‏ ‏ ‏ يقـــول هـــذي بلادي
وحـــق هـــذا الابى ‏ ‏ ‏ ‏ قامت بـــــه الآثـــار
الى ذويهـــا تشـــير

الى متـــى نتشـــاكى ‏ ‏ ‏ ‏ والمعتـــدي في انهمــاك
تعســاً لمـــن يتبـــاكى ‏ ‏ ‏ ‏ تعســـاً الى المتبـــاكي
من يرتجي لي انفكاكا ‏ ‏ ‏ ‏ لا ينتمـــي لاحتراكـــي
قل والـــذي ســـواكا ‏ ‏ ‏ ‏ وانـــه الجبـــــار
ما في البـــلاد غيـــور

ويستمر صاحبنا على هذا النحو في شعر الوطنية الذي يعرض للقضايا العامة ، وما أظنك الا ذاكرا وأنت تقرأ هذه المقطوعة ، « ايقاظ الرقود » للرصافي التي يقول فيها :

الى كم أنت تهتف بالنشيد   وقد أعياك ايقاظ الرقود
فلست وإن شددت عرى القصيد   بمجد في نشيدك أو مفيد
لان القوم في غي بعيد
اذا أيقظتهم زادوا رقادا   وان أنهضتهم قعدوا وئادا
فسبحان الذي خلق العبادا   كأن القوم قد خلقوا جمادا
وهل يخلو الجماد من الجمود

على ان قصيدة الرصافي هذه أوضح معنى وأسلم مبنى . وقد أشرت الى ان صاحبنا من ذوي الجاه العريض ، وممن نعم بالقصور بظرفها ونعيمها وترفها وتقاليدها ، فلابد ان يبدو شيء من ذلك في شعره ، ومن ذلك قصيدته « طرب » التي يعارض فيها قول ابي نؤاس :

راحة النهى الطرب   هاتها فلا عتب
الدنان منزعة   والخمور تنسكب
والكؤوس جارية   طاف فوقها الحبب
بنت كرمة جليت   نعم ذلك النسب
رحبوا بآنسة   زفها لنا العنب
وابشروا بطلعتها   فهي للصفا سبب
عتقت بدسكرة   عانس ولا عجب
كلنا بها غزل   كلنا بها نخب

وهكذا يمعن في وصف الخمرة ومجلسها وآلاتها وما يصحب هذا المجلس من انس وقصف ولهو وغناء . وكأن صاحبنا اراد في هذه القصيدة ان يعارض « شوقي » او قل ينافسه ، فأمير شعراء المشرق مولع بباب

المعارضات فقد عارض غير واحد من الشعراء الاقدمين فقد قال شوقي في معارضة ابي نؤاس قصيدته المشهورة والتي مطلعها :

حف كأسسها الحبب فهي فضة ذهب

وباب المعارضة تقليد محض قل أن يأتي فيه صاحبه بجديد يستملح • والعجيب من هؤلاء المقلدين انهم لا ينفعلون بالموضوع نفسه فيذهبون يترسمون نماذج مشهورة فيسيرون على هديها •

وبعد فهذا محمد الشاذلي خزنه‌دار شاعر تونس او قل امير شعرائها الذي ما كنا نعرفه كما لم نعرف سائر معاصريه من الاعلام الافريقية ، فقد قطع الاستعمار الفرنسي بين الشمال الافريقي وسائر الاقاليم العربية فاصبحنا لا نعرف نحن المشارقة عما كان عليه اخواننا الافريقيون من الناحية العلمية •

وقد اتيح لي ان الم بشيء من ذلك فأطلع عليه واسجل مابدا لي من نظرات في الادب التونسي الحديث •

عرض في التعليم التونسي بين القديم والجديد

لم يتهيأ لنا ـ نحن المشارقة ـ الاطلاع على ما كتب في تاريخ التعليم التونسي بصفة خاصة ، والشمالي الافريقي بصورة عامة ، الا ما كتبه ابن خلدون في « المقدمة » اذ عرض للموضوع في جملة فصول تكلم فيها على المواد العلمية مبينا ضرورتها ومكانتها في التاريخ الحضاري ، ووجه الصواب في تعليم هذه المواد وطرق الافادة في ذلك وجملة هذه الفصول تؤلف مادة تربوية جديرة بالوقوف عندها ، والنظر فيها ، وتفهم ما تنطوي عليه من أفكار جديدة ربما لم ينتبه اليها علماء التربية الا في عصورنا المتأخرة . ولم يقتصر ابن خلدون في هذه الفصول على الاقوال العامة ، بل يتجاوز ذلك فيعرض لمسائل تدخل في صميم التربية المدرسية ، كما يعرض لاخرى هي من اختصاص الطرق الخاصة ، أو اصول التدريس في اصطلاحنا التربوي الحديث . فهو يتحدث في الفصل الثامن والعشرين عن « أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل » فيقول : « اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها او اكثرها ، ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور.....»[1] فأنت ترى أنه قد عرض للموضوع بالنظر التربوي الناقد ، فقد تناول مشكلة هي من أخطر المشكلات ، وهي مشكلة الاصطلاح العلمي الذي تعددت الفاظه في زمنه بحيث اصبحت من الامور التي تعسر على المتعلم وتشغل فكره ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون (مصر ١٩٣٠ المطبعة الازهرية) ص ٤٧٠

ثم تناول كثرة التأليف فضرب مثلا « بالمدونة »[1] وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير أو غيرها ، وكل ذلك مما يعيق المتعلم عن الوصول الى مادة العلم الصحيح في أمد غير طويل .

وفي الفصل التاسع والعشرين يبين ان « كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم[2] » فيقول : « ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم ، يشتمل على حصر مسائله وادلتها باختصار في الالفاظ ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم ، وربما عمدوا الى الكتب الامهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه واصول الفقه ، وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق ، وامثالهم وهو فساد في التعليم ، وفيه اخلال بالتحصيل ، وذلك لان فيه تخليطا على المبتدىء بالقاء الغايات من العلم عليه ، وهو لم يستعد لقبولها بعد ، وهو من سوء التعليم كما سيأتي ، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، لان الفاظ المختصرات صعبة عويصة ، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ... » ثم يؤكد ان النتيجة من التعليم في هذه المختصرات قاصرة .

ثم يدخل ابن خلدون الى موضوع من موضوعات اصول التدريس كما

---

(١) « المدونة » من امهات كتب الفقه المالكي المطولة ، ومن اول ما الف وجمع في هذا الباب ، وهي مجموعة ما روى وسمع عن الامام مالك والشروح على ذلك ، جمعها الامام ابو عبدالله محمد بن ابي سعيد سحنون ، واسمه عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، مولده في القيروان سنة ٢٠٢ هـ وتوفي سنة ٢٤٠ (انظر طبقات علماء افريقية ، الجزائر ، ١٣٣٢ هـ ص ١٢٩ .

نصطلح عليه في أيامنا ، فيتحدث في الفصل الثلاثين عن « وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته « فيقول : « اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا يلقي عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي اصول ذلك الباب ، يقرب له في شرحها في وجه الاجمال ، ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر هذا الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ، الا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ، ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ، ويستوفي الشرح والبيان ، ويخرج عن الاجماع ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، الى أن ينتهي الى آخر الفن ، فتجود ملكته ، ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته ، هذا وجه التعليم المفيد .... » ثم ينتقد ابن خلدون المعلمين في عهده فيقول : ان كثيرا منهم يجهلون طرق التعليم وافادته فيحضرون المتعلم في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم « وصوابا فيه ، ويكلفونه رعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها ، وقبل ان يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ، ويكون المتعلم اول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب الى الإستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ، ثم في التحصيل فيحيط بمسائل الفن .. »[1]

فأنت ترى الى ابن خلدون في هذه الفصول ، معلم يجيد مهنة

(١) المقدمة ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

التعليم ويعرف اسرارها ، وقد اكتشف بما كان له من اطلاع واسع ، وذهن ذكي ناقد ، الطرق التي ينبغي اتباعها في تعليم الطفل . ثم يعرض في الفصل الثاني والثلاثين « لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه » فيقول : « ...... فأما أهل المغرب (المقصود المغرب الاقصى) فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، واخذهم اثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب الى ان يحذق فيه او ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر امم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة ، وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره ، فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم .... وأما الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا انه كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم ، جعلوه اصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب ، والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ، ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة .....

وأما اهل افريقية[1] فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها ، الا ان عنايتهم

---

(١) المقصود بأهل افريقية أهل تونس ، وربما كانت تونس والجزائر دون سواهم .

بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك ، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن اقرب الى طريقة أهل الاندلس ، لان سند طريقتهم متصل بمشيخة الاندلس ..... » .[٢] وهكذا يستمر في عرضه لطرق التعليم في مختلف الامصار فيعدد امصار المغرب عامة بما فيها الاندلس ، ويجمل الكـــلام على المشرق بصورة عامة .

فابن خلدون في هذه الفصول يعرض للتعليم وطرقه دون ان يدخل في تفاصيل هذه الموضوعات . ونحن لا نملك من مادة هذا الموضوع الا هذه الفصول المجملة ولذا ينبغي أن نعرض لتاريخ التربية في القطر التونسي منذ الفتح الاسلامي لنبين كيف سار التعليم وكيف تطور ، وكيف استحال في عصوره المتأخرة قبيل الانتداب الفرنسي ، وطوال عهد الانتداب الذي دام قرابة ثمانين عاما ، ثم نعرض لما قامت به الحكومة التونسية في عهد الاستقلال منذ سنة ١٩٥٦ .

ولا بد أن نعرض للقيروان التي اختطها المسلمون عند الفتح الاسلامي، فقد كانت مركز الثقافة العربية الاسلامية ، ذلك ان سفيان بن وهب دخل الى افريقية خلال عام ثمان وسبعين في خلافة عبدالملك بن مروان ، وكانت بها يومئذ كتاتيب وكان ذلك بعد تأسيس القيروان بربع قرن . حكى بن ابي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه »[١] .

وقد استعمل عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن ابي المهاجر المخزومي

---

(٢) المقدمة ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .

(١) ابن الدباغ ، معالم الايمان ١ / ١٢٠ عن رسالة المعلمين لمحمد بن سحنون نشر حسن حسني عبدالوهاب تونس ١٣٤٨ .

مؤدب اولاد عبدالملك بن مروان ، على افريقية سنة ١٠٠ للهجرة[٢]، واختيار عمر بن عبد العزيز لاسماعيل الـــذي كان مؤدبا لاولاد عبد الملك بن مروان ، امر له قيمة خاصة ، فقد ذكر ابن العذارى : « وما زال اسماعيل حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى اسلم بقية البربر بافريقية عـــلى يديه في دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي علم أهل افريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عمر عشرة من فقهاء التابعين منهم عبدالرحمن بن نافع وسعيد بن مسعود التجيبي »[٣] .

ولقد ذكر ابن خلدون ان الولدان كانوا يلقنون القرآن في هـــذه الكتاتيب ، ويروى المقدسي ابو عبدالله محمد بن البناء البشارى لمازار البلاد الافريقية في حدود سنة ٣٧٠هـ وجدها كلها لا تقرأ الا بقراءة نافـــع على طريقة أهل مدينة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، قال : « وأما القراءات في جميع أقاليم المغرب فقراءة نافع حسب » .[٤] كما نقل القاضى عياض في ترجمة ابي العباس احمد بن طالب القيرواني صاحب محمد بن سحنون ما يأتي : « وذكر ابو عمرو الداني في كتابه : ان ابا طالب ايام قضائه أمر ابن برغوث المقرىء بجامع القيروان ألا يقرى الناس الا بحرف نافع »[٥] .

وقد تحدثوا عن أمور التعليم فتناولوا مســــــائل كثيرة فقد ذكر الونشريسي : « وسئل ابو طيب عبدالمنعم بن خلدون الكندي (المتوفى في القيروان سنة ٤٢١ هـ) هل يجلس المعلم من الصبح الى المغرب او عند طلوع الشمس الى عند الاسفار ، فأجاب : أما وقت جلوس المعلم وقيامـه

(٢) ابن عساكر ، التاريخ ٢/٣٠٨ .
(٣) ابن العذاري ، البيان المغرب طبعة ليدن ١/٣٤ .
(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم (ليدن ١٨٧٧) ص ٢٣٨ .
(٥) القاضي عياض ، (ترتيب المدارك ١/٢٧٥ (من مخطوطات العلامة السيد حسن حسني عبدالوهاب .

فبحسب العرف ، وما تعاهده أهل التعليم في بلد[٦] •

وقد تحدثوا عن المعلم وكيف يجب أن يكون وما يلزم أن يتصف به من صفات ، فقد قال الامام القابسي : « ينبغي أن يكون المعلم مهيبا لا في عنف ، لا يكون عبوسا مغضبا ، ولا مبسطا مرفقا بالصبيان دون لين ، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم »[١] •

ومن الطريف أن نذكر في هذا الباب ما اوصى به عتبة بن ابي سفيان معلم أولاده حين سلمهم اليه ، قال عتبة ـ رضي الله عنه ـ : « يا عبد الصمد ليكن أول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم فيه فيهجروه ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ولا تنقلهم من علم الى آخر حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام في السمع مشغلة في الفهم ، وعلمهم سير الحكماء واخلاق الادباء ، وهددهم في أدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، واستزدني بزيادتك اياهم ، ازدك في برى ، واياك أن تتكل على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك » [٢] •

وفي هذه الكلمات الحكيمة فهم خاص دقيق لاصول التعليم ، وكيف يجب ان يباشرها المعلم ، وكيف يعلم الاولاد فينتقل في تعليمهم من مرحلة الى أخرى ، وماذا يجب ان يهيىء لهم من المواد ، والطريقة التي ينبغي أن يقدم فيها تلك المواد ، كما أشار الى العقوبة وكيفية استعمالها وألا يباشرها قبل التهديد بها (الادب) • كما لم يوصوا بالعقاب البدني وشددوا النكير

---

(٦) الونشريسي ، المعيار ١٥٢/٨ • والامام القابسي هو ابو الحسن بن خلف المعافري من كبار أئمة الحديث والسنة بالقيروان ، توفي سنة ٤٠٣ هـ •

(١) المصدر السابق ١٥٧/٨ عن كتاب آداب المعلمين •

(٢) الشريشي ، شرح المقامات ٣٤٩/١

عليه • قال سحنون لمعلم ابنه : « لا تؤدبه الا بالمدح ولطف الكلام ، فليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف »[٦] •

وقد عقد ابن خلدون فصلا على هذا الموضوع فأشار الى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ، قال : « ان ارهاف الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لانه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعنف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره ، خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه ، وعليه المكر والخديعة صارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره من ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ، ومدى انسانيتها ، فارتكس وعاد الى أسفل السافلين » •

ثم قال : « فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبد عليهم في التأديب ، وقد قال : محمد ابن ابي زيد (وصوابه محمد بن سحنون صاحب رسالة المعلمين) في كتابه الذي الفه في حكم المعلمين والمتعلمين : لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلاثة اسواط شيئا • »[١] •

ونقل ابن خلدون عن مروج الذهب للمسعودي ما حكاه الاحمر النحوي عن نفسه ، قال : بعث الى الرشيد لتأديب ولده محمد الامين فلما دخلت عليه التفت الي وقال : يا أحمر ان أمير المؤمنين دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن

---

(٦) ابن الدباغ ، معالم الايمان ٢/٨ .
(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٧٧ ــ ٤٢٨

له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الآثار ، وروه الاشعار، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدءه ، وامنعه الضحك الا في أوقاته ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما ، فعليك بالشدة والغلظة وبالله توفيقكما »[2] .

ولم يغب عنهم من أمور التعليم شيء فقد فطنوا الى أن المتعلم الصغير لابد أن يستعان على تعليمه بشيء من الراحة واللعب ، وذلك أنه يترك وشأنه في فرص معلومة ، يلهو ويلعب ثم يعود الى الدرس ، فقد حكى متعب بن ابي الازهر ، من علماء القيروان في القرن الثالث الهجري قال : قال لي ابو القاسم عبدالله بن محمد : وما حال صبيانكم في الكتاب ؟ قلت له : ولع كثير باللعب ، فقال : ان لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمائم »[3] .

وهو يريد من ذلك أنه لا يثني الولدان عن اللعب الا المرض .

والامام الغزالي من فلاسفة المسلمين في المشرق الاسلامي قد تناول هذه الناحية فقال : « ينبغي أن يؤذن للصبي ، بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب ، فان منع الصبي من اللعب وارهاقه في التعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا »[1] .

ومن المفيد ان نعرض لكتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون

---

(٢) المسعودي ، مروج الذهب (مصر ١٣٠٣) ١٩٥/٢ .

(٣) القاضي عياض (المدارك ترجمة معتب بن ابي الازهر القيرواني) مخطوط .

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين الجزء الثالث (فصل رياضة النفس وتهذيب الاخلاق) .

التنوخي[٢] ، وهو ما دونـه عن ابيه في شؤون التعليم في القيروان ، في النصف الاول من القرن الثالث الهجري ، والقيروان يومئذ دار السنة ، ومحطة طلاب العلوم الشرعية من سائر انحاء المغرب والاندلس .

يعرض ابو عبدالله محمد بن سحنون لما جاء في تعليم القرآن[٣] فيذكر الاحاديث التي ألزمت تعلم القرآن . ولا يفوته في ذلك الاسانيد على طريقة المتقدمين من علماء الحديث ، كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « افضلكم من تعلم القرآن وعلمه » ، وكقوله « خيركم من تعلم القرآن » .

ثم يعرض لما جاء في العدل بين الصبيان فيذكر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أيما مؤدب ولي ثلاثة صبيان من هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » ، وقوله : « اذا قوطع المعلم على الاجرة فلم يعدل بينهم (يعني الصبيان) كتب من الظلمة »[٤] .

يتحدث عن الادب (والمراد به العقوبة) وما يجوز من ذلك وما لا يجوز .

قال : وحدثنا عن عبدالرحمن عن عبيد بن اسحاق عن يوسف بن محمد قال : كنت جالسا عند سعد الخفاف فجاءه ابنه يبكي ، فقال : يابني ما يبكيك ؟ قال : ضربني المعلم ، قال : أما والله لاحدثنكم اليوم ، قال : حدثني عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « شرار أمتي معلمو صبيانهم ، أقلهم رحمة لليتيم ، واغلظهم على المسكين » .

قال محمد بن سحنون : وانما ذلك لانه يضربهم اذا غضب ، وليس

---

(٢) كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون نشر السيد حسن حسني عبدالوهاب تونس ١٣٤٨ هـ .
(٣) كتاب آداب المعلمين ص ٤١ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٢ .

على منافعهم ولابأس ان يضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالادب ثلاثا ، والا أن يأذن الاب في اكثر من ذلك ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالادب عشرة ، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز ادبه ثلاثا • قلت ولـم حددت عشرة في اكثر الادب في غير القرآن ، وفي القرآن ثلاثة ؟ فقال : لان عشرة غاية الادب ، وكذلك سمعت مالكا يقول : وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يضرب احدكم اكثر من عشرة اسواط الا في حد »[1] وهكذا يأتي بسائر الاحـــاديث التي تقيد الادب بحدوده ولا تتجاوزها •

ثم يتحدث عما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم ، كأن يهدي اليه شيء مكافأة له واعترافا • ويعرض في ذلك لما قيل في الموضوع ، وما حدث فيه من امور سابقة ، وما نص على ما جاز منه وما لا يجوز •

كما يعرض لواجبات المعلم نحو الصبيان ، وما يجب ان يعلمهـــم ، وكيف يشغل وقته في تعليمهم ، والمواد التي يحسن به ان يعلمهم زيادة على القرآن والخط ، وما يتعلق بذلك من تجويد القراءة باتبـــاع الاصول في اللغة ، كأن يبصرهم بالجيد من الشعر وأخبار الادب • ويتحدث كذلـك عن واجبات الصبيان نحو معلمهم وكيف يجب ان يسلكوا •

وطريقة الكتاب ان محمد بن سحنون يعرض للاسئلة التي سئل عنها أبوه فأجاب عن ذلك مما يتصل بأمور التعليم في تلك الفترة ، وما سجله في « المدونة » من هذا الموضوع وما حدث على عهد الامام مالك ، فقال فيه ما قال •

ولم تبق القيروان وحدها مركزا للثقافة ، ومجتمعا للعلماء والدارسين في ديار المغرب ، فقد ظهرت تونس حاضرة البلاد المعروفة ، وظهر جامع الزيتونة ، ويمثل جامـــع الزيتونة معهد التعليم العالي • بناه عبدالله بن

(١) المصدر السابق ص ٤٣ •

الحبحاب سنة ١١٤ هـ تخليدا لذكرى انتصاراته في غزواته الكثيرة[١] . واتم بناءه على الشكل الحالي ابو العباس محمد بن الاغلب على عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وصار معهد افريقية العلمي على عهد ابي زكريا الاول الملك الحفصي في اوائل القرن السابع . وجلب اليه الاساتذة من طرابلس مثل عبد الحميد بن ابي الدنيا ، ومن صقلية مثل آل الصقلي الاطباء ومن الاندلس مثل ابن عصفور النحوي ، وابن سعيد وابن الابار المؤرخين وحازم القرطاجني وابن أبي الحسين الأديبين وابن القصار والبطرني الفقهيين . وقد تخرج من الزيتونة في هذا العصر الحفصي نخبة من العلماء منهم عبدالرحمن بن خلدون . وقد مر جامع الزيتونة بأزمة نشأت عن سقوط الحفصيين واستيلاء الاسبان فصار العلماء يهاجرون الى المشرق . ثم جاء الاحتلال التركي فحاول الاتراك ان ينشروا المذهب الحنفي فشجعوه على حساب المالكية ، وصارت التركية لغة التعليم بالزيتونة ، فلم يرض الناس بذلك ، فجاء عثمان داي فاصلح التعليم بالجامع ، وجعل التعليم الحنفي مقصورا على المدارس الحنفية ، وعادت الزيتونة الى سالف مجدها ، وجيء بمهاجرة الاندلس من الاساتذة ليدرسوا فيها . واعتنى الأمراء المراديون بأنشاء الجوامع وجعلوها على غرار الزيتونة ، فأسس عثمان داي جامعا اتخذ منه مدرسة (١٠١٧ - ١١١٧) .

ثم جاء الطور الحسيني : ١١١٧ - ١٢٣٠ فانتقلت السلطة الى حسين بن علي التركي . فصرف همه لاصلاح شؤون الدولة عامة والى اصلاح التعليم خاصة ، وتناول هذا الاصلاح التعليم الزيتوني ، على انه مهما قيل في هذه الحركة الاصلاحية فقد هبط مستوى التعليم في هذا العصر التركي الى مستوى واطىء بالقياس الى ما كان عليه ايام الحفصيين من حيث عمق

---

(١) انظر محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب لعثمان الكعاك (معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية ١٩٥٨) ص ٨٨ - ١١١ .

التعليم ، ومن حيث اختلاف المواد التي تدرس وتنوعهـــا ، فقد كان التعليم يشمل العلوم العقلية والرياضية والطب والفلك ، بالاضافة الى العلوم الدينية والعربية • اما في عصر الحسينيين فلم يبق الا القليل من كل هذا • كما أن هؤلاء الحسينيين لم يصلوا بالتعليم الى المستوى الذي كان عليه في أيام المراديين ، فقد احتفظ هؤلاء بكثير من العلوم التي كانت تدرس على عهد الحفصيين ، وهذا راجع الى أنهم من كرسكا ، وأن ثقافتهم اوربية ، كما ان للجالية الاندلسية المهاجرة الى تونس الفضل في الاحتفاظ بهذا المستوى العلمي الرفيع •

وهكذا ظلت الزيتونة المعهد التونسي العالي طوال هذه الاحقـــاب المتعاقبة والتي شهدت فيها تونس عدة أسر حاكمة[1] •

ولقد قامت الزوايا والربط بقسط آخر في التعليم الديني ولاسيما ما يتصل منه بالعلم الصوفي • كما أن الكتاتيب ظلت تعاصر الزيتونة ، وربما قدمت للزيتونة الطلاب بعد تزويدهم بالقسط اليسير من التعليم كتعليـــم القرآن والخط وشيء يسير آخر يتعلق بتجويد النطق والتلفظ •

وظلت الزيتونة محافظة على مركزها الثقافي طوال مدة الاحتـــلال الفرنسي ، وقد كانت عاملا حفظ لتونس شخصيتها وقوميتها ومجدهـــا ، ولولا هذه الزيتونة العامرة لذهبت اللغة العربية ، ولصارت حال العربيـــة في تونس حالها اليوم في الجزائر وهكذا كانت الزيتونة مركزا يذكـــي قلوب التونسيين حماسا وغيرة ، ويذكرهم بامجادهم ويبعث فيهم روح الذود عن الوطن وتخليصه من ربقة الاستعمار البغيض •

---

(١) انظر محاضرات في مراكز الثقـافة في المغرب لعثمان الـــكعاك (معهد الدراسات العربية العالية في جامعـــة الدول العربيـــة ١٩٥٨) من ٨٨/١١١ •

حال التعليم قبيل الاستقلال :

أما حال التعليم قبيل الاستقلال فهو ينحصر في أربعة اشكال من المؤسسات التعليمية هي : –

١ – مؤسسات قديمة جدا ، وهي تشمل جامع الزيتونة والزوايا والكتاتيب القرآنية •

٢ – مؤسسات احدثت في القرن التاسع عشر ، وبصفة خاصة قبيل الاحتلال الفرنسي ، وقد احدثت هذه المؤسسات قصد مسايرة الزمن ، والاخذ باسباب التقدم العلمي الذي بلغته الحضارة الغربية في ذلك الحين ، وقد بقي من هذا النوع « المعهد الصادقي » الذي أسسه الوزير المصلح خير الدين ليجعل منه نواة نهضة علمية حديثة • اما بقية المعاهد الاخرى فقد قضى عليها الاستعمار •

٣ – مؤسسات حديثة حرة للتعليم الابتدائي والثانوي ، أحدثها المثقفون من الشباب التونسي ، احساسا منهم بخطر الاستعمار الثقافي ، فأندفعوا يقاومون هذا النوع من الاستعمار عن طريق نشر الثقافة الحديثة •

٤ – مؤسسات رسمية ، وهذه احدثت بعد الاحتلال • ووضعت برامجها واهدافها في خدمة الاستعمار وسياسته الثقافية الخاصة بتونس وسائر اقطار المغرب العربي •

أما الزوايا والكتاتيب فهي أثر من آثار الماضي القديم الذي لم يعد يصلح لهذا العصر ، ومهمة هذه المراكز تعليم القرآن ليس غير •

أما جامع الزيتونة فله مكانة خاصة ، وفضله لا يجحد ، وقد سبق الكلام على هذه الناحية ، غير أنه مهما قيل في هذا الموضوع فقد انبرت جماعة كبيرة الى القول والمناداة باصلاح التعليم الزيتوني الذي لم يعد كافيا لحاجات العصر الحديث ، فكان هناك مجلس اصلاح التعليم الزيتوني ،

وقيل في هذا الباب ما قيل ، وتعددت الاراء ، واختلفت الطرق ، وبقيت هذه المشكلات قائمة حتى جاءت فترة الاستقلال الوطني سنة ١٩٥٦ فعولجت هذه المشكلة على نحو سنعرض له بعد قليل •

وأما المعهد الصادقي فهو معهد ثانوي اريد له أن يكون مناظرا للتعليم الحديث في الامم المتحضرة المتقدمة • على أن هذا المعهد وان اتبع الاساليب الحديثة وادخل العلوم العصرية ، فقد امتدت اليه ايد عابثة فخضع للادارة العامة كما خضع غيره •

وأما النوع الثالث فهو التعليم الحر ، والذي انشأه الواعون من الشباب المثقف التونسي الذي شعر بخطر الاستعمار الثقافي ، فعمد الى هذا النوع من المعاهد الحرة ، غير أن الاستعمار لم يترك هذه المعاهد وشأنها ، فصار يتدخل فيها حتى خضعت في جملة ما خضع للنفوذ الاداري الرسمي •

اما التعليم الرسمي فيشمل مؤسسات انشأها الاستعمار ، ورسم لها سياسة خاصة يحقق فيها غاياته وأهدافه ، فهي لا تكترث بالشخصية التونسية ، ولا تهتم بتاريخ تونس ومكانتها بين الامم ، ثم ان لغة التعليم في هذه المؤسسات الفرنسية ، اما العربية فحصتها ضعيفة لا تحقق شيئا ، وينشأ عن هذا ازدواج لغوي لا تحتمله قابليات الاطفال الضعيفة ، لاسيما في التعليم الابتدائي ، وفي هذا جور على اللغة القومية ، واهمال للتراث القومي•

وهذه المؤسسات مقتصرة على التعليم الابتدائي والثانوي ، فليس هناك تعليم مهني زراعي او صناعي ، وليس هناك معاهد لاعداد المعلمين والمعلمات •

ونخلص من كل ذلك الى أنه لم يكن في هذه الفترة أثر للتعليم العالي على مستوى الكليات المعروفة في التعليم الحديث •

حتى اذا اطل فجر الاستقلال ، وجد التونسيون أنهم قد ورثوا تركة

مثقلة بالمشكلات والصعاب ، فالتعليم في حالته على عهد الحماية تعليم ناقص ، رسمه المستعمرون محققا لاهدافهم ، ومن هنا بدأت الدعوة من جديد الى اصلاح التعليم ، وهذه الدعوة جادة ماضية ، ولكنها لم تحقق كل ما أريد تحقيقه ، فالصعوبات كثيرة ، والمشكلات تتطلب دراسة طويلة الامد ، ومساوىء الماضي ثابتة محكمة القواعد ، وهكذا فلم يتحقق كثير من الاصلاح .

غير ان الاصلاح قد تناول الزيتونة ، ذلك ان الزيتونة وما يتبعها من معاهد كانت تضم اكثر من خمسة عشر الف طالبا ، وفي هذا عبث كثير ، وتعطيل للقابليات في رأى دعاة الاصلاح ، لان البلد محتاج الى المختصين في العلوم الحديثة لبناء الاستقلال الجديد ، وليس من المفيد تجنيد مثل هذا العدد في الدراسة الدينية العربية . ولكن الدعوة الى اصلاح الزيتونة قد بولغ فيها ، وكأن القوم قد أخذوا بتيار مجاراة العصر ، وكأن هذه المجاراة قد فرضت عليهم تصفية الزيتونة العامرة ، والغاء التعليم الزيتوني ، ولتحقيق هذا الغرض أسست معاهد ثانوية تستقبل العدد العديد من الزيتونيين ، وزودت بمناهج خاصة ، تلتئم وما كانوا قد زودوا به من مواد ، وكانت هذه المعاهد على صنفين : صنف اطلق عليه « التعليم العلمي » وهو الذي ظل ألصق من الاخر بالتعليم القديم ، الا ما اضيف له من مواد جديدة في شكل موجز سهل . وصنف أطلق عليه « التعليم العصري » وهو أقرب الى نهج المدارس الثانوية من الاول ، وفي كلا الصنفين يفسح المجال للعربية على شكل واضح يحقق الغرض المطلوب . الا ان لهذين الصنفين غاية مرسومة هي تخريج العدد المتبقي من الطلاب الزيتونيين ، الذين يقلون كلما تخرجت فئة منهم وهكذا يتم تخريج هذا العدد فتنتهي هذه الدراسة التي اصطنعت لمعالجة هذه الحالة الطارئة .

وقد تركت هذه الحالة ألما دفينا في نفوس التونسيين الذين يرون في

الزيتونة مجدا باذخا قصد تقويضه، وهكذا تأزمت الحال فنشأ حماس لا يخلو من حقد ومضض بين الزيتونيين والمنادين بالاصلاح، وهؤلاء هم الذين يصرفون شؤون التربية القومية ، وجل هؤلاء من الذين درسوا في معاهد فرنسا ، وهم من اجل ذلك يتعصبون للثقافة الفرنسية ، او قل للنمط الحديث في التربية ممثلا في الثقافة الفرنسية ، وهؤلاء ماضون في هذه الدعوة وان كانت على حساب القيم القومية ، والشخصية التونسية . ولقد قام الجدل حول هذا الموضوع في الفترة الاخيرة على صفحات مجلة « التجديد »[1] ، فقد انبرى جماعة من هؤلاء الجدد ذوي الثقافة الفرنسية ، فنادوا بالاخذ بمقومات الشعب التونسي ، والرجوع بالمناهج الثقافية الى طريق يحقق الشخصية التونسية بتاريخها وتراثها ضمن اطار الحضارة العربية الاسلامية، وكأن هؤلاء يردون على التيار الذي أخذ المسئولين الذين آمنوا بالجديد والاصلاح على هذا النحو .

اما المدارس الابتدائية والثانوية فقد سير فيها على النهج الفرنسي ، ولم يفلحوا في تحقيق الاصلاح المنشود ، فقد بقيت اللغة الفرنسية في طائفة كبيرة من هذه المعاهد لغة تفوق العربية من حيث العناية بها ، ومن حيث عدد الساعات التي تخصص لها . كما ان طائفة كبيرة من المدارس الثانوية مازالت تقرأ المواد بالفرنسية ، ومن جملة ذلك مادة التاريخ الاسلامي ومادة الجغرافية . وبعد حوادث بنزرت سنة ١٩٦٠ حاولوا ان يجعلوا للعربية ما للفرنسية من عدد الساعات تحقيقا لشيء من الاصلاح المنشود .

وقد تستغرب هذه العناية بالفرنسية على حساب اللغة القومية ، ولكنهم يجيبون على استغرابك واستفهامك بانهم مضطرون على ذلك ، فليس الاصلاح بالشيء السهل بعد استعمار دام ثمانين عاما ، وأنهم لا يملكون العدد الكافي من المدرسين والمعلمين الذين يجيدون العربية ، فاذا اريد تدريس

الحساب او الهندسة بالعربية فليس من السهل تهيئة المدرسين للقيـــام بهذا العمل • وهكذا يستعان بالفرنسيين على القيام باعباء التدريس ، وقد يحدث ان يقوم فرنسي بتعليم مادة التاريخ الاسلامي • ولابد أن نشير هنا الى مشكلة التعريب ، وتعريب المناهج او قل تونستها يتطلب معرفة جيدة بالعربية ، وهذا غير ميسور في الوقت الحاضر للنقص الشديد في العناصر المكونة تكوينا عربيا ، ومن أجل ذلك ، ترى الدوائر الرسمية تتخذ الفرنسية لغة لها ، وفي ضمن ذلك وزارة المعارف •

وينجم عن هذه المشكلة مشكلة الكتب المدرسية ، فهي اما فرنسية مطبوعة في تونس ، وهذا قليل جدا ، واما فرنسية ألفت للطلاب الفرنسيين في فرنسا فاتخذها التونسيون كتبا لهم •

ومن الاعمال التي قام بها المسؤولون في فترة الاســتقلال ، انشاء الجامعة التونسية ، وتشتمل هذه على كلية الاداب والعلوم الانسانية ، وكلية الحقوق ، ودار المعلمين العليا ، وكلية العلوم ، وكلية الشريعة ، وكأن هذه الاخيرة استدراك لما وقعوا فيه من تصفية الكلية الزيتونية العتيقة ، وفي ذلك ارضاء للساخطين الحاقدين • وبرامج التعليم في هذه الكلية ـ عدا كلية الشريعة ـ مشابهة لبرامج التعليم الفرنسي العالي ، يشمل ذلك المواد التي تدرس ، وعدد السنوات وطريقة التدريس ، ونظام الشهادات Certificat ، ودبلوم الدراسات العليا ، والذين خبروا الدراسة في معاهد فرنسا يعرفون هذه المصطلحات وقيمتها •

اما اللغة في التعليم العالي فهي فرنسية بصورة عامة ، الا المواد العربية التي تدرس في كلية الآداب ودار المعلمين العليا ، فهي تباشر بالعربية ، كما يستعان بالفرنسية ان طرأت حاجة ، كأن يكون الامر مختصا بمصـــادر فرنسية ، أو مناقشة لرأي عالم من الاعاجم المستعربين • ولا تستغرب اذا قلت لك : ان النظم الاسلامية وهي مادة من المواد التي تدرس في قســم

الاجتماع ، تعطى بالفرنسية ، والذي يعطيها تونسي مسلم ، وحجتهم في ذلك ان هذا القسم يتبع جامعة باريس .

ولابد من كلمة أخيرة منصفة ، وهي ان التونسيين وعلى رأسهم المسؤولون الرسميون ، شاعرون بخطر المشكلة الحاضرة ، فهم يولونها الدرس والعناية ، ولكنهم لا يستطيعون التعجل والاسراع ، والمشكلات كثيرة آخذة بالخناق ، وان تركة عهد الاستعمار ثقيلة مجهدة ، وان هذه الثمانين سنة من حكم استعماري غاشم ظالم ، كفيلة بخلق هذه الحال المؤسفة ، ومن خبر الاستعمار الفرنسي وطرقه اللعينة عرف الامر وحكم بانصاف للتونسيين ، ومن سار على الدرب وصل .

رسالة في السمسرة والسمار وأحكامه
لابي العباس الابياني التونسي
المتوفى سنة ٣٥٢ هـ

مقدمـــة

التعريف بالمؤلف

أبو العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم بن اسحق المعـــروف بالأبياني كما جاء في « المدارك » للقاضي عياض كذا يقال بكسر الهمزة وتشديد الباء ، ويقال صوابه تخفيفها ، التميمي تفقه بيحى بن عمر وأحمد بن أبي سليمان وحمديس ويحيى بن عبدالعزيز وحمـاس بن مـــروان وغيرهم ، وصلحبة لقمان بن يوسف وعبدالله بن عامر وذاكر أبا بكر بن اللباد يروي عنه الاصيلي وأبو الحسن اللواتي وعمرون بن محمد وعبدالله ابن أبي رزيق وسعيد بن ميمون وأبو القاسم بن زيد وأبو على الصولي وعيسى ابن سعادة القابسي وابن زيد ، رحمهمالله ، وغيرهم ، قال بعضهم كان أبو العباس عالم أفريقية غير مدافع ، قال بعضهم : كان من شيوخ أهل العلم وحافظ مذهب مالك قال ابن حارث : هو شيخ من أهل الصـــيانة والانقباض حليما نبيلا فصيحا عالما بما في كتبه حسن الضبط جيد الاستنباط .

كان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رضى الله عنه اذا انزلت به نازلة مشكلة كتب بها اليه يبينها له ، ولما وصل الى مصر تلقاه نحو أربعين فقيها لم يكن فيهم أفقه منه ، وقال أبو اسحق بن شعبان : ما يزال بالمغرب عالم مادام بين أظهرهم ، وما عدا النيل ، منذ خمسين سنة أعلم منه ، وقال أبو حفص بن عمرون ، صحبت الحسن بن نصر وغيره وذكر من أحوالهم

وفضائلهم فما رايت بالمشرق ولا بالمغرب مثل أبي العباس يفضل المسائل كتفضيل الجزار الحاذق اللحم وكان يحب المذاكرة العلم ويقول : دعونا من السماع ألقوا علينا المسائل ، وربما دخل عليه أصحابه وهو ملتات فاذا أخذوا في المذاكرة زال التيائه وظهر نشاطه ، وكان يدرس كتاب ابن حبيب وكا ابن اللباد اذا ذكره يضجر لكثرة ودقة فهمه فيسر به أبو العباس ، وذكر اللواتي أنه قرأ على ابي العباس في الواضحة صدرا من كتاب البيوع فقال له : بقي من الكتاب حديث كذا ومسئلة كذا ، وذكر أحاديث ومسائل فنظرت فلم أر شيئا ثم تأمنا فاذا ورقتان قد التصقتـــا وتجاوزناهمـــا فاذا في الصفحتين كل ما ذكره فعجبنا من حفظه . وكان قليل الفتوى . ذكر فضائله واخباره رحمه الله : لما حَجّ في زمن كافور دخل الجامع بمصر فوقعت عليه أعين ابن القرطي فقال هذه مشية فقيه وكان قد فاتته صلاة العصر فأحرم . وابن القرطي ينظر اليه فقال احرام فقيه ، فلما صلى كان بجواره رجل من اهل العلم فتحدث معه ثم قال كيف رأيت مصر ؟ قال رأيت ظلما ظاهرا ، وكان كافور قد حبس بغال الناس فرفعت رقعة بمقال الى كافور وكان يجلس يوم السبت للمظالم ويجلس معه الفقهاء وفيهم ابن شعبان فلما جلسوا اذا بالرقعة ، فقال كافور : من المتكلم بهذا ؟ وكان الخبر قد وصل الى ابن شعبان وحرض على رؤيته ، فقال ابن شعبان هـــو أبو العباس الابياني ما عدا النيل منذ خمسين سنة أعلم منه .

فقال كافور : تطلق بغال الناس ويبيعون في السوق ان شاؤا فما أردنا اشترينا فكرة دعاء المغاربة لابي العباس وعرف أبو العباس بمقال أبي اسحق فركب اليه فلما رآه أبو اسحق وثب من مجلسه وأجلسه فيه ، ثم ذكره في اشياء ، ثم قال له : انت اليوم ضيف فقال له ابو العباس : تعلم انه لاضيافة على أهل الحضر ، فقال أبو اسحق ابن عبد الحكيم : عليهم الضيافة ثم قال

أبو اسحق في المذاكرة ؟ فقال له : ذلك اليك فقال له : أو ندع للصلح موضعا فقال له : ذلك اليك •

وقيل : ان أبا اسحق القى عليه لما أكمل الصلاة في الجامع عشر مسائل فاجابه في تسع وأخطأ في العاشرة • وقال بعضهم : بل ما أجاب به كان الصواب والمسئلة المدبر يقر بالجناية في حياة سيده ثم يموت سيده والجواب فيها أنه ينظر فان كان قد اختدمه سيده بمثل ما يختدمه المجني عليه في حياته فلا شيء على المدبر ، وان كان اختدمه السيد بمثل نصفها بقي عليه نصف الجناية ، وعلى هذا الحساب قال عبدالله بن ابي زريق : تجب ان قلت قلت نعم ، قال : فلتكن نفسك عندك أهون من الزبل الذي على المزبلة • وكان اسماعيل « رضي الله عنه » أشخص فيه ليوليه القضاء فعرضه عليه فامتنع فأوقفه اسماعيل اياما يقتفي أمره ، ويدس عليه من يسمع كلامه وادخله على نفسه فدخل عليه في زي بدوي حافيا ونعلاه في يده ، وكان قد سبق الى السلطان من قدم من أحواله فلما راه السلطان بتلك الهيئة صدق ما قاله القائل فعرض عليه فامتنع فعافاه ، وخرج من عنده عشاء متوجها الى تونس لحينه فخافة ان يبدو له في أمره فعافاه الله تعالى • وقيل ان الذي أراد ان يوليه القضاء معد ، وكان غذاء أبي الباس نصف حجلة تثرد له في نصف خبزة ، وكان متحفظا في طعامه كثير الحمية ورأي رؤيا تدل ان في طعامه شيئا ، فسأل عن الخبز فلم يجد شيئا • وقد سئل يوما عن فقيهين من أصحابه وتلاميذه ، وهما أبو القاسم بن زيد وسعيد بن سحنون ، أيهما أفقه انما يفضل بين عالمين من كان أعلم منهما ، وكان رحمه الله يقرأ السبع كل يوم وما استكمل حفظ القرآن الا وهو ابن سبعين سنة ، قال بعضهم كنا عند أبي العباس حتى جاء عطية الجزري العابد فنظر يمينا وشمالا ، ثم انصرف وهو يقول : ما هنا من اصحابنا احد فصاح أبو العباس عليه ، فرجع ثم قال له : وما نحن من اصحابك واندفع في البكاء ويكرر قول عطية ويقول :

من اين نكون من اصحابك وانت تأتي القيروان وعليك تليس وطرابلس وعليك تليس ومصر وعليك تليس ونحن نتخذ للحاضرة ثيابا لا نلبسها للبادية وثيابا للبادية لا نلبسها للحاضرة ونتزين وتطيب ويبكي وعطية يقول يا سيدي لا تفعل فأنت امامنا في ديننا بك نقتدي في أمورنا • وكانت له فراسة لا يكاد يخطىء • يذكر انه قال لابي الحسن وهو يطلب عليه : والله لتضربن اباط الابل من اقصى المغرب فكان كما قال • ودخل عليه عطية الجزري فرحب به ابو العباس فقال : اتيتك زائرا ومودعا الى مكة فقال أبو العباس لا تخلنا من بركة دعائك وبكى وليس مع عطية ركوة ولا مزود فخرج مع أصحابه ، ثم اتاه بأثر ذلك رجل فقال له : أصلحك الله عندي خمسون مثقالا ، ولي بغل ، فهل ترى لي الخروج الى مكة ؟ فقال لا تعجل حتى توفر هـذه الدنانير ، فعجبنا من ذلك واختلاف جوابه للرجلين مع اختلاف أحوالهما ، فقال عطية : جاءني مودعا غير مستشير وقد وثق بالله وجاءني هذا يستشير ويذكر ما عنده فعلمت ضعف نيته فأمرته بما رأيتم • فقال بعضهم مر عطية المتعبد يوما برجل يزمر فخرق زقه فاقبل الزامر يرميه وعطية يقول : اللهم تب عليه فعرف ذلك الابياني فقال ضرب عطية اللهم أوقع يمينه ، قال الحاكي فرأيت الزامر بعد ذلك الطواف فقلت له : انت صاحب عطية ؟ فقال بدعوته انتفعت فذكرت له دعوة أبي العباس فقال : ماله ومالي ، هلا دعا لي كما دعا عطية واخرج يده مقطوعة • وكتب أبو الفضل بن نصر التابرتي الى أبي العباس الابياني شعرا له أوله :

ماذا تريك حوادث الازمان ... وصروفها وطوارق الحدثان
وأشد ما ألقى وأفضح للحشا ... عدم الوفاء وجفوة الاخوان
هذا أبو العباس واحد عصره ... وفقيهه والفائت الاقران
أنفت به اخلاقه عن وصلنا ... وسلامنا في السر والاعلان
اني أتيتك شاعرا ومخبرا ... أشكو اليك حوادث الازمان

فكتب له أبو العباس الابياني رحمه الله تعالى :

دهرك يا أبا الفضل ذو انقلاب   يريك في العجب العجـــاب
فكن جليس بيتـك مستوحشا   من الناس والاهل حتى من الابواب

وتوفي سنة اثنتين وخمسين وثلاث مائة وقال المالكي سنة احدى وستين وهو ابن مائة سنة غير اربعة اشهر • وجاء في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص ٨٥ :

أبو العباس عبدالله بن أحمد الابياني التونسي الامـام الفقيه العـالم القائم على مذهب مالك الثقة العمدة الامين تفقه بيحيى بن عمر وأحمد بن سليمان وحمديس ويحيى بن عبد العزيز وابن حارث واحد بن حزم وحماس وجماعة روى عنه الاصيلي وأبو الحسن الكواتي وسعيد بن ميمون والقابسي وابن أبي زيد وجماعته مات سنة ٣٥٢ هـ

ملاحظة : المـدارك للقاضي عياض مخطوط تونسي من مخطوطات جامع الزيتونة التي انتقلت الى الجامعة التونسية ولما تتم فهرستها •

أما الرسالة فهي في مادة السمسار وحقوقه وهي بخط تونسي عتيق ولاتحمل عنوانا وقد اثرنا تسميتها السمسار أو السمسرة ، غير انه قد كتب عليها بخط يختلف عن خط الرسالة « مسائل السماسرة في البيع » ممـا سئل عنها الفقيه أبو العباس عبدالله بن أحمـد بن ابراهيم الابياني التونسي •

وما أظن ان هذا العنوان هو العنوان الذي رسم به المؤلف رســالته وذلك أني لا اظن ان « سمسار » جمعت في عصر المؤلف على سماسرة ، واغلب الظن ان الجمع على هذه الصيغة مما شاع في العصور المتاخرة •

الرســالة

سألت أبا العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم الابياني رض الله عنه عن السمسار يعطى الثوب لينادي عليه ، فيبلغ في جده ما بلغ فيقره عند التاجر

الذي أراد شراءه ليشاور صاحبه فيضيع الثوب عند التاجر • هل يلـــزم السمسار أم لا ؟ وهل يلزم التاجر أم لا ؟ أو رأيت ان أقره التاجر انه تلف عنده وقال لم يلزمني الآن شراء • أيضمن ؟ فقـال لي : اذا أقر التاجر أنه قبض الثوب من السمسار وزعم أنه ضاع فالتاجر ضامن لقيمة الثوب وقـد رأى فيه السمسار عيبا فباعه من هـذا التاجر وكتمه ، فبعد على الشراء ولم يأخذ على الامانة • وسألته عن السمسار يبيع من التاجر التاجر الثوب وقد رأى فيه السمسار عيبا فباعه من هذا التاجر وكتمه ، فبعد ان قبض البائع الثمن ومضى وجد التاجر في الثوب عيبا واعترف السمسار أنه كتمه ذلك • فهل يجب على السمسار غرم ان يوجد صاحبه أم لا ؟ فقال لي :

الذي يتبين لي انه يرجع عليه بقيمة العيب ولا يكون للمشتري ان يرد الثوب عليه وهو عندي بمنزلة الوالي يزوج وليته وهو يعلم العيب الذي بها مثل الاب في ابنته البكر والسيد في أمته ان يكون للزوج عليـــه جميع الصداق ان كان قد دخل بها اذا كان الوالي ممن يعرف العيب مثل الاب في ابنته والاخ في أخته •

وسألته عن السمسار اذا عرض الثوب على التاجر فبلغ ثمناً معلوماً ثم وقع بينه وبين صاحب الثوب كلام فحلـــف السمسار اني لا أبيعه ، فأخذه منه صاحبه فمضى الى الذي كان عليه العطاء فباعـــه وقبض منه الثمن • هل يجب للسمسار حق أم لا ؟ ورأيت ان اخذ منه شيئا هـــل يحق ام لا ؟ فقال لي : اذا باعه صاحبه وتركه السمسار فلاحق للسمسار في ذلك ، فان اخذ منه في ذلك شيئـا حنث وسألته عن رجل دفـع الى السمسار ثوباً فباعه له بثمن معلوم وقبض الثمن وأعطاه حقه ثم مضى البائع واتي بثوب مثله فباعه من الذي اشترى منه الثوب الاول بمثل ذلك الثمن الاول وأراد السمسار ان يأخذ من هذا البيع حقاً وقال : أنا اخرجت

له السوم الأوّل وقال رب الثوب : أنا بعت ثوبي هذا لاخر ولم تبعه انت • هل يجب للسمسار في هذا الثوب الثاني شيء ام لا ؟ فقال لي : لاشي للسمسار في هذا الثوب الثاني لان صاحبه هو ولي بيعه •

وسألته عن السمسار يقر الثوب عند التاجر بثمن معلوم يشاور صاحبه في البيع فيقول السمسار للتاجر : زن لي الدراهم ، وتحملها لصاحب الثوب فان باع دفعتها اليه • فيزن له الدراهم فيمضى بها فيسقط من يده منها هل يضمن السمسار الذي قبضها ما سقط منها ام لا ؟

فقال لي : يضمن السمسار لانه لم يؤمر بالبيع فلا ينبغي النقد في الخيار • فقلت : ارأيت ان لم يسأله السمسار في اخذ الدراهم ولكن التاجر ابتداه فقال له : خذ هذه الدراهم واحملها معك الى صاحب هذا الثوب ، فان باعه فادفع اليه وان لم يبع فرد الدراهم • فيقبضها منه السمسار على ذلك ويذهب يشاور صاحب الثوب فيسقط منه • هل يضمن السمسار ما سقط منها ام لا ؟ فقال لي : لا ضمان على السمسار ها هنا لانه أمين الذي أرسله الا ان يضيع أو يفرّط • فقلت له ارأيت ان لم يقبض منه السمسار شيئاً ولكنه شاور صاحب الثوب في البيع فأمره بالبيع فأتى السمسار الى التاجر الذي كان عنده الثوب فقبض منه الثمن ومضى ليدفعه الى صاحبه الذي أمره بالبيع فسقط منه • هل يلزم السمسار ضمان ما سقط منه أم لا ؟ فقال لي : لا ضمان على السمسار لانه أمين البائع ووكيل له على البيع والقبض • وسألته عن السمسار اذا أقر الثوب عند التاجر بأمر رب الثوب وضاع الثوب عند التاجر • هل السمسار شيء ؟ فقال لي : لا ضمان على السمسار لانه أقره بأمره بغير أمره ضمن •

وسألته عن السمسار اذا دفع اليه الرجل الثوب لينادي عليه وليشاوره فأقره عند التاجر ليشاور صاحبه ، فقال التاجر : مالك عندي ثوب ولا تركت عندي شيئاً ولم يكن للسمسار عليه بينه • هل يضمن السمسار

قيمة الثوب أم لا ؟ فقال لي يضمن السمسار لانه غرر اذ لم يشهد عليه .

وسألته عن السمسار يقر الثوب عند التاجر ليشاور صاحبه فينسى السمسار عند من أقره فيسأل صاحب الحوانيت واحدا واحدا فلا يجده . هل يضمن السمسار ؟ فقال لي : نعم يضمن .

وسألته عن الرجل يأمره السمسار ان يطلب له ثوباً ليشتريه ويقعد عند صاحب حانوت فيأتيه السمسار بالمتاع ويخرج صاحب الحانوت متاعا من عنده فيريه المشتري فلا يشتري من الذي جاءبه السمسار شيئاً ، ويهوى الثوب الذي لصاحب الحانوت ليشتريه فيطلب السمسار من المشتري حقه ويقول : أمرتني ان اطلب لك وقد رايتك وطلبت لك ، ويقول المشتري : لم نشتر شيئاً مما جئت به وانما اشتريت من صاحب الحانوت . هل يجب ، للسمسار شيء ؟ فقال لي : لا يجب عليه لانه لم يشتر مما جلب له شيئاً . فقلت له : قال بعض أصحابنا يجب له جعل لانه انما اقتدى بما أراه السمسار فله جعله . فأنكره من القول ولم يعجبه .

وسألته عن الرجل اذا قلب الثوب في يد السمسار وقد بلغ في يد السمسار ثمناً معلوماً فزاده التاجر على من اعطى غيره بعد تقليبه اياه فمضى عنه السمسار والثوب في يد السمسار يطلب فيه الزيادة فلم يزده احد شيئاً فرده الى التاجر الذي وقه عليه العطاء وطلب بيعه منه بعد مشاورة صاحب الثوب ، فقال له التاجر : لا ارضى بهذا الثمن ، ولم يجد فيه شيئاً هل يلزم التاجر شيء أم لا ؟ أو رأيت ان طلب السمسار ان يقره عند هذا التاجر ليشاور صاحبه فقال فقال التاجر لا أرضاه بهذا الثمن . هل يلزم الشراء ان رضي صاحب الثوب بالبيع أم لا ؟ فقال : بلى يلزمه ما اعطى فيه رسالته عن التاجر يأتيه السمسار بالثوب وقد بلغ في يده ثمناً معلوماً ، فيقول له التاجر على زيادة كذا وكذا بالخيار ان

شئت اخذته بهذا الثمن وان شئت تركته فيمضي به السمسار فلا يجد زيادة فيرده اليه فيقول التاجر أما الان فلا أسصحه الا بكذا أو كذا بأقل مما أعطاه أولا • هل يجوز ذلك ولا يلزمه الشراء أم لا ؟ فقال لي : ذلك له أي يلزمه لانه قد جعل لنفسه الخيار فيه •

وسألته عن التجار يأتيه السمسار بالثوب ليقره عنده أو ليبيعه منه بثمن معلوم قد بلغ في يده فيقول له التاجر لا أرضاه ، فيقول له السمسار: ان العطاء انما وقف اخرا عليك • فيقول : لا ، وما كان العطاء اخرا الا غيري • ولم يكن في هـذا الثوب شرط خيار ولا بينة بحضرة العطاء • فهل يلزم هذا التاجر يمين أم لا ؟ أو رأيت ان كانت بينة تشهد ان العطاء اخر عليهلزمه الشراء ، وان لم يكن بينة فعليه اليمين • فقلت له : فان لم يكن شهد عليه بذلك الا رجل واحد ، وكان عدلا • هـــل يحلف السمسار مع هذا الشاهد أم انما يحلف صاحب الثوب ؟ فقال لي : اليمين على السمسار مع الشاهد اذا لم تثبت وكالته على البيع ببينة وقال لي : هو قول ابن كنانة • وقال لي : وأما اذا ثبتت وكالته على البيع ببينة حلف الامر مع الشاهد واستحق •

وسألته عن السمسار ينادي على الثوب فيبلغ في يده ثمناً معلوماً على احد التجار فيقره عند الذي وقف عليه الطعاء ليشاور صاحبه فيقول له التاجر لا تقره عندي فان عطائي هذا انما كان على غير نية ولم نرد شراءه اذا زدتك فيه ولم يكن شرط خيار • هل يلزمه الشراء أم لا ؟ فقال لي : يلزمهالشراء لان بيع المنادي كله لازم على من أعطاه اخرا •

وسألته عن السمسار اذا أقر الثوب عند التاجر ليشاور صاحبه ولم يذكر التاجر خيارا فباع صاحب الثوب ، فأتاه السمسار ليقبض منه الثمن • فقال له تقليبا اخر بنية وتقليب من يريد الشراء • هل يلزمه الشراء ولا يلتفت الى قوله أم لا ؟ فقال لي : يلزمه الشراء •

وسألته عن السمسار اذا أقر الثوب عند التاجر ليشاور صاحبه ولم يذكر شرط خيار ، فباع صاحب الثوب فأتاه السمسار ليقبض الثمن ، فقال له التاجر لا نهواه ، ولكن خذ الثوب فلعل غيري يشتريه منك بهذا العطاء الذي كان علي ، والسمسار يعلم انه اذا أخرجه من عنده أنه لا يأخذه أحد منه بذلك العطاء الا بأقل . فهل يجوز للسمسار ان يخرجه من عنده ويساعده في ذلك أم لا ؟ فقال لي : لا يخرجه من عنده لانه وجب عليه لان تبيع المزايده لازم لصاحب العطاء الاخر . فقلت له : فان أعلم السمسار بذلك صاحب الثوب فقال له صاحب الثوب اخرجه من عنده . فهل يبرأ السمسار في ذلك من الاثم ولا يكون عليه في ذلك شيء أم لا ؟ فقال لي : يبرأ من الاثم فقلت له : فان أخرجه السمسار ولم يامره بأمره بذلك صاحب الثوب وكان ذلك قبل ان يبيع صاحبه أو بعد ماباع فانكسر في يده . وهل يلزم ذلك الحطاط السمسار أم لا ؟ فقال لي : يلزمه الحطاط . فقلت له : فان قال صاحب الثوب للتاجر اني لم أمره أن يخرجه من عندك . هل يلزم الشراء التاجر أم لا ؟ فقال لي : يلزمه الشراء . فقلت : فان ادعى التاجر ان صاحب الثوب هو الذي أمره باخرجه وانكر ذلك صاحب الثوب والسمسار هل يجب اليمين على صاحب الثوب أم على السمسار ؟ فقال تجب اليمين على صاحب الثوب .

وسألته عن هؤلاء التجار اذا كانوا يكسرون بعد ان يعطوا العطاء ويقف العطاء عليهم وصار شراؤهم كلهم على هذا الحال يكسرون الثوب بعد ان يقر عليهم وقبل ان يقر عليهم . هل يجوز لهذا السمسار ان يبيع منهم وهم لا يرجعون عن ذلك وهو لا يستطيع ان يبيع منهم الا على هذه الحال ، فهل يسعه ان يبيع منهم ولا يكون في ذلك اثم أم ينبغي له ان يعلم أصحاب المتاع بفعل هؤلاء التجار لينجو من الاثم ؟ على رب الثوب ان يحاكم في أخذ ماله الا ان ينكر التاجر رب الثوب ويقول لا أعرفك ،

فتكون الخصومة حينئذ مع التاجر والسمسار • فقلت له : فان أعلم هذا السمسار أصحاب المتاع بكسرهم وأنهم لا يصحون عطا الا عند الوزن فتركوه يبيع لهم بعد علمهم بذلك ، هل يبرأ في ذلك من الاثم أم لا ؟ فقال لي : يبرأ من الاثم • فقلت له : فان كان أصحاب المتاع يعلمون فعل هؤلاء التجار وأنهم يكسرون ولا يصحون عطاء يعطى له هل يصح لهذا السمسار السكوت عن ان يعلمهم هذا ويكون في ذلك بمنزلة من أقره علمهم بذلك أم لا ؟ فقال لي : يسعه السكوت اذا كانوا قد علموا بذلك وعرفوه •

وسألته عن التاجر يأتيه بالثوب وفي يده عطاء معلوم فيزيده على ذلك ثم يمضي عنه بالثوب فيزيده غيره ، ثم يرجع السمسار الى هـذا التاجر الذي كان عليه العطاء فيطلب بيعه ، فيقول له التاجر الذي كان عليه العطاء أولا : اما اذا زادوا بعدي فأنا الان بالخيار ، ان شئت تركته وان شئت أخذته • فهل يكون له الخيار ولا يلزمه الشراء ؟ فقال لي : لا يلزمه الشراء اذا زاد غيره • وسألته عن السمسار يقر الثوب على التاجر بثمن معلوم ويشاور صاحبه فيأمره صاحبه بالبيع وصاحب الثوب لم يعرف التاجر الذي باع منه ولا يدري من هو ، فيمضي السمسار ليقبض الثمن فيقول له تاجر آخر : الثوب الذي كان في يدك علي فيه زيادة • فيقول له السمسار : ان صاحبه قد باعه من غيرك • وكان هـذا بعد الاستقصاء ، فيقول صاحب الثوب : اني بعت من رجل لا أدري من هو • فهل ترى هذا بيعاً ثابتاً قد وجب الثوب للذي عنده ولا تقبل زيادة هذا ؟ فقال لي : يلزمه البيع للذي شاور عليه فباع منه به ولا يكون لمن زاد بعد ذلك في ثمن الثوب من الشراء شيء •

فقلت له : أرأيته ان اتى السمسار بالثوب في يده وقال لصاحبه : هذا ثوبك اعطي فيه من الثمن كذا وكذا ، فقال له صاحبه : بع •

واقبض الثمن •

فقال تاجر اخر : علي فيه زيادة كذا وكذا • هل يكون الجواب في هذه مثل الجواب في التي قبلها أم لا ؟ فقال لي : الجواب في ذلـك واحد ولا يبالي أتى به في يده أو تركه عند التاجر •

وسألته عن السمسار ينادي على الثوب فيبلغ ثمناً معلـوماً فيشاور صاحبه والثوب في يد السمسار أو قد أقره فيقول له صاحب الثوب : اعمل برأيك ، فيمضي السمسار ليقبض الثمن وقد نوى السمسار البيع من التاجر لانه قد بذل الجهود واستقصى • فيقول له تاجر اخر علي في الثوب زيادة كذا وكذا • فهل ترى هذا بيعاً وقـــد وجب للـذي نوى السمسار منه البيع ولا يقبل زياده هذا أم لا ؟ فقال لي : يعمل برأيه في ذلك ويقبل الزيادة ان شاءالله ولا يلزم البيع بالنية •

وسألته عن السمسار ينادي على الثوب فيبلغ ثمناً معلوماً على رجـل من التجار ثم يطلب السمسار الزيادة فلا يجد احدا يزيده شيئاً فيقول له تاجر اخر : أنا اخذه منك بهذا الثمن الذي ذكرت انك أعطيته • ويطلب اخر بذلك الثمن أيضا ، ويطلب منهم الزيادة فلا يجد احدا يزيده ممن أحب اذا لم يجد زيادة • فقال لي : الأول اولى بالثوب وهو قول عيسى ابن دينار ، وأما ابن القاسم فانه يقول : يبيع ممن أراد ويفضل به من أراد اذا كان العطاء احدا ، فقلت له : يبيع أرأيت اذا بلغ الثوب ثمناً معلوماً على رجل من التجار وطلب بذلك الثمن واحدا من امتجار واثنان وثلاثة ولم يزيدوا شيئاً على ما بلغ من الثمن واراد صاحب الثوب ان يبيعه ممن أحب ويفضل به من اراد • هل يجوز له ذلك أم لا ؟ فقال لي : الأوّل أولى بالثوب من ان يعطيه صاحبه لمن احب في قول عيسى بن دينار وأما ابن القاسم يفضل به صاحبه من أراد •

وسألته عن السمسار اذا لم يجد في الثوب زيادة وخاف ان باعه

من الذي عليه العطاء أولا أن يكسر أو يسيء معاملته في الوزن • هـل ترى جائزا ان يبيعه من غيره بالعطاء الذي أعطى فيه اذا لم يجد فيه زيادة اذا كان يحسن معاملته وان لم يكن العطاء عليه ؟ فقال لي : الاؤل أولى به ، فان لم يتم الشراء فله ان يقدمه الى القاضي الا ان يكون قد علـــم بسوء معاملته ويعلم انه لا يبايعه في ذلك ، فلا بأس ان يبيع ممن يوفيه ولا يكسر عليه •

وسألته عن السمسار يبيع الثوب بعد الاستقصاء وبذل المجهود من قبل ان يشاور صاحبه ، هل يجوز بيعه أم لا ؟ وهل يكون لصاحب الثوب ان يرد البيع أم لا ؟ فقال لي : وقد لا يجوز البيع الا بأذن صاحبه الا ان يكون صاحبه فوض اليه ذلك • وقال لي : وقد قال سحنون لا يجوز ان يصيح على سلعة ما ويأخذ عليها جعلا الا ان يجعل له البيع • فقلت له : أرايت ان كان هذا الثوب الذي باعه السمسار وانما أرسل اليه هـــذا السمسار فأستقصى له وشاور الذي أرسل معه بالثوب ثم زيد فيه بعد ان أمر بالبيع • هل تقبل الزيادة ويرد البيع أم البيع ماضى ثابت ولا تقبـل فيه الزيادة ؟ فقال لي : ان كان اني أرسل الثوب الى السمسار وأمـــره بالبيع فالبيع ماض ولا تقبل زيادة •

وسألته عن التاجر يأتيه السمسار يطلب منه الثوب ليشتريه منه لمن يطلب شراءه ، فيعطيه التاجر الثوب ويقول له : هذا شراؤه عشرة دراهم ، فيريه السمسار للمشتري فيهواه ويقول له : اعطه فيه ابح درهم • فيرضى البائع بالبيـع ويدفع اليه جميع الثمـن ويقبض المشتري الثوب ويمضي به فبعد ذلك يقول التاجر للسمسار : اني غلطت في شراء الثوب وحسبت ان شراءه علي عشرة وانما شراؤه علن أربعة عشر درهما •• فما الذي يجب في ذلك ؟ وكيف ان كان الثوب قد فات بوجه من وجوه الفوت أو قال المشتري للتاجر : لم تغلط ؟ وانما هذا منك قدم في البيع ، وكيف ان

ذهب المشتري ولم يوجد ، هل يجب على السمسار شيء أم لا ؟ فقال لي : لا يقبل قول التاجر الا ان يأتي ببينة ويكون الثوب قائما فيقال للمشتري : اما ان تقبله بهذا الثمن الذي شهدت به البينة أو فأردده • فان لم توجد بينة وقال التاجر لا يشبه ان يكون ثمنه ما قال البائع لم يقبل قوله ومضى البيع وجاز • وان قالوا انما يشبه ثلاثة عشر درهما فهذا قريب مما قال البائع ويكون القول قول البائع مع يمينه ، فان كان الثوب قائما قيل للمشتري اما ان تأخذه بما قال البائع على الربح الذي رضى به أولا والا فاردده ، وان كان الثوب قد فات فعلى المشتري قيمته يوم فوته ، واما السمسار فـلا عهدة عليه ولا طلب • فقلت له : أرأيت ان كان السمسار هو الذي غلط في الشراء ولم يغلط التاجر ، وقد كان أخبره التاجر ان شراءه أربعة عشر درهما وعلم ذلك ببينة أو باقرار من السمسار ولم يقبض منه الثمن حتى فات الثوب • هل يجب على السمسار شيء أم لا ؟ فقال لي : السمسار ضامن عندي •

وسألته عن السمسار اذا باع الثوب من التاجر ثم اعترف ان الثوب سرقة وأتى صاحبه ببينة تشهد ان الثوب ثوبه ما يعلمونه باع ولا وهب ، وحلف صاحبه واستحق الثوب • هل يدفع الثوب الى هذا المستحق تلك الساعة ؟ فقال لي : نعم يدفع اليه الثوب ولا عهدة على السمسار • فقلت له : أرأيت ان كان البائع يعرفه السمسار ، هل يلزم السمسار ان يمضي اليه فيعلمه بذلك أم لا ؟ أورأيت ان كان البائع الذي قبض الثمن ببلد بعيد وكان السمسار يعرفه ، هل يلزمه المصير اليه أم لا ؟ أو رأيت ان كان السمسار لا يعرفه وقال انما جاءني رجل بثوب فبعته له وقبض الثمن ولا نعرفه • هل يجب عليه شيء أم لا ؟ فقال لي : ليس عليه في هـذا كله شيء وهو كما قال السمسار اذا كان معروفا بالسمسرة •

فقلت له : فان كان التاجر والسمسار يعرفان جميعا البائع ، هـل

يسقط عن السمسار العناء في ذلك ولا يكلف المضي اليه اذا كان التاجر يعرفه أم لا ؟ فقال لي : ليس عليه عناء ولا عهدة ولا طلب ، عرفه أو لم يعرفه • فقلت له : فهل يكون جميع ما بيع من الحيوان والعروض اذا اعترف بشيء منه كثر ثمنه أو قل سبيله في ذلك سبيل ما فسرت لي في مسألة الثوب اذا اعترف أم لا ؟ فقال لي هو كله واحد ، الا ان الحيوان اذا قضى به الحاكم واراد المحكوم عليه ان يطلب من باع منه ان يضع قيمته ويأخذ الشخص يطالب به من باع منه •

وسألته عن السمسار اذا أعطى الثوب لينادي عليه فسمى له صاحبه ثمنا ان بلغه باعه وان يبلغه لم يبعه ، أو أعطاه الثوب ولم يسم له ثمنا ، وكان هذا من باب الجعل فأخذه السمسار فنادى عليه ولم يذكر له صاحب الثوب ما يعطيه من الجعل ، ولم يذكر السمسار أيضا لصاحب الثوب ما يأخذ منه الجعل ، وكان هذا السمسار هكذا سنته مع أصحاب المتاع يبيع لهم المتاع فلا يسمي لهم ما يأخذ منهم ولا يسمون له ايضا ما يعطونه ، فاذا باع وقبض الثمن اعطوه جعله • وهل ترى هذا جائزا وكان ذلك ويطيب أم لا ؟ يجوز حتى يسمي الجعل الذي يأخذ كم هو ، وهل له منعه في ترك التسمية اذا رضي أن يأخذ ما يعطونه أم لا ؟ فقال لي : ان سموا الجعل والاجازة فهو جائز وان لم يسموا وباع فله أجر مثله الا ان تكون لهم سنة قد جروا عليها في المجاعلة وقد علم بذلك صاحب الثوب والسمسار فلا باس به • وقال لي : اما الاجازة فلا تجوز الا بتسمية معلومة واجل معلوم •

وسألته عن السمسار يعطي الثوب لينادي فيبلغ في يده ثمناً معلوما فيقره عنه التاجر الذي يطلب شراءه ليشاور صاحبه فيصبح الثوب عند التاجر • هل يلزم السمسار شيء أم لا ؟ فقال لي : اما السمسار فانه معتد في ترك الثوب عند التاجر اذ تركه عنده بغير أمر رب الثوب ،

وقال : ولرب الثوب ان يضمن أيهما شاء • وقال لي : وان اقره عند التاجر بامر رب الثوب فلا شيء على السمسار •

وسألته عن السمسار اذا قبض الثوب لينادي عليه فضاع منه قبل ان ينادي عليه • هل يلزمه شيء ام لا ؟ فقال لي : لا شيء عليه الا ان يفرط فيضمن •

وسألته عن السمسار اذا باع الثوب من التاجر فوجد به التاجر عيوباً لم يكن رآها وقد قبض البائع الثمن واخذ السمسار حقه فرجع الثوب الى البائع ورجعت الدراهم الى المشتري فطلب صاحب الثوب ان يأخذ من السمسار ماعطاه من حقه ، وقال له : اذا لم يتم البيع ورجع الي الثوب ، فان يرجع ما أعطيتك • هل يكون له ذلك أم لا ؟ أو رايت ان كان السمسار لم يقبض منه حقه متى رجع الثوب الى بائعه ، وطلب السمسار حقه ، هل يجب له ذلك أم لا ؟ فقال لي : له أن يرجع عليه بما اعطاه وليس للسمسار آن يطالبه فقلت له :

قال بعض اصحابنا : هذا اذا كان البائع لم يدلس بالعيب ، واما اذا دلس بالعيب فالجعل ثابت للسمسار • فأنكره من القول ولم يعجبه •

وسألته عن الرجل يعطي الثوب السمسار ينادي فيبلغ في يده ثمناً معلوماً فلا يبيعه صاحبه ويأخذه منه ويعطيه لغيره فيبيعه بالثمن الذي بلغ في يد السمسار الاول أو بأكثر منه أو أقل أو يبيعه صاحبه من غير أن يعطيه السمسار الآخر بأكثر من الثمن الاول أو من غيره • هل يجب للسمسار الاول في ذلك شيء أم لا ؟ فقال لي :: ان كان الثوب قد وقف على ثمن معلوم بيد هذا السمسار فاخذه رب الثوب من السمسار وأبى ان يبيع ومضى صاحب الثوب الى من اراد ان يشتريه من السمسار فباعه منه ، فهذا انما اراد ابطال السمسار وقد وجب له حقه • وان كان انما أخذه منه رجاء ان يلتمس الزيادة فيه فأعطاه الى غيره فباعه بأكثر أو

بأقل أو بمثل الثمن فالجعل للاخر وليس للاول شيء •

وسألته عن السمسار اذا طلب ثوباً من التجار لمن يشتريه فضاع الثوب قبل أن يشتريه المشتري • هل يلزم السمسار شيء ام لا ؟ فقال لي : ان علم البائع انما يطلبه لغيره وعلم انه يبيع للناس ويشتري فلاضمان عليه • قلت له : فان أخذه الثوب عنده • هل يلزم هذا المشتري أم لا ؟ فقال لي : السمسار ضامن لتعديه بدفعه الثوب الى المشتري بغير أمر صاحب الثوب ، والمشتري أيضا ضامن للثوب لانه لم يأخذه على الامانة وانما اخذه على الاشتراء ، فصاحب الثوب يضمن ايهما شاء • فقال لي : ان كان صاحب الثوب قد اعلمه السمسار ان المشتري يمضي به فيستشير فيه فيضيع • هل عليه غرم أم لا ؟ فقال لي : غرمه عليه وضمانه منه الا أن تقوم له بينة انه ضاع منه من غير تضييع ولا تفريط •

وسألته عن السمسار يجيئه من يطلب ليشتري فيقول له : اطلب لي ثوباً كذا وكذا واقرن لي المتاع من الحوانيت ، ولا يسمى له ما يعطيه من حقهولا يسمى له ايضا السمسار ما يأخذ • هل الجواب في هذه مثل الجواب في المسألة الاولى في البيع أم لا ؟ فقال لي : الجواب سواء له أجر مثله : ارايت اذا اخذ السمسار من هذا المشتري حقه فيما قد اشتراه له • هل يجوز له ان يأخذ من البائع شيئاً أم لا ؟ وكيف ان تطوع البائع بذلك من غير أن يسأله السمسار شيئاً ، هل يجوز ذلك أم لا ؟ فقال لي : ان تطوع به البائع فهو جائز وانما حقه من أمره أن يشتري له • فقلت له : قال بعض اصحابنا ان اعطاه البائع شيئاً فهو للمشتري الا ان يجعله المشتري من ذلك في حل • فقال لي : انما معناه اذا كان ذلك بشرط ، فان لم يكن بشرط فلا بأس به ، واما ان كان بشرط فما أعطاه البائع من شيء فهو للمشتري • فقلت له : فان أعلم السمسار المشتري بذلك فرضي بذلك بعد ان أعطاه حقه أو قبل ان يعطيه ، هل يجوز ذلك أم لا ؟ وهل

يسمى المشتري ما يعطيه البائع ام لا ؟ فقال لي : هو وكيل المشتري وعليه حقه ، فان تطوع له البائع بشيء فهو جائز • فقلت له : قال بعض أصحابنا معناه ان المشتري قد علم ما يأخذ السمسار من البائع ، فأما اذا لم يعلم فالذي يأخذ من البائع مردود على المشتري لانه حق من حقه • فقال لي : انما ذلك اذا كان بشرط • وقال لي : انما هو بمنزلة الحباء الذي اشترطه ولي المرأة في عقدة النكاح فهو للمرأة ، وان كان بعد عقد النكاح فهو الولي ، فرأيت ابا العباس يذهب الى انه كان بغير شرط فهو حلال للسمسار الحكم به المشتري او لم يعلمه لانه شيء تطوع به البائع •

وسألته عن السمسار ينادي على الثوب وليستقصي به ويبذل فيه المجهود فلا يجد فيه زيادة فيريد ان يشتريه لنفسه • هل ترى ذلك جائزا اذا كان علم وجه الصحة ام لا ؟ فقال لي : لا ينبغي ان يشتريه الا ان يعلم بذلك بائعه انه يأخذه لنفسه •

وسألته عن السمسار يكون له الثوب فيريد بيعه • هل يبيعه ويتولى هذا عليه كما يبيع ثوب غيره آم لا ؟ : فقال لي ان كان الرجل صاحب الثوب صحيحاً وكان يعلم انالذي يعطيه لا يخشى عليه فلابأس ان ينادي عليه وهو بمنزلة الرجل يأتي بسلعته الى البيع فيقال له : أعطيت لسلعتك هذه ؟ فيقول : كذا وكذا ، أينبغي له أن يخبرهم بذلك انه له لانه لو استحق بطالب له أعلم بائعه •

وسألته عن السمسار يطلب المتاع من عند التجار ليصرفه على المشتري الذي أمره بالطلب فأخذ السمسار من هذا التاجر ثوباً ومن هذا التاجر ثوباً ، فيجمع اثواباً كثيرة فيريها المشتري ليختار منها ما اراد فيهوى المشتري منها ثوباً أو لا يهوى منها شيئاً ، فيرد السمسار المتاع على أصحاب الحوانيت الذي عرضوا عليه ، فيقول رجل منهم : هذا الثوب الذي رددته علي ليس هو ثوبي ، ولا هذا الذي عرضت عليك ، ويقول السمسار :

بل هو ثوبك ، القول قول من ؟ فقال لي : في ذلك القول قول السمسار مع يمينه لان البائع هاهنا مدع يطلب ان يضمن السمسار فلا يقبل قوله الا ببينة تكون عند البائع ، وان حلف السمسار أنه ثوبه لم يكن عليه شيء فقلت له : فاذا قال السمسار ما آدري أهذا ثوبك أم لا ؟ وقد اختلط مع غيره في وقت قلبه المشتري فرجع السمسار الى أصحاب الحوانيت الذين رد عليهم فيقولون هذا الذي رددت علينا هو متاعنا وما لاحد عندنا شيء ، فيتعلق التاجر الذي انكر الثوب بالسمسار فيقول له : اغرم لي قيمة ذلك الثوب هذا فاعمل انت ما شئت ، فما الذي يجب في ذلك وهل يجب على السمسار شيء أم لا ؟ فقال لي : نعم يضمن السمسار قيمة ذلك الثوب الذي ذكر البائع بعد يمين البائع بالله ان ما هذا ثوبه الذي عرض عليه وانما ضمن السمسار لشطه وغلطه اذ لم يحتفظ في ذلك بغلطه على نفسه ، فقلت له : فان قال التاجر : ليس هذا الثوب الذي رددت علي ثوبي وانما ثوبي الذي آخذه المشتري ، وكان المشتري قد اخذ من تلك الثياب ثوباً ، وقال رجل آخر من التجار : الثوب الذي بيد المشتري هو ثوبي وليس هذا لي ، فتداعيا جميعا في الثوب بيد المشتري وانكروا جميعا هذا الثوب الذي بقى ، فما الحكم في ذلك ؟ وكيف ان كان السمسار لا يعرف هذاالثوب الذي بيد المشتري لمن هو فهما ، أو شهد السمسار انه لواحد منهما ، هل يجوز شهادته في ذلك ان كان عدلا ام لا ؟ وكيف الحكم في ذلك كله ، فقال لي : أما السمسار فلا تجوز شهادته هنا ان كان شهد ان الثوب لاحدهما ، ويقسم هذا الثوب الذي بيد المشتري بينهما جميعا أيمانهما ثم ينظر الثوب الذي بقى فيضمن السمسار قيمته لهما جميعا يقتسمانه بعد ايمانهما ويكون الثوب للسمسار ، وانما ضمنا السمسار لغلطه ، ومعنى قوله بعد ايمانهما في الثوب الباقي ان يحلفا ما هو لهما على معنى قوله الاول ان يحلف بالله ما هذا ثوبه ،

وسألته عن السمسار يطلب الثوب من البائع فيعرضه عليه ويعلمه بثمنه ثم يرده اليه فيزعم البائع أنه لم يرجع اليه ، ويقول السمسار قد رددته اليك ، فيقول : مارددت الي شيئاً . هل يلزم السمسار الغرم أم لا ؟ فقال لي : لا شيء على السمسار ولا يلزمه غرم ، ذلك لان السمسار أمين البائع اولا ، وترى لو انه قبضه ثم ضاع منه من غير تفريط لم يلزمه، وهذا اذا علم البائع ان السمسار انما يطلبه لغيره فقد صار أميناً له ، وان كان السمسار انما يشتريه لنفسه فلا يقبل قوله أني رددته اليك وتلزمه قيمته يوم أخذه .

وسألته عن التاجر يأتيه الرجل يشتري منه فيعرض عليه ثوبين وثلاثة ليختار منها ما أراد فيختار منها ثوباً فيساومه عليه فيبيعه منه . فيعمد المشتري الى ثوب منها فيقطعه فيقول البائع : هذا الثوب الذي قطعت أيها المشتري ، ليس هذا الثوب الذي بعت منك وانما بعت منك غيره وقد تعديت على ثوبي هذا وأفسدته علي فاغرم لي القيمة . وقال المشتري : بل هذا الذي قطعت هو الذي اشتريت منك فما تعديت لك بشيء ولا بينة بينهما .

وهل تجوز شهادة السمسار في ذلك ان شهد لاحدهما ؟ وما الحكم في ذلك ؟ فقال لي : قول المشتري مع يمينه ولا يلتفت الى قول البائع الا أن تكون له بينة على من يدعيه ، وأما السمسار فلا تجوز شهادته عندي في هذا .

وسألته عن السماسرة يشتركون في البيع ، يبيع هذا وحده متاعا على حدة ويبيع هذا الاخر أيضا متاعا اخر على حدة يقسمون ما أصابوا . هل ترى هذا جائزا أم لا ؟ فقال لي : هذا جائز .

وسألته عن السمسار يعطي السلعة ليبيعها فان باعها فله درهم واذ لم يبعها فله نصف درهم . هل ترى ذلك جائزا أم لا ؟ فقال لي :

ذلك جائز اذا ضرب أجلا • واخبرني أبو العباس أنه كتب اليه بهـذه المسألة من القيروان يسأله عن المنادي يطوف يقول بعت ثوباً من هـذا فينكر المشتري ولا بينة للطواف • فقال ابو العباس : يضمن الا ان يقيم ببينة • فقلت له : قال بعض اصحابنا : الذي يتبين لي ان الطوافين قـد تعارف الناس انهم يبيعون ولا يشهدون وان ارباب المتاع كأنهم أذنوا لهم في ان لا يشهدوا وشرطوا ذلك لهم ، والمتعارف كالمشترط في مذهبنا في غير شيء من الاكرية فهو كقولهم والامر يقول للوكيل ادفع لفلان ولا تشهد فلا شيء عليه • فانكر ابو العباس هذا القول ولم يعجبه ، وقال : هو منا من الا ان يقيم بينة • وكأني رايت ابا العباس انما ضمنه لانه رآه من معنى التغرير اذا باع منه ولم يشهد عليه وكأنه غرر بمال الرجل اذ لم يشهد •

وسمعت ابا العباس يقول في الرجل يدفع ثوبه الى المنادي فينادي عليه ثم يبد له في البيع فيرده ثم يطلب بعد ذلك بيعه فيعطيه لمناد اخـر فيبيعه بمثل عطاء الاول انه لم يرد بذلك احرام المنادي الاول فالحق لمن باع ، ولو باع المنادي أو رب الثوب ثوبه بزيادة مثل درهم فلاحق للمنادي الاول لانه زوج سوقة وبالله التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه وصلى الله على محمد وآله وسلم كمل والحمد لله على كل حال والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وسلم

من كتاب المسائل والاجوبة
لعبدالله بن محمد بن السيد البطليومي
المتوفي سنة ٥٢١ للهجرة

ابن السيد البطليوسي[(١)] .

هو عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي الاندلسي • كان عالما بالادب متبحرا باللغة • سكن مدينة بلنسية من مدن الاندلس • وكان الناس يجتمعون اليه ، ويقرؤون عليه ، ويقتبسون منه • وكان حسن التعليم ثقة • ألف التصانيف العديدة • وتوفي في مدينة بلنسية سنة ٥٢١ للهجرة •

(١) كتاب المثلث (وهو كتاب ضخم اتى فيه بالعجيب فقد زاد كثيرا على ما جاء به قطرب النحوي) •

(٢)الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (وهو شرح ادب الكتاب لابن الدينوري • ذكر فيه : ان غرضه تفسير الخطبة ، وذكر اصناف الكتبة ومراتبهم وما يحتاجون اليه في صناعاتهم ، ثم الكلام على نكته والتنبيه على غلطه ، وقد طبع في بيروت سنة ١٩٠١م بعناية عبدالله البستاني) •

(٣) الانصاف في التنبيه على الاسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم (وهو مطبوع في مصر سنة ١٣١٩هـ) •

(٤)شرح سقط الزند لابي العلاء المعري •

---

(١) انظر : بغية الملتمس ٣٢٤ ، الصلة ٢٨٧ ، قلائد العقيان ١٩٣ . ٢٨٢/٢ (القاهرة ١٩٤٨) •

(٥) كتاب في الحروف الخمسة وهي السين والصاد والضاد والطاء والدال .

(٦) كتاب الحلل في شرح ابيات « الجمل » .

(٧) كتاب شرح الموطأ .

وقال ابن خلكان : « وسمعت ان له شرحا لديوان المتنبي ولم أره » .

وذكر الزركلي في الاعلام ان له « كتاب الحلل في اغاليط الجمل » وغلب الظن انه الكتاب الانف الذكر . كما ذكر ان له « كتاب الحدائق في اصول الدين » .

(٨) كتاب المسائل والاجوبة .

وهو الكتاب الذي نُعنَى بنشر مختارات منه في هـــذا المجموع . والكتاب يشتمل على مسائل كان ابن السيد قد سئل عنها فكتب اجوبته وألف من مجموع الاجوبة كتابا ضخما يتناول ما ينيف على مائة مسائلة .

ومادة الكتاب تتضمن مســـائل في النحو واللغة والادب والتفسير والاصول . والمخطوط من مخطوطات العلامة الجليل السيد حسن حسني الصمادحي من علماء تونس الاعلام . وقد أطلعت على المخطوط وافدت منه فوائد ، واخترت منه مسائل أثبتها في هذا المجموع فأنشرها واعلـق عليها بما يصل اليه جهدي .

والمخطوطة بخط تونسي جيد حديثة الخط اذ أن تاريخ نسخها سنة ١٢٩٩ للهجرة وهي بخط محمد الطيب بن ابراهيم الرياحـــي التونسي .

ولهذه المخطوطة نسختان اخريان الاولى نسخة الاسكوريال ورقمها ١٥١٨ والثانية نسخة القرويين في فاس كما أفاد بروكلمان . ولما كنت قد اخترت من هذا الكتاب الضخم مســـائل يسيرة ، ولما كانت نسختي

التونسية جيدة واضحة ، فلم أر بي حـــاجة كبيرة للتوفر على احدى النسختين الاخريين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم تسليما .

قال الشيخ الامام المحقق رئيس اولى الالباب والشارح لسيبويه ذلك « الكتاب » علامة الاندلس عبدالله[1] بن محمد بن السيد البطليوسي رحمة الله تعالى ونفعنا به وبأمثاله آمين .

الحمدلله الذي أمرنا بمكارم الاخلاق . لما أسبغ علينا النعم من غير استحقاق . فقال : اصفحوا عن من جهل عليكم ، وأحسنوا لمن اســـاء اليكم ، واعفوا عمن ظلمكم ، واعطوا من حرمكم ، وهو أولى بالعفو عن المظالم ، والاخذ بالمكارم ، اذ كان من صفاته الكمـــال ، ومن صـــفاتنا النقصان ، ومنا الاساءة ومنه الاحسان فاعتمد فينا ما به أمر ، وتمم علينا من نعمه ما به بدأ . وصل اللهم على أنبيائك الذين أخلصتهم بخالصـــة ذكرى الدار ، وجعلتهم من المصطفين الاخيار ، ورفعت منازلهم في عليين ، وابقيت لهم لسان صدق في الاحرين ، وعلى ملائكتك المقربين ، الذين فضلتهم على العالمين .

قال الشيخ الاستاذ ـ رضي‌الله عنه ـ غرضي من هذا الكتاب ذكر مسائل طولبت بالجواب عنها . بعضها استفهام واسترشاد ، وبعضها امتحان وعناد ، فاجبت عنه بما أحاط به علمي ، واقتدح له فهمي ، ولم أقتصر فيها على الهداية دون الدراية ، ولا على ما تضمنته الدفاتر دون ما سمحت به الخواطر ، اذ كان من تقدم العلماء ربما أشاروا الى المعاني من غير

---

(١) في المخطوطة : ابو عبدالله

استيفاء ، واذا كان الخالف قد يهتدي الى مالم يهتد اليه السالف كما قال ابو تمام الطائي :

يقول من تقرع أسماعــــه　　كم ترك الاول للآخر

وسميته كتاب المسائل والاجوبة ليكون معروفا بهذه السمة . وهــذا التأليف معرض للزيادة فيه اذ كان السؤال يوجب ذلك ويقتضيه ولاتمام له ولا انقضاء حتى يشارف العمر الانتهـــاء . وانا استغفر الله واستوحيه جميل العفو .

ـ القول في اشتقاق اسم الله تعالى وذكر الخــلاف فيه والصحيح عندنا ـ

اختلف الذين قالوا ان اسم الله تعالى مشتق ، وجملة خلافهم اربعة اقوال : قال قوم هو مشتق من أليه الرجل يأله الها اذا تحير ، واحتجوا بقول الاخطل :[٢]

ونحن قسمنا الارض نصفين نصفها　　لنـا وتُرامي أن تكون لنـا معــا
بعشرين ألفاً تأله العـــين وسـطها　　متى ترها عينا[٣] الكرامة تدمعا[٤]

ومن ذلك قيل للقبر الذي يحار فيه مأله[٥] ، لأنه يوله سالكه أي يحيّـره قال رؤبة :

بـــه تمطت غَـول كل مألــه　　بنا حراجيج المطيّ النُفّه[٦]

قالوا : فسمى الباري تعالى بذلك لان القلوب تحار في عظمته فلا

---

(٢) انظر مادة (اله) في « اللسان » .
(٣) هذا هو الصحيح ، أما في النسخة الخطية : عين
(٤) هكذا روى البيت ، أما رواية الديوان :
بتسعين الفا تأله العين وسطه　　متى تره عين الطرامة تدمعا
(٥) لم ترد هذه الكلمة في معجمات اللغة
(٦) هكذا روي البيت ، أما رواية « اللسان » :
به تمطت غول كـل ميـله　　بنا حراجيـج المطيّ النُفّه

تستطيع ان تحده ولا تصفه الا بما وصف به نفسه ـ جل وعلا ـ ان تحيط به الاقطار ، وتحده الافكار •

وقال آخرون : هو مشتق من ألهت الى الرجل اذا فزعت اليه ، وكذلك روى عن ابن عباس انه قال : « هو الذي يأله اليه كل شيء ومستعانه ، لا رب غير » وهذا القول لم نجد عليه شاهدا من اللغة ، وهو مروي عن ابن عباس كما ترى •

وقال آخرون : هو مشتق من قولهم أله الله العبد يألهه بمعنى عبده يعبده عبادة وتأله الرجل اذا تعبّد وقال رؤبة :

لله درّ الغانيات المُدَّهِ سبّحنَ[7] واسترجعنَ من تألهي

قالوا : ولهذا سموا الشمس[8] الاهة والالاهة[9] لعبادتهم اياها قال الشاعر[10] :

تروّحْنا من اللعْباء[11] فأعجَلْنا الالَهة أن تؤوبا

وقال آخرون : هو مشتق من الوله ، وهو اشد ما يكون من الشوق والحزن ، سمي بذلك لان القلوب تأله اليه أي تشتاق الى معرفته ، وتلهج بذكره ، واحتجوا بقوله تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله[12] •

ويقول النابغة الجعدي :

[وأراني طَرِباً في اثرهم] طرب الواله أو كالمختَبلْ

وأنشد أبو حاتم الرازي للكميت :

وَلِهَتْ نفسي الطروب اِليهم وَلَهاً حال دون طَعْمِ الطعام

وذهب هو الى أن أصل « أله » « وله » ابدلت الواو همزة •

---

(7) هذا هو الصحيح ، اما في النسخة الخطية : سبحان

(8) هذا هو الوجه ، اما في النسخة الخطية : السماء

(9) قال ثعلب : والالاهة بكسر الهمزة وفتحها وضمها كلها الشمس

(10) هي مية بنت ام عتبة بن الحارث •

لانكسارها في أول الكلمة[١٣] . كما أبدلوها في « وشاح » ونحوه فهذه جملة ما قاله الناس في اشتقاق اسم الله تعالى .

والصحيح عندنا في هذه الاقوال القولان الاولان . فأما القولان الآخران فلا يصحان مع النظر . أما قول من قال : انه مشتق من « أله يأله » اذا عبد ، فقد يجوز لقائل ان يعكس هذا القول فيقول : ان قولهم « أله يأله » هو المشتق من الاله ، كما ان قولهم : تألّه الرجل اذا تحير وتعظم انما معناه تشبه بالاله . وكذلك قولهم : « حوقل الرجل » اذا قال : « لا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم » و « بسمل » اذا قال : « بسم الله » و « حيعل » اذا قال : « حي على الصلاة » أو « حي على الرحيل » ونحوه قال الشاعر :

أقول لها ودمع العين جار ... ألم تحزنكِ حيعله المنادي[١٤]

وأما قول من زعم أنه مشتق من الوله ، وان أصل « أله » « وله » فغلط بيّن . وقد رد أبو علي الفارسي في بعض كلامه ، وقال : « لو كان أصل اله » « ولاه » لوجب اذاً أخذ الفعل منه اذ يقال « توله » كما أن من يقول في « وشاح » « أشاح » فيهمز الواو اذا صرف منه الفعل قال « توشح » فيرد الواو الى أصلها لذهاب العلة التي أوجبت همزها وهي الكسرة . وكذلك كان يلزمه اذ جمع « اله » أن يقول « أولهة » كما ان من يقول « أشاح » اذا جمع قال « أوشحة » فلما وجدناهم يقولون : « تأله الرجل » و « الاهة » فيقرون الهمزة على حالها علمنا أنها أصل لا بدل من واو . فان قال : فقد وجدناهم يقولون « لاه » بمعنى اله قال الاعشى :

---

(١١) هكذا رويت في اللسان ، اما في المحكم : قسرا .
(١٢) سورة البقرة الآية ١٦٥ .
(١٣) انظر كتاب الزينة لابي حاتم الرازي ص ٢٠ .
(١٤) هذا هو الصحيح ، وفي المخطوطة : [ألم تحزنك حيعلة المنايا] .

كَحلْفة من أبي رَباح يسمعها لاهُمَ الكُبار[١٥]

فاذا كان ذلك مسموعا فما تنكر أن يكون أصل « لاه » « لوها » مقلوبا من « وله » وله تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ، فصح بذلك أنه موجود من الوله ، ولزم أن يكون قولهم « تأله » و « أله » من البدل الذي يلزمونه مع ذهاب العلة الموجبة له من قولهم « أعياد » في جمع « عيد » و « أرياح » في جمع « ريح » والجواب عن ذلك : ان الالف في « لاه » قد صح عندنا انها منقلبة عن ياء لا عن واو بدليـــل قولهم : « لهي أبوك » يريدون « لاه أبوك » فقلبوا العين الى مكان اللام فظهــرت العين ياء ، ولو كانت واوا لوجب أن يقولوا اذا قلبوه « لهو أبوك » ودل على ذلك ان « لاها » لا يصح أن يكون مقلوبا عن « وله » لانه لو كان مقلوبا منه لم يقلب مرة ثانية • وهذا قول أبي علي الفارسي واستدلاله • وقد حكى بعض اللغويين « لاه يلوه » اذا « عبد » وليس يثبت • والذي قاله أبو علي أثبت وأصح ، فثبت بهذا كله ان قول من جعله مشتقا من الوله لا يصح •

ـ ذكر الخواص التي خص بها اسم الله تعالى فيما ليس موجودا في سائر اسمائه ولا غيرها ـ

اعلم أن هذا الاسم العظيم قد خُص بثماني خواص لا توجد في غيره من أسماء الله عز وجل ولا في غيرها • فمن ذلك ان أسماء الله كلها صفات ، وقولنا « الله » اسم مخصوص به غير صفة •

ومنها أن جميع أسمائه تنسب الى هــذا الاسم ، ولا ينسب هو الى شيء منها • وقال الله تعالى : « ولله الأسماء الحُسنَى »[١٦] فنسب جميع أسمائه اليه ، ولم يفعل ذلك بغيرها تنبيها على جلالته •

---

(١٥) هكذا روى في الديوان ، اما في المحكم فقد روايت : كحلفة « من ابي رياح» و « رياح » مكسورة الراء بعدها ياء مثناة تحتية •

(١٦) سورة الاعراف ، الآية ، ١٨٠

ومنها أن جميع أسمائه تعالى قد تسمّى بها المخلوقون ، ولم يتسمَّ أحد بالله ، ولذلك قال : « هل تعلم لـه سميا »[١٧] أي : هل تعلم شيئا يسمى « الله » غيره . وقد توهم قوم أن « الرحمن » لم يتسمَّ به أحـد غير الله تعالى وأجروه مُجرى « الله » تعالى في أنه مخصوص به . وذلك غير صحيح من وجوه :

منها أنه روي عن عطاء الخراساني أنه قال في « بسم الله الرحمن الرحيم » : كان « الرحمن » من اسم الله تعالى فلما تسمّى به المخلوقون زيد عليه « الرحيم » ليكون له دون غيره . وهـــذا فصل بيّن على ان « الرحمن » قد تُسمي به .

ومنها أن مسيلمة الكذاب ـ لعنه الله ـ قد تسمّى بالرحمن .

ومنها أن أهل اللغة قد أنشدوا :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبًا   وأنت غيث الورى لازلت رَحمانا[١٨]

زعم ثعلب ان الرحمن أصله العبرانية[١٩] ، وأنشد لجرير :

لن تدركوا المجد أو تشروا عباءكم   بالخز أو تجعلوا التنوم ضَمرانا[٢٠]

---

(١٧) سورة مريم ، الآية ٦٥

(١٨) هكذا رواه الزمخشري في الكشاف ١/٧ (القاهرة مطبعة الاستقامة) ابو حاتم الرازي في الزينة ١٩/٢ :

. . . . .   فأنت غيث الورى لا ريب رحمانُ

وهو لرجل من بني حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب

(١٩) القول بعبرانية [الرحمن] غير صحيح ، والصحيح ان هذه الكلمة من الاصول السامية فهي موجودة في اللغات السامية عامة . ولـكن اللغويين العرب يعزون للعبرانية او للســـريانية او للحبشـــية كل ما لم يستطيعوا ان يردوه الى أصله ، جهلا باللغات السامية غير العربية .

(٢٠) هكذا روي البيت في المخطوطة ، اما في اللسان :

لن تدركوا المجد او تشروا عباءكم   بالخز او تجعلوا الينبوت ضمرانا

أو تتركون الى العسّين هجرتكم   ومسحكم صُلبهم رحمان قربانا[٢١]

ومن خواص هذا الاسم العظيم قد حذفوا ياءً من أوله وزادوا ميماً مشددة فقالوا : اللهم وذلك غير موجود في شيء من أسماء الله تعالى سواه ، ولا في غيرها . ومن خواصه أنهم قالوا : « يا الله » فقطعوا همزته ولم يفعل بغيره وجمعوا بين الياء التي للنداء والالف واللام ولم يفعلوا ذلك الا في ضرورة الشعر كقوله :

من أجلك يا التي تيمت قلبي   وأنت بخيلة بالود عني[٢٢]

وقال آخر :

فيا الغلامان اللذان فرّا   اياكما أن تكسبانا شرا[٢٣]

وأنشد الفراء :

مبارك هوّ ومن سمّاه   على اسمك اللهم يا الله[٢٤]

ومن ذلك اختصاصهم اياه في القسم بحالة لا تكون بغيره ، ومن

---

(٢١) هكذا في اللسان اما في النسخة الخطية :

او تتركوا الى القسيس هجرتكم   ومسحكم صلبهم رحمان قربانا

وفي مادة (رخم) في [اللسان] جاء البيت كما يأتي :

. . . . . . ومسحكم صلبهم رحمان قربانا

أما رواية الديوان :

هل تتركنّ الى القسّين هجرتكم   ومسحهم صلبهم رحمان قربانا

لن تدركوا المجد او تشربوا عباءكم   بالخزّ او تجعلوا التنوم ضمرانا

(٢٢) حمل البيت على الشذوذ . انظر شرح الكافية لرضى الدين الاسترابادي ١٤٥/١

ورواية البيت : من اجلك يا التي تيمت قلبي   وانت بخيلة بالوصل عني

(٢٣) ورواية البيت في شرح الكافية : . . . . اياكما ان تبغيا لي شرا

(٢٤) قول النحاة في « الميم » في « اللهم » انها عوض من حرف النداء المحذوف من الاول غير قوي ذلك ان هذا التعويض لم يرد الا في هذه الكلمة ، فهل لنا ان نفترض فنقول : ان الميم فيهما هي كالميم في الكلمة العبرانية « الوهيم » وتعني الله ، والكلمة العربية بقايا لكلمات ذات اصول بعيدة ورثت الميم في نهاياتها من اصولها اللغوية القديمة نحو « ابنم » و « فم » ونحو ذلك .

أسمائه ولا غيرها . وذلك ادخالهم التاء عليه في قولهم : « تالله لافعلن » ، وقولهم : « أيمن الله لأفعلنَّ » .

مسألة رابعة :ـ

سألت ـ حبَّب الله اليكَ التنزيل ، وفهمك التأويل ـ عن قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون »[٢٥] ولما كان معنى كل كلام مرتبطا باعرابه ، واعرابه مرتبطا بمعناه ، لم يكن بد من ذكر الاعراب مع المعنى فأقول وبالله أستعين : ان الظاهر من قوله تعالى : « وما تعبدون » أن تكون « ما » في موضع نصب معطوفة على الضمير المنصوب بـ « ان » كأنه قال : « انكم والاشياء التي تعبدونها من دون الله حصب جهنم » فمقتضى هذا الكلام وارد ، ومحصول معناه : « ان كل من عبد شيئاً من دون الله في النار هو ومعبوده معه على ما نبينه بعد هذا ان شاء الله تعالى .

وقد قال قوم : ان « ما » في موضع خفض على القسم . وهو رأي الصوفية أكثرهم ، والتقدير عندهم « انكم حصب جهنم وحق معبوداتكم التي تعبدون من دون الله » فمحصول معناه على رأيهم ، ان العابدين في النار دون ما عبدوه . وانما فروا الى هذا القول لانه ليس شيء عبد من دون الله في النار ، اذا كان كثير من أهل الضلال قد عبدوا عيسى والملائكة وأم عيسى وغيرهما من البشر ولا ذنب للمعبود في عبادة من عبد ، لان المعبود ان كان صنما ونحوه مما لا يعقل ، فما وجه الحكمة في عذابه وهو لا يحس ولا يتأثم ولا يختار ذلك ولا يريده ، وان كان المعبود عاقلا مميزا ولم يختر ذلك ولم يرضه ، فكيف بذنب فعل غيره ، وقد قال الله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر اخرى »[٢٦] .

---

(٢٥) سورة الانبياء ، الآية ٩٨

(٢٦) سورة فاطر ، الآية ١٨

فرأى هؤلاء القوم لاجل هذا الذي قلنا ، أن « ما » في موضع خفض على القسم • وعلى نحو من هذا المذهب قرأ بعضهم « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » فجعلوا « ما » في موضع خفض على القسم ، وخفضوا الحصب على البـدل من « ما » ونصبوا « جهنم » بفعل مضمر تفسيره الجملة التي بعده كأنه قال : « تردون جهنم أنتم لها واردون » • وهذا مثل ما حكاه سيبويه من قولهم : « أزيد أنت ضاربه » تريد « أتضرب زيداً أنت ضاربه • وهذا القول خطأ بيّن ، لا خفاء به على متأمل صحيح التأمل • والآية نفسها تنقض ما قالوه ولكن يجب علينا أن نولي قولهم ما يستحقه من الكلام ونذكر احتجاجهم كما زعموه ثم نبين بعد ذلك ان الصواب غيره ، فنقول حاكين لما يحتجون به : « ان قال قائل : كيف أقسم تعالى بأصنامهم التي كانوا يعبدونها ، وفي القسم بهـا تنويه بأمرها وتعظيم لقدرها » فعن هذا جوابان للصوفية : أحدهما : أن يكون تقدير الكلام « انكم وحق ما تعبدونه من دون الله عنـدكم أو في اعتقادكم » فيكون ذلك على وجه الحكاية كما كانوا يعتقدونه فيها كما قال تبارك وتعالى : « انك أنت العزيز الكريم »[٢٧] وانما هو في الحقيقة الذليل المهـان ، ولكن خرج الكلام مخرج الحكاية كما كان يعتقده في نفسه ويعتقده فيه من كان يعبده • ونحوه قوله في موضع آخر : « أين شركائي الذين كنتم تزعمون »[٢٨] فأضاف الشركاء الى نفسه ، وليس لـه تعـالى شريك • ويروى ان شاعرا من شعراء اليمن هجا جريراً فقال في هجوه :

أبلغ كليباً وأبلغ عنك شاعرها   اني الأعز واني زهرة اليمن

فقال جرير :

---

(٢٧) سورة الدخان ، الآية ٤٩

(٢٨) سورة القصص ، الآية ٦٢

ألم يكن في وسوم قد وَسَمَتْ بهــا

من حان[٢٩] موعظة[٣٠] يا زهرة اليمن[٣١]

فسماه « زهرة اليمن » حكاية لكلامه ، واعتقاده في نفسه ، فهذا أحد الجوابين عند الصوفية. والجواب الثاني على رأيهم : أن يكون الله تعالى أقسم بآلهتهم على جهة الهزء بها والاستخفاف بقدرها ، كما قال دريد بن الصمة يهجو بني شهاب [٣٢] :

لعمر[٣٣] بني شهاب ما أقاموا   صدور الخيل والأسل النياعا[٣٤]

ولكني كــررت بفضــل قومي   فحزت مكارماً وحــويت باعــا

فأقسم بأعمارهم هازئا بهم وهو قد وضعهم وأنهم لم يبلوا ولا دافعوا فهذا ما تحتج به الصوفية لقولها : قد وفيناه لهم ، ولعلنا قد زدنا فيه ما لم يعربوا به عن أنفسهم وينبغي أن تعلم ان الحق غــير ما قالوه • والقول الصحيح الذي يقتضيه مذهب أصحابنا أهل السنة هو الصحيح • وهو :

---

(٢٩) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : مدعضة •

(٣٠) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : جاز

(٣١) لم يرد البيت في الديوان على هذا الوجه بل ورد على الوجه الآتي :
ألم يكن في رسوم قد وسَمَتْ بها   من حان موعظة يا حارث اليمن
وقد هجا جرير زهرة القناني ص ٥٦٦ في قصيدة مطلعها :
عرفت منازلا بلوى الثماني   وقد ذكّرن عهدك بالغواني

(٣٢) هو دريد بن الصمة سيد بني جشم ، ادرك الاسلام ولم يسلم وقتل على شركه يوم حنين •
انظر : الاغاني ٢/٩-١٩ ، المؤتلف ١١٤ ، الخزانة ٤/٤٤٢-٤٤٧ ، شرح الحماسة للمرزوقي ٨١٢ ـ ٨٢٧

(٣٣) هكذا في الصحاح للجوهري واللسان ، اما في المخطوطة : أحمد

(٣٤) نسب البيت في « اللسان » الى القطامي ، واكبر الظن ان صــاحب اللسان اشتبه عليه الامر فجعله من عــدة قصيــدة القطــامي ، العينية التي مطلعها :
قفي قبل التفرق يا ضباعا   ولا يك موقــف منــك الوداعا
وهذه القصيدة تتفق وبيت دريد في الوزن والقافية •

ان « ما » معطوفة على الضمير المنصوب بأنّ وان المراد بالآية ما قومنـــا ذكره ، لان المشيخة الجلة رووا بأسانيد مختلفة أن هذه الآية كما نزلت تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش فقال بعض من حضر من أكابر قريش : « أنا أخصم لكم محمداً » ثم أقبل عليه فقال : « يا محمد ان عيسى وأمه قد عبدا من دون الله ، أفيكونان من حصب جهنم ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغرب المشركون ضحكاً . فأنزل الله تعالى : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون »(٣٥) فهذا التفسير يدل على أنه يقسم بآلهتهم ، وانما أراد أنها معهم في الدار . على انه يمكن الصوفية أن تقول : يجوز أن يكون الله تعالى أراد القسم وتوهمت قريش غير ذلك لاحتمال الآية تأويلين فأنزل الله تعالى الآية الثانية تأكيداً للبيان ، كما غلط عدي بن حاتم في تبيين قوله تعالى : « حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود »(٣٦) فأنزل الله تعالى « من الفجر » زيادة في البيان ، لا لأجل ان التأويل كان على ما تأوله عدي ، فهذا يجوز لهم أن يحتجوا به ، ولكن الرواية واتفاق الجماعة أولى أن يؤخذ به .وقد قال عز من قائل : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم »(٣٧) وقد قال في الآية نفسها « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون » . وهـذا يبطل قول الصـوفية ابطالا ظاهراً لا حيلة لهم في دفعه . واني لأعجب ممن تعرض لـه هذه الشبهة مع هذا النص الواضح .

وقد اعترض معترض من الملحدين فقال : كيف أنزل الله تعـــالى كلاما ناقص البيان يحتاج الى الاتمام ويمكن الاعتراض عليه والطعن فيه ، وهو العالم بما كان وما يكون قبل أن يكون وقد سبق مكنون علمه جـل

---

(٣٥) سورة الانبياء ، الآية ١٠١

(٣٦) سورة البقرة ، الآية ١٨٧

(٣٧) سورة الصافات ، الآية ٢٣

جلاله ما يهجس في كل خاطر ، وما يمكن أن يعترف به كل ملحد ؟ فقد كان الأليق بوجه الحكمة أن تنزل الآيات محكمة متقنة لا نقص فيها ولا اعتراض في شيء من معانيها .

فالجواب عن هذا من وجوه منها : ان معنى الاعتراض لا يلزم لانه ان ساغ لمعترض أن يعترض بهذا في نزول آيات القرآن العزيز ، ساغ لآخر أن يعترض بمثله في جميع أفعال الله تعالى الموجودة في العالم ، لان لها أو لأكثرها مبدأ وتدرجاً من حال الى حال حتى تبلغ أقصى الكمال . وهل هذا الا بمنزلة من اعترض وقال : كيف خلق الله تعالى من يكذب به ويجحد ربوبيته ، ويفسد في الارض حتى احتاج الى مخاطبة البشر بالوعد والوعيد ، وقد كان الاكمل في الحكمة أن يهديهم في أصل الفطرة حتى لا يقع شيء من ذلك فاذا لم يكن هذا الاعتراض لم يلزم ما اعترضوا به .

وجواب آخر وهو ان في نزول القرآن منقطعا على هذه الصفة التي أنكرها هذا المنكر وجوها من الحكمة عمي عن معرفتها فمنها : تثبيته صلى الله عليه وسلم عندما كانوا يفحشونه بأقاويلهم ، ويعترضون بزخارفهم وأباطيلهم وقد نبهنا الله تعالى على هذا الوجه من الحكمة بقوله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك »(٣٨) الى آخر الآية . ومن وجوه الحكمة في ذلك ان الشيء اذا ورد أولا وهو محتاج الى الايضاح والاكمال كان أعظم في النفوس ، واشتد حرص السامع على معرفة آخره والوقوف على حقيقة غرضه ، ولهذا ورد تمامه بعد ذلك وكان له من الموقع في النفوس ما ليس للشيء الذي يرد جملة ، يفجأ دفعة . وهذا المعنى لا يخص نزول القرآن دون غيره ، بل ذلك موجود في أكثر الامور ، ولذلك استحسن العلماء أن يتقدم الاعطاء وعد ، ويسبق الوصل صد ، والمواساة منع حتى قال الشاعر :

---

(٣٨) سورة الفرقان ، الآية ٣٢

حلاوة الفضـــل كوعـــد ينجز   لا خير في الفضل كنهز ينهـــز

وقال آخر :

لولا اطراد الصيد لم يك لـــذة   فتطاردي لي بالوصـــل ذليـــلا
هذا الشراب أخو الحيـــاة فما له   من لـــذة حتى يصيب غليـــلا

وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى جدا استحسانا له فهذا وجه آخر من الحكمة في ذلك •

ووجه ثالث : وهو ألطف مأخذا وأدق مسلكا مما تقدم : وذلك ان في نزول القرآن العزيز على هذه الصفة التي أنكرها هذا الجاهل بوجوه حكمة الله تعالى ، أصحّ دليل وأبين شاهد بأنه صلى الله عليه وسلم كان لا ينطق عن الهوى وانما كـــان وحياً يوحى ، لان القرآن لو كان شيئا يتقوله وكلاما يلفقه ويصفه على ما كانوا يدعون عليه وينسبون اليه لابرزه محكم الصنعة متقن التأليف مستوفي الغرض غير محتاج الى زيادة ونقص كما يبرز الشاعر قصيدته ، بل أن ينقحها ويهذبها ، والخطيب خطبته بعد أن يقومها ويثقفها بدل ظهور القرآن على لسانه متقطع النظام محتاجاً كثير منه الى الاكمال والاتمام • على انه لم يكن فيه أكثر من التبليغ والتأدية عن الله تعالى • فتأمل هـــذا فانه من أسرار القرآن اللطيفة وأغراضـــه الشريفة •

ووجه رابع من الحكمة : وهو أن نزول القرآن منقطع النظام ثم انتظامه وتأليفه بعد ذلك على أبدع ما يكون من أساليب الكلام دليل شاهد على أنه كلام حفّ بالعصمة ، وارتفع عن الطاقة والقدرة • وذلك ان البليغ منا اذا عمل فقراً من الكلام نظما أو نثرا ثم احتاج الى تأليف بعضها مع بعض حتى يجعلها قولاً واحدا وأنه يجدها متنافرة التأليف غير منتظمة التصنيف حتى يستعمل نوعا آخر من النظم ويزيد وينقص ، وأنت تجـد

هذا القرآن العزيز بعد تألف آياته المتفقرة ، وضمها الى السور المحكمة ، رائق المسمع في الآذان ، عذب الموقع في الأذهان ، حتى تتوهم انه كلام نزل في وقت واحد • وهذا شيء لا ينتبه له المستبصر ، ولا يهتدي اليه المتأمل المعتبر ، ولا يقدره حق قدره الا اليقظان المتفكر • فهذه أربعة وجوه من الحكمة في نزول القرآن متقطعا • ثم نحن نقول ذلك لهذا المعترض • فجهله فيما لم يحط به علما ، ولم يأت تأويله تثبيتا للمؤمن المسترشد ، وقمعا للكافر الملحد ، اذ اعتراض المعترض في الشيء وطعنه فيه لا يدل على نقصان الشيء المعترض فيه ، ولا يقتضي أن ذلك من أجل اختلال معانيه ومبانيه ، فقد يعترض المعترض في شيء صحيح المعنى متفق اللفظ والمبنى لنقصان فطرته وقلة معرفته أو لغلط يعرض له وشبهة تدخل عليه من لفظ مشترك وتأويل محتمل • ألا ترى الى قول القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم[٣٩]

وقولـه :

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مراً بـه الماء الزلالا[٤٠]

وقوله تبارك وتعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » آية محكمة المبنى صحيحة المعنى غير محتاجة الى شيء يتممها ويبينها ولو اقتصر عليها لم يضرها جهل من جهلها • وانما أنزل تعالى « ان الذين سبقت لهم الحسنى •• الآية » حسماً لاعتراض المعترض وتأكيدا لايضاح المعنى ، لا يغفر من الآية الاولى الى الآية الثانية • ولو كان صلى الله عليه وسلم ممن يقول بالقياس والنظر لأبان وجه تأويلها وأعرب عنه • ولم نكن نحن على تخلفنا أهدى الى وجه الاحتجاج لها منه ، لكنه

---

(٣٩) البيت من قصيدة للمتنبي مطلعها :
اذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

(٤٠) من قصيدة للمتنبي مطلعها :
بقائي شاء ليس هُمُ ارتحالا ... وحسنَ الصبر زمّوا لا الجمالا

صلى الله عليه وسلم كان لا يقول شيئا برأي يراه ، وانما كان يتبع ما أنزله الله اليه وأوماه .

ولنبين لك صحة ما نقوله من ان هذه الآية لا تحتاج الى شيء يتممها ان الخطاب في قوله : « انكم وما تعبدون من دون الله » لا يخلو من أن يراد به العرب خاصة ، أو يراد به كل من عبد شيئا من دون الله ، فان كان الخطاب للعرب خاصة والمراد بما يعبدونه للاصنام خاصة لانهم لم يكونوا يعبدون شيئا غيرها من دون الله فلا وجه لادخالهم عيسى صلى الله عليه وسلم وأمه فيها . ويدل على ان الخطاب لهم خاصة قوله : « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها » وهؤلاء انما هو اشارة الى الشيء الحاضر وان كان الخطاب لكل من عبد شيئا من دون الله من العرب وغيرهم ، فان الاظهر في « ما » أن يراد بها ما لا يعقل لان هذا هو المشهور من أمرها في اللغة . فاذا كان ذلك كذلك ، لم يكن للملائكة وعيسى وامه صلوات الله عليهم مدخل فيها ، لانه لو خلط من يعقل بما لا يعقل ، لقال « ومن تعبدون » لانه اذا خلط من يعقل بما لا يعقل فانما يغلب من يعقل كقوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع »[41] فان قيل : فلعله أراد بقوله « وما تعبدون » من يعقل وما لا يعقل ، لان « ما » قد تقع للعاقل المميز كقوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء »[42] وقولهم : « سبحان من يسلم الرعد بحمده » فنحن نسلم أن « ما » قد تقع للعاقل المميز ، ولكن لا حجة لهم أيضا على هذا القول فما لهم في القول الاول حجة ، لان من عبد شيئا من دون الله من ملك أو نبي فالاثم انما هو على العابد لا على المعبود ، وانما يلزم المعبود الاثم ، ويحق عليه العذاب اذ رضي بذلك أو

(٤١) سورة النور ، الآية ٤٥

(٤٢) سورة النساء ، الآية ٣

أمر به أو دعا الناس الى عبادة نفسه . وقد أخبرنا الله تعالى ان أفاضل عباده وخيارهم لا يرضون بذلك ولا يأمرون به . فقال عز من قائل : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله »[٤٣] فينبغي أن لا يدخل في الآية من المعبودين من دون الله الا فرعون ونمرودا وأمثالهما ممن ادعى الربوبية ، ودعا الى عبادة نفسه . فان قيل : فكيف أخبره الله تعالى ان الاصنام تعذّب مع من عبدها وهي لا تختار ذلك ولا تريده ؟

والجواب عن هذا من وجهين : أحدهما أن الخطاب للعرب خصوصا، فورود أصنامهم معهم النار ليس على وجه العقاب لها . ان العقاب انما يلزم العاقل المميز الذي يتألم ويحسّ ، وانما تحضر لهم يوم القيامة لأحد معنيين : اما ليروا هو ان معبودهم ويلعنونها على تدر ما عبدوها ، واما لتشهد عليهم كما تشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . وليس في وروده الخشب والحجارة النار ما في ورود من عُبِد من العاقلين المميزين لان العاقل المميز يتألم بالعذاب ويحسه بعقابه على ما جناه غيره عبث وجور . وهذا غير جائز في حكمة الله تعالى . والخشب والحجارة لما لم تحسّ ولم تتألم لم يكن في ادخالها النار عبث وجور على ما توهمه هذا المعترض . وان كان المراد بالصفة كل من عبد شيئا من دون الله من العرب وغيرهم ، فقد يجوز أن يكون المعذّب معهم من عبد من البشر ممن رضي بذلك ودعا الناس اليه دون الحجارة والخشب التي لا حسّ لها ولا تمييز . وقد يجوز أن يردّها الجميع من عاقل وغير عاقل على الوجه الذي قدمنا ذكره .

وكان الكلبي يذهب الى أن قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله » منسوخ بقوله « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون »

---

(٤٣) سورة آل عمران ، الآية ٧٩

غلط شديد لوجهين : أحدهما : أنه خبر والاخبار لا يصح فيها النسخ ، انما النسخ في الامر والنهي • والثاني : ان الآية الثانية ليست ناسخة للآية الاولى على ما توهم ، وانما هي مؤكدة للبيان ، زائدة للايضاح • فهـذا ما عندي في تفسير هذه الآية ، وفيه أشياء كثيرة لا تجدها في كتب التفسير ، لاني سلكت فيها مسلك الجدل مناقضة للصوفية • ولم أعترض فيها على الملحدين وأنا أستغفر الله من ذلك ان كان عرضَ ، وأسأله العون على القيام بحق ما أمر به وفرض ، لا رب غيرُه ولا معبود سواه •

مسألة خامسة :ـ

سألت أدام الله تسديدك وأرشدك وبلغك من كل م اترجوه بغيتك ومرادك عن قول امرىء القيس بن حجر :

كأن دمي سَقف[٤٤] على ظهر مرمر
كسـا مزبد الساجوم وشياً مصور[٤٥]

---

(٤٤) هكذا في الديوان ، اما في المخطوطة : شغف

(٤٥) جاء في الديوان ، امرىء القيس ص ٥٨ تفسير الاعلم الشنتمرى لهذا البيت وتعليقه على تفسير ابي حاتم :
لم يفسر لاصمعي هذا البيت • وقال ابو حـاتم : الدمى الصور ، وسقف موضع فيه صور فشبهها بزهو هذا النخل الذي وصـف ، والمزبد ذو الزبد ، والساجوم واد بعينه • هذا تفسير ابي حاتم ، وهو بعيد لا يتحقق ، والذي عندي فيه انه متصل قوله :
فشبهتهم في الآل لما تكمّشوا • • • • • •
فكأنه قصد به الى تشبيه الظعائن على الابل وما عليهن من الوشي ، وهو يسري في السراب بالدمى على ظهور الرخام بهذا الوادي المزبد ، وشبه السراب لبياضه بزبد الوادي • وقوله « كسا مزبد الساجوم وشيا مصوّرا » جعل المرمر كالكاسي لهذا الـوادي المزبد حتى شبهه لحمله الدمى بالابل ، وعلى الابل الوشي وقد عممن به السراب لكثرته، والعرب بما شبهت الشيء بالشيء فجعلت في المشبه به بعض صفـات المشبه اتساعا ومجازا كما قال حبيب [ابو تمام] في وصف لواء ابيض يخفق في الهواء :
←

وقلت ما اعرابه ؟ وما معناه ؟ وقد سألت أرشدك الله ـ عن بيت تحامى جلّة العلماء تفسيره قديما وحديثـــا • وقد روي أن الاصمعي كان لا يفسره ، وان أبا عمرو بن العلاء كان يقول : ذهب من يحسنه • فاذا كان هذان قد قالا فيه هذه المقالة على جلالة مكانهما وقدرهما وبعد صيتهما في العلم وذكرهما ، فما ظنك بعد ذلك بغيرهما ؟ ولم يكن هذان ليقولا فيه هذه المقالة الا وهما قد سألا عنه العرب فلم يظفرا بطائل منه • وما رأينا فيه لغيرهما قولا نستحسنه ونرتضيه • غير أن أبا حاتم ذكر فيـــه تأويلا لا يكشف غمة ولا يبرد غليلا • فقال : الدمى الصور ، وشغف موضع فيه صور ، وأراد ان تلك الصور مزينة بالجوهر فشبه بذلك زهر هذا النخل والزهو[٤٦] [وهو][٤٧] التمر الذي ظهرت فيه الحمرة فاختلف لونه ، والساجوم واد بعينه • وهذا الذي قاله أبو حاتم ـ رحمه الله ـ وان كان غير بيّن فانّ ما تحته معنى حسنا يتضح اذا نحن جلوناه في معرضـه ، وأخبرنا بمنزعه وغرضه فيه • ونذكر بعد ذلك ما قاله سواه ونصله بما نعتقده ونراه ان شاء الله تعالى •

أما قول أبي حاتم فمجازه عندي أنه جعـــل هذا البيت من صـــفة « المكرعات » التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

أو المكرَعات من نخيل ابن يامن   دوين الصفا اللائي يلينَ المشقَرا

(٤٦) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : الرفد •
الاصمعي ، كتاب النخل ص ٦٧ ازهى النخل اذا ظهرت فيـــه الحمرة وهو وهو الزَهْو [بفتح الزاي واسكان الهاء] وفي لغة الحجاز الزُهو [بضم الزاي] •

(٤٧) يحتمل انها سقطت ، والنص يقتضيها •

خلتُ عقابا بيضاء في حجرا   ت الملك خارت منه وفي سدده

والعقاب لا تكون بيضاء ، ولكن لما شبه اللواء المشبه بها • فعلى هذا جعل المرمر الكاسي الودي وشيا مصورا ، اذ شبهه بالابل وما عليهـا من الوشى المصور وسط السراب •

و « المكرعات » النخل النابتة في الماء واشتقاق ذلـــك من قولهم : « كرعت الدابة في الماء تكرع فهي كارعة ، وأكرعتها أنا فهي مكرعة ، وأصل ذلك أن تدخل ذوات الأظلاف من الحيوان أكارعها في الماء ثم استعير ذلك لغيرها فشبّه المكرعات بالدمى ، وشبه الماء بالمرمر ، وشبه زهر النخيل لاختلاف ألوانه بالوشي المصور وأراد هذه النخيل كست «الساجوم» من زهرها ما يشبه الوشي المصور ، فكأن دمى « سقفه »[٤٨] حلت به ففعلت ذلك . ويقوى مذهب أبي حاتم أن العرب قد شبهت النخل بالعـــذارى تشبيها ماشيا[٤٩] مطردا . أنشد أبو حنيفة في صفة نخل :

كأن قدودها في كل فجر عذارى بالذوائب ينتصينا[٥٠]

والذوائب النواصي ، أراد ان الرياح تضربها فيميل بعضـــها على بعض ، فشبهها بعذارى يأخذ بعضهن بنواصي بعض وقال الراجز :

قد أبصرت سعدى بها كتائلي مثل الجواري الحُسَّر العطابل[٥١]
طويلة الأقناء والعَثاكل[٥]

---

(٤٨) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : شغف .
(٤٩) هكذا في النص . ولعلها فاشيا
(٥٠) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : ينتضينا .
(٥١) جاء هذا الرجز في « الصحاح » على النحو الآتي :
قد أبصرت سعدى بها كتائلي مثل العذارى الحُسَّن العطايل
ويبدو ان « الحُسَّن » تصحيف « الحُسَّر » ذلك ان (حسناء) لا تجمع على (فُعَّل) بضم الفاء وفتح العين وتشديدها كما تجمـــع « حاسر » على « حُسَّر » قال تعالى « فلا أقسم بالخُنَّس الجواري الكُنَّس » والخُنَّس جمع « خانس » والصحيح انحسناء تجمع على حسان وحسناوات واحسب ان ذلك قد وقع من خطـــأ الناســـخ الاول ، واما من اشتباه الناشر . وقد ورد لرجز في « اللسان » مادة «عطل» على الصورة التي جاءت في هذه المخطوطة ، ولكن صاحب اللسان اورده في مادة « كتل » عأ الوجه الآتي :
قد ابصرت سعدى بها كتائلي مثلَ العذارى الخُرَّد العطابل
(٥) هذا هو الوجه الصحيح ، اما في المخطوطة : الاثاكل .

والكتائل النخل ، والحُسر التي لا نبات عليهن ، والعطابل الطوال الأعنـــاق واحدتها عطبول . فأما اعرابه على مذهب أبي حـاتم فيحتمل وجهين : أحدهما أن سيبويه ذكر في الكتاب : أن العرب تحذف خبر كأن ولكن وان واخواتها تارة ، وتحذف أسماءها تارة اذا كان في الكلام أو في الحال المشاهدة ما يدل على ذلك وأنشد للفرزدق :

فلو كنت ظبّياً عرفت قرابتي ... ولكن زنجياً عظيم المشافر[٥٢]

فذكر : ان من العرب من ينصب « زنجياً عظيم المشافر » ويجعله اسم « لكن » ويضمر الخبر كأنه قال : « ولكن زنجياً عظيم المشافر لايعرف قرابتي » ودلّ ما نقدم من البيت على هذا الحذف .

وذكر : ان من العرب من يرفـــع فيقول : « ولكن زنجي عظيـــم المشافر » فيجعله خبر لكن ، ويضمر الاسم كأنه قال : « ولكنك زنجي عظيم المشافر » فعلى هذا القياس يجوز أن يكون امرؤ القيس حذف اسم كان وجعل دمى خبرها أراد « كأنها دمى سقف على ظهر مرمر من صفته كذا هذا النخل » . ويشبه هذا الحذف قول طرفة :

وتبسم عن ألمي كأن منوّراً ... تخلّلَ حُرّ الرمل دعص له نَدِ[٥٣]

وقال الأخطل :

خـــلا ان حيّاً من قريش تفاضلوا[٥٤]

عـلى الناس أو ان المكـارم نهشلا[٥٥]

---

(٥٢) انظر سيبويه ، الكتاب ٢٨٢/١ . والبيت في هجاء رجل من ضبـة نفاه عنها ونسبه الى الزنج .

(٥٣) انظر معلقة طرفه :
لخولة اطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(٥٤) هكذا في الديوان ص ٣٩٢ ، اما في المخطوطة : تفضلوا

(٥٥) الديوان : هو من الابيات المنسوبة الى الاخطل وهي ليست في نسخ الديوان . ورد البيت في « اللسان » مادة [نهشل] ٦٨٢/١١ وفي [لتاج] ١٤٩/٨

وهذا البيت فيما ذكروا آخر القصيدة ويكون قوله « كسا » على هذا القول في موضع خفض صفة للمرمر ، كأنه قال : على ظهر مرمر كاس مزبد كالساجوم • فان قلت كيف وصف المرمر بأنه كسا الساجوم الوشي المصور وليس ذلك من صفاته ؟

والجواب : أن ذلك انما جاز لانه يشبه به الماء الذي كان السبب في انبات[٥٦] هذا النخل واذهابه حتى كسا هذا الوادي ما يشبه الوشي المصور • والعرب اذا شبهت شيئا بشيء فربما وصفت المشبه به ببعض صفات المشبه فيقولون : « كأن هندا بدر محلى بالدرر والياقوت » ، وهذه الصفة ليس من صفة البدر ولكنهم لما شبهوا به من هذه صفته صار كأنه بعض البدور محلى بالدرر والياقوت لدخول المشبه بالتشبيه في جنس ما شبه به مجازا لا حقيقة • وهذا كثير في الشعر قد تعاوره القدماء والمحدثون فمنه قول حبيب يصف لواء أبيض[٥٧] •

خلت عقاباً بيضاء في حجرا   ت الملك طارت منه وفي سدده[٥٨]

والعقاب فيما زعموا لا تكون بيضاء ، ولكنه لما شبه بها اللواء الابيض صار بعض أنواع العقاب كأنها أبيض لان اللواء الابيض قد صار بالتشبيه كأنه نوع من أنواعها ومثله قول أبي الطيب المتنبي :

وكنت اذا أبصرته لك قائماً   نظرت الى ذي لبدتين أديب[٥٩]

وعلى هذا يتوجه عندي ما عاب الناس على المتنبي من قوله :

---

(٥٦) هذا هو الصحيح ، أما في المخطوطة : اثبات •

(٥٧) من قصيدة ابي تمام يمدح فيها علي بن الجهم مطلعها :

ما لكثيب الحمى الى عقده   ما بال جرعائه الى جرده

(٥٨) هكذا في الديوان ، اما في المخطوطة : سؤدد

(٥٩) من قصيدة للمتنبي يعزي فيها سيف الدولة في عبده يماك التركي مطلعها :

لا يحزن الله الامير فانني   لآخذ من حالاته بنصيب

اني أنا الـــذهب المعروف مخبره　　يزيد في السبك للدينار دينـــارا

وهذه الصفة غير محمودة للذهب ، وربما أخرجت الشعراء هـــذا المعنى مخرج التعجب والاتساع كقول المتنبي :

ما ضاق قبلك خلخال على رشـأ　　ولا سمعت بديباج على كَنَس[٦٠]

فهذا أحد وجهي اعراب بيت امرىء القيس على مذهب أبي حاتم . والوجه الآخر : أن يكون قوله « كسا » في موضع رفع على خبر « كأن » من غير أن نحذف شيئا . فان قال قائل : « فقـــد كان ينبغي أن يقول «كست» أو «كسون» لانه خبر عن الدمى ، والدمى مؤنثة » .

فالجواب : ان العرب قد تذكـــر خبر المؤنث الـذي ليس بحقيقي وصفته ، حملا على المعنى وكذلك قد يفردون الخبر عن الجميع والضمير العائد حملا على معنى الجمع أو الشيء قال جميل :

ألا ليت أيام الصـــفاء جـــديد　　ودهـــراً تولى يا بثين يعـود[٦١]

ولم يقل « جديدة » كأنه ذهب الى معنى الجمع ، أو ذكّر الايام اذا كانت بمعنى الدهر . هكذا رواه ابن الانباري ، وقد روي رواية غير هذه تركتها خشية الاطالة بها .

وقال آخر :

---

(٦٠) المتنبي الديوان ١/١٤٠ من بيتين اولهما :

اظبية الوحش لولا ظبية الآنس　　لما غدوت بجد في الهوى تعس

(٦١) هكذا روي في المخطوطة وفي الأمالي لابي علي القالي ٢/٣٠٠ ، اما في الاغاني فقد ورد على الوجه الآتي :

الا ليت ريعان الشباب جديد　　.

بل ائتسي تجدي ان ائتسيتِ أسَى

بمثل من قد فُجعتِ اليوم قد فُجِعا(٦٢)

وقال طرفة :

[لا أرى الا النعــــام به] كالأماء أشـرفت حـزمه(٦٣)

فان قلت : فلعل هذا انما جـاء في الضرورة لان هؤلاء الشعراء لم يمكنهم غير ذلك ، وليس في بيت امرىء القيس ضرورة ، لانه قد كان يمكنه أن يقول «كست» فيؤنث والوزن قائم صحيح .

فالجواب : انا وجدناهم قد فعلوا مثل هذا في الكلام الفصيح نثرا ونظما . حكى سيبويه : ان العرب تقول : هو أحسن الفتيان وأجمله ، وأكرم بنيه وأنبله .قال الله تعالى : « نسقيكم مما في بطونه »(٦٤) .

وزعم الاخفش ان العرب تنشد :

ألبـــان ابل تعلـة بن مسافر(٦٥) ما دام يملـكها عليّ حـــرام

وطعـام عمران بن أوفى مثلــه ما دام يسلك في الحلوق طعام(٦٦)

---

(٦٢) جاء في الامالي ١/٢٢ ان الاخفش قال : انبأني ابو الفيض بن ابي شراعة عن ابي شراعة قال : حدثني عبدالله بن محمد بن يسين البصري قال : عَلِق ابي جارية لبعض الهاشميين فبعث اليـه امي تعاتبـه فكتب اليها ابياتا اولها :

لا تتبعنْ لوعة اثرى ولا هَلَعا ولا تقاسِنّ بعدي الهمَّ والجزعا

بل ائتسى تجدي ان ائتسـيت أسى . . . .

(٦٣) هكذا في الديوان اما في المخطوطة : « اشرقت حرقه » .
البيت من قصيدة مطلعها :

أشجاك الربع ام قِدَمُهْ ام رماد دارس حُممُهْ

(٦٤) سورة النحل ، الآية ٦٦

(٦٥) هذا هو الصحيح ، اما في المخطوطة : من مسافر

(٦٦) ورد في البيتان في الكامل للمبرد ١/٥٥ ، وقد جاء البيت الثاني كما يأتي :

←

والهاء في « مثله » عائدة على ألبان . قال : ومنهم من ينشده « مثلها »..
فان قلت : فأيهما أبلغ عندك في معنى التشبيه ، كون الدمى اسم « كان » أم كونها خبرا ؟

فالجواب : ان كون الدمى اسم « كان » أبلغ في التشبيه ، كأنه اذا جعل الدمى خبر « كان » كان التشبيه مستقيما ، واذا جعلها اسمها كان التشبيه معكوسا فكان أبلغ . وهـــذا مذهب للعرب ظـريف ، يقولون : « كأن هنداً القمر » فاذا أرادوا المبـــالغة عكسوا التشبيه فقالوا : « كأن القمر هند » وذلك ان المشبه به له مزية على المشبه ، فاذا عكسوا انتقلت تلك المزية التي كانت في المشبه وعلى هذا قول الراجز :

كـأن أوبَ مائـــح ذي أوب   مدارك النهـــر سريع النهبِ(٦٧)
أوبُ يديها برقاق سهبِ

وقول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العـذارى قطعتـــه   وقد جللته المظلمات الخنادس(٦٨)

---

(٦٧) ورد الرجز في اللسان مادة [اوب] على الوجه الآتي :
كأن أوب مائحٍ ذي أوب   أوب يديهـا برقاق سهب
واورد الجوهري في الصحاح عجز هـذا البيت . والاوب السرعة . والاوب سرعة تقليب اليدين والرجلين في السير .
(٦٨) هكذا في المخطوطة ، اما في الديوان :
ورمل كاوراك العذارى قطعته   اذا جللته المظلمات لحنادس
من قصيدة مطلعها :
الم تسأل اليوم الرسوم الدوراس   بحزوى وهل تدري القفار البسابس

وطعام عمرانَ بن اوفى مثلُها   ما دام يسلك في البطون طعام
وجاء : قال ابو الحسن [الاخفش] روى ابو العباس [ثعلب] : وطعام عمران بن اوفى مثلهـا .
رد الهاء والالف على الالبان ، وهذا لانظر فيه ، وروى ايضا مثله لان الالبان تجري مجرى اللبن فحمله على المعنى .

هذا ما يتوجه عليه عندي قول أبي حاتم ، وقد يجوز فيه وجه آخر وهو أن يكون من صفة الطعن في قوله :

بعينيّ ظعن الحي لمـــا تحملوا
لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا[٦٩]

فيكون معناه أن هذه الظعن المتحملة مرت بالساجوم فكسته الوشي المصور لما عليها من أنواع الثياب المختلفة ، فكأن دمى سقف مرت به فكسته ذلك • وهذا كقوله : مرت بنا هند فكأن القمر مر بنا فيكون « كسا » في هذا الوجه خبر « كأن » وذكر الضمير لما قلناه في الوجه الاول • وقد قال بعض أهل زماننا أن الصواب في هذا البيت رفع « مزبد » وجعل خبر « كأن » غرائر ومعناه عنده أنه شبه هذه الغرائر وما على لباتهن من الحلي بدمي سقف وقد ألقى عليها الساجوم من زبده ما يشبه الوشي المصور ، ويلزم على قوله أن يكون من التشبيه المعكوس للمبالغة على ما ذكرناه • وهذا الذي ذكره هذا القائل بعيد جدا عندي من وجوه منها : ان الرواية انما هي « مزبداً » بالنصب لا بالرفع ، كذلك وجدناه في نسخ صحاح مقروءة على أبي علي البغدادي وغيره من الأئمة المشهورين • وعليه يدل قول أبي حاتم : « وانما فزع الى رفعه من اشكال عليه معنى البيت ولم يتجه ما قدمنا ذكره •

ومنها أنه يلزم على قوله أن يكون قوله : « كسا مزبد الساجوم » في موضع نصب على الحال من الدمى لان « الدمى » في البيت معرفة باضافتها الى المعرفة ، والحال لا بد فيها من ضمير يعود على صاحبها ، فكان يجب على هذا أن يقول : « كساها مزبد الساجوم » فانْ زعم أنها حذفت كما تحذف من الصلة والصفات فذلك غير جائز ، لأن حكم الحال في هـــذا مخالف لحكم الصلة والصفة ، لان الصلة تصـــير مع الموصول كالشيء

(٦٩) تيمر اسم موضع

الواحد فيطول الكلام فتحذف الهاء تخفيفا ، والصفة في هذا مضارعة للصلة لانها تكون مع الموصــوف كالشيء الواحد في أكثر المواضــع اذا كان الموصوف لا يعلم الا بها ، والحال ليست كذلك • ومع هذا فان فاعــل « كسا » الذي ارتفع به أجنبي وهو قوله « مزبد الساجوم » فصار بمنزلة قولك : « رأيت هنداً ضرب عمرو » تريد « ضربها عمرو » وهذا شيء لم يخبرنا أحد من البصريين ولا الكوفيين ، لان الكلام الثاني منقطع من الاول غير ملتئم به • ويبين لك أيضا ضعف هذا القول أنه بعيد من جهة المعنى كبعده من جهة الاعراب لانه قال : شبه الغرائر وما على لباتهن من الحلي بدمى سقف وقد كساها الساجوم من زبده ما يشبه الوشي المصور ، وتشبيه المزبد بالوشي المصور تشبيه بعيد جدا ، فقد اجتمع في هذا القول كما ترى بعده من جهة المعنى وبعده من جهة الاعراب ومخالفة الرواية المشهورة •

وقد رأيت فيه تفسيرا آخر لبعض مشيخة عصرنا ذهب الى أنه يتصل بقولـه :

فشبهتم في الآل لما تكمشوا[٧٠] حدائق دوم أو سفينا مقيّرا

وذهب الى انه شبه الظعـائن على الابل بالدمى على المرمر ، وشبه السراب لبياضه بالزبد ، وأضرب عن تفسير وجه اعرابه ولم يذكره • وهذا الذي قاله غير خارج عما تقدم ، وينبغي أن يكون اعرابه على نحو ما ذكرناه أولا في تفسير قول أبي حاتم والغرض الذي قصده وهو معنى حسن متحصل ليس ببعيد كما زعم وبالله التوفيق •

المسألة الخمسون في « رُبَّ »

سألت أدام الله عزتك ، وحمى من النوائب حوزتك ، وملكك نواحي

(٧٠) هكذا في الديوان اما في المخطوطة : تلمسوا

النعم ، وبلغك أقاصي الهمم ، عن قـــول النحويين : ان رُبَّ للتقليل ، وقلت : كيف يصح ما قالوه وكلام العرب المنظوم والمنثور يشهد بضم ما زعموه ، لان القائل اذا قال : رب عالم لقيته ، ورب طعام طيب أكلته ، فانما غرضه أن يكثر من لقيه للعلماء ، وما أكله من الطعام الطيب وكذلك قول امرىء القيس :

ألا رب يوم صالح لك منهما ... ولا سيما يوم بدارة جلجل[٧١]

وقال الأعشى :

رب رفد هرقتــه ذلك اليوم ... وأسرى من معشر أقتـالِ[٧٢]

لا يليق بهما التقليل لان بيت امرىء القيس بيت افتخار بكثرة الايام الصالحة التي تنعَّم فيها بالنساء ، وان « يوم دارة جلجل » كان أجلهـا وأحسنها . وبيت الأعشى بيت مدح ولم يمدح الذي مدحه بأنه أراق رفدا واحدا . ومثل هذه الابيات ــ أدام الله عزك ــ حمل القـــائلين على أن يقولوا : ان رب للتكثير ، مع ان سيبويه قال في باب « كم » ومعناها كمعنى « رب » فتوهموا أن مذهبه أنها للتكثير :

وقد كان أشكل علي من أمرها قبل قوتي في هذه الصناعة مثل ما أشكل عليك ، وحسبت ان أبا القاسم الزجاجي وأبا جعفر بن النحاس ونحوهما من صغار النحويين غلطوا في ذلك ، فجعلت أبحث عما قاله فيها جلة النحويين فوجدت كبراء البصريين ومشاهيرهم مجمعين على أنها للتقليل وأنها ضد « كم » في التكثير كالخليل وسيبويه وعيسى بن عمرو ويونس وأبي زيد الانصاري وأبي عمرو بن العـــلاء والاخفش سعيد بن مسعدة والمازني وأبي عمر الجرمي وأبي العباس المبرد وأبي بكر السراج وأبي

---

(٧١) رواية التبريزي في شرحه للمعلقات كالآتي :

الا رب يوم لك منهن صالح ... .

(٧٢) من قصيدته التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالاطلال ... وسؤالي وما ترد سؤالي

اسحق الزجاج وأبي علي الفــارسي وأبي الحسن الرماني وابن جني والسيرافي ، وكذلك جلة الكوفيين كالكسائي والفراء ومعاذ الهراء وابن سعدان[73] وهشام[74] ولم أجد لهم مخالفا في ذلك الا صاحب كتاب العين فانه صرح بأنها للتكثير ولم يذكر انها تجيء للتقليل • وهذا من أظرف شيء لان « رب » قد كثر استعمالها في مواضـــع لا يسوغ فيهـــا التكثير سنذكرها اذا انتهينا اليها ان شاء الله تعالى •

ورأيت الفارابي قد ذكر في كتاب الحروف : أنهـــا تكون تكثيرا وتقليـــلا • ورأيت قوما من نحويي زماننا هـــذا ومن قرب زمانه من زمانهم يعتقدون انها للتكثير مثل « كم » وكأنهم يعتقدون ان النحويين المتقدمين غلطوا فيها ورأيتهم يتكلفون بالمواضع التي ظاهرها التكثيرويغفلون المواضع التي لا تحتمل الا التقليل •

ورأيت قوما منهم يحتجون بقول سيبويه في « كم » ان معناها كمعنى « رب » وقد يتعين على المصنف اذا رأى رأيا يخالف ما رآه المبرزون في صناعة من الصنائع أن يتهم رأيه ولا يتسرع في تخطئتهم ، وانما ينبغي أن يلتمس حقيقة ما قالوه ، فلسنا نشك في أن الخليل وجميع من سميناه من البصريين والكوفيين قد رأوا الابيات التي ظاهرها التكثير كما رآها هؤلاء المعترضون عليهم لانها كثيرة جدا وليس مجيئها للتكثير شاذا قليلا فيتوهم انه غاب عنهم لقلته ، بل تكاد المواضع التي ظاهرها الكثرة تكون موازية للمواضع التي تقع فيها القلة • فهذا اتفاق جميع ما ذكرناه على ان أصل

---

(٧٣) هو ابو جعفر بن سعدان الضرير المتوفي سنة ٢٣١هـ • انظر ترجمته في السيوطي بغية الوعاة ٤٥ ، طبقات النحويين للزبيدي ١٥٣ ، نزهة الالباء لابن الانباري ص ١٠٧ ارشاد الاريب لياقوت ٢٠١/١٨

(٧٤) هو هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي المتوفي سنة ٢٠٩هـ • انظر ترجمته في انباه الرواة ٣٦٤/٣ ، نزهة الباء ١١٣ ، بغيـــة الوعاة ٤٠٩ ، ابن خلكان ١٩٦/٢ ، طبقات النحويين للزبيدي ١٤٧ نكت الهميان ٣٠٥ •

أن « رب » للتقليل و « كم » للتكثير دليل على ان لهم في ذلك غرضا ينبغي أن يعلم ويوقف عليه . وكذلك قول سيبويه ان « كم » معناها كمعنى « رب » لا دليل فيه على انها للتكثير من ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن سيبويه ينازع غيره في قولهم : ان « رب » للتقليل و « كم » للتكثير . والثاني : ان سيبويه اذا تكلم في الشواذ في كتابه فمن عادته في كثير منها [قوله] « ورب شيء هكذا » ، يريد انه قليل نادر كقوله في باب « ما وقد » في بيت الفرزدق :

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتهم   اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر(٧٥)

وهذا لا يكاد يعرف كما « لات حين مناص » و « رب شيء » هكذا . وهو كقول بعضهم « هذه ملحفة جديدة في القلة » ، فكيف يتوهم عليه ان أراد بقوله : ان معنى «كم» كمعنى «رب» أنها مثلها في الكثرة وهو يستعملها في كلامه ، وما يستعمله يتكلم عليه في مسائل كتابه بضد ذلك .

والوجه الثالث : ان كل من شرح كتاب سيبويه لم يقل أحد منهم أن سيبويه أراد بهذا الكلام ان « رب » للتكثير . وقد فسر أبو علي الفارسي هذا الموضع فقال : انما قال : ان معنى « كم » لانها تشارك « رب » في انهما يقعان صدرا ، وانهما لا يدخلان الا على النكرة ، وان الاسم المذكور الواقع بعدهما يدل على أكثر من واحد ، وان كان الاسم الواقع بعد « كم » يدل على كثير ، والاسم بعد « رب » يدل على قليل فيختلفان في هذا الوجه . ويختلفان أيضا في ان «كم» اسم ، و «رب» حرف وكذلك قال ابن درستويه والرماني وغيرهما في شرح هذا الموضع من كلام سيبويه ، وان كانت المواضع التي ظاهرها التكثير عنده أو لاتوجب انها للتكثير ، فقد

---

(٧٥) من قصيدة يمدح فيها عمر بن عبدالعزيز مطلعها :

زارت سكينة اطلاحا اناخ بهم   شفاعة النوم للعينين والسهر

يجب أن تكون المواضع التي ظاهرها التقليل توجب أن تكون للتقليل • ولا أقل من أن يتعادل الامران عندهم فيقول : انها تكون تقليلا وتكثيرا كما قال أبو نصر الفارابي • وأنا أؤصل في « رب » أصلا ينبغي تفريع مسائلها عليـــه ويصرح بما أشاره أهل هذه الصناعة المتقدمون اليـــه ان شاء الله تعالى •

« باب الكلام على « رب » وحقيقة وضعها »

أعلم ان «رب» و «كم» بنيا على التناقض في أصل وضعهما • لا أن أصل «رب» للتقليل ، وأصل وضع «كم» للتكثير • هذه حقيقة وضعهما• ثم يعرض فيهما المجاز للمبالغة وغيرها من الاغراض ، فيقع كل واحد منهما موقع صاحبتها ، وهذا سبيل المجاز لانه عارض يعرض للشيء فيستعار في غير موضعه ، ولا يبطل ذلك حقيقته التي وضع عليها ، ومثال ذلك المدح والذم وانهما وضعا على التناقض في أصل وضعهما ، ثم يعرض لهما المجاز فيستعمل الذم مكان المدح كقول القائل : « أخزاه الله ما أشعره ، ولعنه الله ما أفصحه » • ويستعمل المدح مكان الذم فيقال للاحمق : « يا غافل » ، وللجاهل : « يا عالم » ، وللبخيل : « يا جواد » ، وذلك على سبيل الهزء• قال الله تعالى : حكاية عن قول شعيب انهم قالوا له : « انك لأنت الحليم الرشيد »(٧٦) ، وقال لفرعون « ذق انك أنت العزيز الكريم »(٧٧) ومثله قول الشاعر :

وقلت لسـيدنا يا حكيـــم   انك لم تأس سـوءا رفيقـا

وقال بعض شعراء اليمن يخاطب جريرا :

أبلـغ كليبا وابلغ عنـــك شاعرها   اني الأعـــز واني زهـــرة اليمن

فأجابه جرير فقال :

---

(٧٦) سورة هود ، الآية ٨٧

(٧٧) سورة الدخان ، الآية ٤٩

ألم يكن في وسوم قد وسمت به من حان موعظة يا زهرة اليمن(٧٨)

فسماه « زهرة اليمن » حكاية لقوله ، وهزءا به . وكذلك التذكير والتأنيث نقيضان في أصل وضعهما ، ثم يلحقهما المجاز فيقع كل واحد منهما موقع صاحبه مع حفظه لأصله الذي وضع عليه ، فيقولون للرجل : علامة ونسّابة ، ويرون أنه أبلغ من قولهم : علّام ونسّاب ، ويقولون : امرأة طاهر وعاقر وحاسر ، ويرون ذلك أبلغ من التأنيث لو جاءوا به ههنا . ووجه المبالغة عندهم في هذا أن النقيضين انما بينهما حد يفصل بعضهما من بعض ، فاذا زاد أحدهما في حده انعكس الى ضده ، لانه لا مذهب له يذهب اليه اذ لا واسطة بينهما ، ولذلك قال الشاعر :

. . . . وشر الشدائد ما يضحك

وقال أبو الطيب المتنبي :

ولجدت(٧٩) حتى كدت تبخل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء(٨٠)

وقل أبو العلاء المعري :

[فلا تحسبوا دمعي لوجد وجدته] فقد تدمع العينان من شدة الضحك(٨١)

وعلى الثاني هذا السبيل من المجاز يضعون النفي موضع الايجاب ، والايجاب موضع النفي ، ويخرجون الواجب بصوة الممكن ، والممكن بصورة الواجب وغير ذلك من المجازات التي تكثر ان ذكرناها وتخرجنا عن الغرض الذي نحن بصدده ، وقاصدون نحو مقصده . فكما ان وقوع

---

(٧٨) سبقت الاشارة الى هذا البيت :

(٧٩) هكذا في الديوان ، اما في المخطوطة : ومجدت

(٨٠) من قصيدة مطلعها :

أمِنَ ازديارك في الدجى الرقباء اذ حيث كنت من الظلام ضياء

(٨١) رواية الديوان :

فلا تحسبوا دمعي لوجد وجدته فقد تدمع الاحداق من كثرة الضحك

ومطلع القصيدة :

وصفراء لون التبر مثلي جليدة على نوب الايام والعيشة الضنك

بعض هذه الاشياء موضع بعض لا يبطل أصل وضعها فكذلك موقع « رب » موقع «كم» و «كم» موقع «رب» لا يبطل أصل وضعهما على ما نذكر ان شاء الله تعالى .

« باب ذكر المواضع التي تقع فيها « اب » للتقليل والتخصيص على حقيقة وضعها »

فمن ذلك نول العرب اذا مدحوا الرجل « ربه رجلا » وهو شبيه بقولهم : لله دره رجلا . وهذه مسألة قد اتفق عليها البصريون والكوفيون قاطبة ونص عليها سيبويه في كتابه . وهذا تقليل محض لا يتوهم فيه كثرة . لان الرجل لا يمدح بكثرة النظراء والأشباه ، وانما يمدح بقلة النظير أو عدمه بالجملة . وكذلك في التعجب : انه ما خفي سببه وخرج عن نظائره ، وانما يريدون بقولهم : « ربه رجلا » انه قليل غريب في الرجال ، فكأنهم قالوا : ما أقله في الرجال وما أشده فيهم . ويدل على ذلك تصريحهم في المدح بلفظ القلة في نحو قولهم : « قلّ من يقول هذا ، وقلّ من يعلم ذلك الا زيد ونحو ذلك » .

قال أبو عبيدة : الأُسد توصف بالفَدَع[٨٢] ، وهو أن تقبل الرجل الواحدة على الاخرى ، وربما كان الفَدَع أن ينقلب الرسغ الى الجانب الوحشي . أراد أن هذا قليل والاول هو الأكثر .

وقال أبو العباس المبرد في « الكامل » وكانت الخنساء وليلى مباينتين في أشعارهما لأكثر الفحول ، وربما امرأة تتقدم في صناعة وقلّما يكون ذلك »[٨٣] . والجملة ما قال الله عز وجل : « أوَمن ينشّأوا في الحلية

---

(٨٢) لم تشر كتب اللغة الى قول ابي عبيدة في الفدع ، فليس هو مختصا بالأسد بل مطلق عام .

(٨٣) ورد الخبر في الكامل للمبرد [طبعة زكي مبارك] ١٢١٣/٣ على الوجه الآتي : « وكانت الخنساء وليلى بائنتين في اشعارهما ، متقدمتين لاكثر الفحول ، ورب امرأة تتقدم في صناعة ، وقلما يكون ذلك »

وهو في الخصام غير مبين »[٨٤] . ومما جاءت فيه « رب » بمعنى القلة قول العرب : وربما خان الامير وربما سفه الحليم . أي أن هنا قد يكون ، وان كان الاكثر غيره كما قال قيس بن زهير[٨٥] :

أظـــن الحلم دلّ عليّ قـــومي وقـــد يستجهل الرجل الحليم[٨٦]

وقال سالم بن وابصة[٨٧] :

لا تغترر بصـــديق أنت تمحضه وخفه خوفك من ذي الغدر والملق

ان الزلال وان أنجاك من غصص دأبـــا فربتما أرداك بالشـــرَق

وقال أعشي باهلة[٨٨] :

لا يُبطرن ذا مقة ٍ أحبـــابه فربما أردى الفتى لعـــابه

وقال حاتم الطائي[٨٩] :

اني لأعطـــي ســـائلي ولربما أكلّف ما لا يستطاع فأكلفُ

وقال زهير :

---

(٨٤) سورة الزخرف ، الآية ١٨

(٨٥) هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي ، امير عبس وداهيتها واحد السادة القادة في عرب العراق توفي سنة ١٠هـ انظر الميـداني ١/١٨٤ ، ابن ابي الحديد ٤/١٥٠ خزانة الادب ٣/٥٣٦ ، سـمط اللآلي ٥٨٢ .

(٨٦) انظر شرح الحماسة للتبريزي ١/٣٩٧ ، والبيت من قصيدة مطلعها:
تعلّمْ أنّ خير الناس ميت على جَفر الهباءة لا يريمُ

(٨٧) هو سالم بن وابصة بن معبد الاسدي ، امير شاعر ، من اهل الحديث دمشقي سكن الكوفة ، انظر سمط اللآلىء ص ٨٤٤ .

(٨٨) هو اعشى باهلة عامر بن الحـارث بن ريـاح البـاهلي من همدان ، شاعر جاهلي يُكنى أبا قحفان . انظر خزانة الادب ١/٩٠ ، سمط اللآلىء ٧٥ .

(٧٩) هو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي ، كان فارسا جوادا . انظر خزانة الادب ١/٤٩٤ ، الشريشي ٢/٣٣٢ .

وابيض فيـــاض يداه غمـــامة   على معتفيه ما تُغبّ فواضله[٩٠]

وهذا خصوص لا وجه فيه للتكثير ، لانه انما أراد بالابيض حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، ولم يرد جماعة كثيرة هذه صفتهم . ألا تراه يقول بعده :

حذيفـــة ينميه وبدر كلاهما   الى باذخ يعلو على من يطاوله

وقال خوّات[٩١] بن جبير الأنصاري صاحب ذات النحيين[٩٢] :

وذات عيـــال واثقـــين بعقلها   خلجت لها جار استها خلجات

وانما أراد بقوله : ذات عيال ذات النحيين وحدها ، ولم يرد أنه فعل هذه القصة مرارا كثيرة . وكذلك قوله[٩٣] في هذه القضية :

وأهل خبـــاء صـــالح ذات بينهم   قد احتربوا في عاجل أنا آجلـــه

وانما أراد هاج بين حبه وحبها من الحرب فسبب هذه الغمة ولم يرد أهل أخبية كثيرة . وقال صخر بن [عمرو] بن الشريد أخو الخنساء[٩٤]

وذي أخـــوة قطّعت أقران بينهم   كما تركوني واحدا لا أخا ليا[٩٥]

وانما أراد بذي ههنا زيد بن حرملة الحربي ، وهو الذي قتل أخاه معاوية لما قتله بأخيه أنشد هذا الشعر . وقوله « كما تركوني واحدا لا

---

(٩٠) قال زهير من قصيدة مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرّي افراس الصبا ورواحله

(٩١) هو الصحيح بتشديد الواو ، أما في المخطوطة : خراث

(٩٢) ذات النحيين قصة لامرأة من تم الله بن ثعلبة ومثلها مشهور . انظر اللسان مادة « نحـــا » .

(٩٣) المقصود زهير بن ابى سلمى .

(٩٤) هو صخر بن لحارث بن الشريد الرياحي السلمي المتوفى سـنة ١٠ للهجرة . وهو اخو الخنساء ، من الفرسان والغزاة . انظر النويري، عيون الاخبـار ١٥/٣٦٦ ، المبرد ، الكامل ٢/٢٦٦ ، التبريزي ، شرح الحماسة ٣/١١٠ .

(٩٥) هكذا في المراجـع، اما في المخطـوطة : « وذي اخـوة قطعت افراقه بينهـم » .

أخيه ، يبطل معنى الكثرة ههنا ، لان الذين تركوه بلا أخ انما كانوا بني حرمنا، ولم يكن له أخ قتيل غير معاوية • وقال بعض شعراء غسان يصف وقعة كانت بينهم وبين مذحج في موضع يعرف بالبقلاء :

وقوم على البقـــلاء لم يك مثلـــه على الارض قوم في بعيـد ولا دان

وأنشد سيبويه وغيره من النحويين :

ويوم شـهدناه سليم وعـــــامر قليل ٍ سوى الطعن النِهال نوافله[٩٦]

وقال ابن مخلاة الحمار[٩٧] في يوم مرج راهط :

ويوم ترى الرايات فيـــه كأنهـــا حوائم طـير مسـتدير وواقع[٩٨]

فهؤلاء انما وصفوا أياما مخصوصة بأعيانها يرى ذلك أيضا اذا نظر في أخبار هذه الأشعار التي قيلت فيهـــا ، وذلك ما أنشده النحويون من قوله[٩٩] :

ونار قـد حضأت بعيد وهن ٍ[١٠٠] بـــدار ما أريد بهـــا مقـــاما

وهذا شعر مشهور ، ولا معنى فيه للكثرة لانه انما وصف قصـــة جرت له مع الجن مرة واحدة • ونحن نذكر أبياتا كثيرة من أشعار المحدثين في جميعها ان « رب » للتقليل كثر استعمالها فلم ينكر أحد من العلماء عليهم فصارت لذلك كأنها حجة فمن ذلك قول أبي تمام الطائي :

عسى وطـــن يدنو بهم ولعلمـــا وان تعتب الايام فيهم فربما[١٠١]

(٩٦) انظر كتاب سيبويه ١/٩٠١ ونسبة الى البيت رجل من بني عامر •
(٩٧) هو عمرو بن المخلاة من كلب • انظر الاغاني [مطبعة التقدم] ١٧/١١٢ ، ١٠/١١٥ ـ ١٢٣ •
(٩٨) من مقطوعة اولها :
مضى اربع بعد اللقاء واربع وبالمرج باق من دم القوم ناقع
(٩٩) البيت لتأبط شرا انظر « اللسان » مادة « حضأ » •
(١٠٠) هكذا في المخطوطة اما في اللسان : هدء
(١٠١) مطلع قصيدة يمدح بها بن يوسف الثغري •

يريد : ربما اعتبت في بعض الاحيان ، وقال أبو الطيب المتنبي :

ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا[١٠٢]

وقال :

ولربما أطر القناة بفارس وثنى فقوّمها بآخر منهم[١٠٣]

وقال :

ويوم كليل العاشقين كمنته اراقب فيه الشمس أيان تغرب[١٠٤]

وقال يهجو كافورا :

وأسود أما القلب منه فضيّق نحيفا وأما بطنه فرحيب[١٠٥]

وقال يمدحه :

وأبلج يغضي باختصاصي مشيره عصيت بقصديه مشيري ولوّمي[١٠٦]

وانما عنى بالأبلج كافورا وبمشيره ابن حنزابة وزيره وكذلك قوله لسيف الدولة :

علينا لك الاسعاد ان كان نافعا بشق قلوب لا بشق جيوب

ورب كئيب ليس تندى جفونه ورب كثير الدمع غير كئيب[١٠٧]

---

(١٠٢) من قصيدة مطلعها :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

(١٠٣) من قصدة مطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أني أسلمُ

(١٠٤) من قصيدة مطلعها :

اغالب فيك الشوق والشوق أغلب واعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

(١٠٥) لا توجد هذه القصيدة في الديوان (شرح العكبري) .

(١٠٦) هكذا البيت في الديوان ، اما في المخطوطة : وابلج يغضى باختصامي مشيره . وهو من قصيدة مطلعها :

فراق ومن فارقت غير مذمّم وأمّ ومن يممت خير ميمّم

(١٠٧) هذا البيت في الديوان ، اما في المخطوطة :

ورب لبيب ليس تندى جفونه ورب كثير الدمع غير لبيب

ومطلع القصيدة :

وقد أوضح ما أراده من التقليل ههنا في موضع آخر فأخرجه بغير لفظ رب وهو :

وفي الاحبـاب مختص بوجـد ... وآخر يدعى معـه اشتراكا(١٠٨)

ومن أشعار المحدثين قوله :

الحر طلق ضـاحك ولربما ... تلقـاه وهو العـابس المتجهم

وقال آخر :

احـذر عـدوك مـرة ... واحذر صـديقك ألف مرّه

فلربما انقلب الصـديق ... فكان أعلـم بالمضـرّه

وقال عدي بن زيد(١٠٩) وقد أغفلنا ذكره في الشعراء المتقدمين :

يا لبينى أوقـدي النـارا ... ان من تهوَين قد جارا(١١٠)

رب نار بت أرمقهـا ... تقضم الهنـديَّ والغـارا

عنـدها ظبي يؤرّثهـ ... عاقد في الجيـد تَقصـارا

فبين في الشعر أنه أراد نارا تبين وحدها وقد أوضح ذلك المعرّي يقولـه :

ليست كنار عـديٍّ نار عاديـة ... بانت تُشَبُّ على أيدي مصاليتا(١١١)

---

(١٠٨) من قصيدة يمدح بها ابا شجاع عضد الدولة ويودعـه مطلعها :

فدى لك من يقصر عن مداكا ... فلا ملك اذن الا فداكا

(١٠٩) هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي المتوفي سنة ٣٥ق.هـ . شاعر جاهلي من اهل الحيرة . انظر : خزانة الادب للبغدادي ١/١٨٤، الاغاني (دار الكتب) ٢/٩٧ ، السيوطي ، شرح الشواهد ص ١٦١ الشعر والشعراء ص ٦٣ ، المرزباني ص ٢٤٩ .

(١١٠) رويت الابيات في الاغاني ٢/١٤٧

(١١١) من قصيدة يخاطب بها ابا القاسم علي بن ابي الفهم القاضي التنوخي، مطلعها :

هات الحديث عن الزوراء او هيتا ... وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وما لبيني وان عـــزّت بربّتهـــا لكن غَذتْها رجال الهند تربيتا[112]

ومما تأتي فيه رب للتقليل والتخصيص اتيانا مطردا ويرى ذلك من تأمل الاشعار التي في الالغاز والاشعار التي يصف فيهـــا الشعراء أشـــياء مخصوصة بأعيانها ، فانهم كثيرا ما يستعملون « رب » في أوائلها مصرحا بها أو الواو التي تنوب مناب « رب » كقول ذي الرمة :

وجـارية ليست من الانس تشتهي ولا الجن قد لاعبتهـا ومعي ذهني
فأدخلت فيها قيـــدَ شبر موفرٌ فصاحت ولا الله ما وجدت تزنى[113]
فلما دنت اهراقة المـــاء انصتَتْ لأعزلةٍ عنها وفي النفس أن أثنى

وانما وصف بكرة يستقي عليها ماء . وكذلك قول الآخر :

رب نهرٍ رأيت في جوف خـــرج يترامى بموجـــه الزخّـــار
ونهـــار رأيت منتصف الليـــل وليـــلٍ رأيت نصف نهار
وثلاثـين ألف شـــيخ قعودا فوق غصن ما ينثنى لانكسار

يعني بالخرج الوادي الذي لا منفذ له ، وبالنهـــار فرخ الحباري ، وبالليل فرخ الكروان ، وبالشيخ الرذاذ الصغير من المطر .

وقال الأغلب العجلى[114] ووصف ثعلبا ارسل عليه كلبا فعقره :

---

(112) هكذا البيت في الديوان [طبعة صادر] ، اما في المخطوطة :
وما تبين وان عزّت بربتهـا لكن عزتها رجال الهند تربيتا

(113) هكذا البيت في الديوان ، اما في المخطوطة :
فادخلت فيها قيد شبر موتر فصاحت ولا والله ما وجدت تزني

(114) هو الاغلب بن عمرو بن عبيدة بن حارثة من بني عجل ، شاعرراجز معمر ادرك الجاهلية والاسلام استشهد في واقعة نهاوند . انظر خزانة الادب للبغدادي 1/333 ، المؤتلف والمختلف ص 22 سمط اللآلىء 801 .

وثعلب بات قرير العـــين   لاقى مع الصبح غراب البـين
وقد عــدا مجتمع الشخصين   فاستقبلته بحضــور الحَين
طلعة كلب أغضف الاذنــين   فمرّ يهوي ثابت الســاقين
الى وجــار بين صــخرتين   والكلب منــه راكب المتنــين
فلم يرغــه غير روغتــين   حتى رأيت شلوه نصــفين

قال يصف صقراً :

يا رب صَقر يفرس الصقورا   ويكسر العقبـان والنسورا
فرّ الاوز منـه مستجيرا

وقال ابن الرومي :

ورازقي مخطف الخصــور   كأنه مخـازن البلور[115]

وقال أبو الطيب وقد أمره أبو العشائر أن يصف بطيخة مر عليها عقــد :

وسوداء منظوم عليهـــا لآلىء   لها صورة البطيخ وهي من الند

وكذلك قوله في نزهة أمره أبو علي الأوراجي أن يصفها[116] :

ومنزل ليس لنـــا بمنزل   ولا لغـــير الغاديات العُطّل

وكذلك قوله في صفة جبل شاهده مع ابن طغج[117] :

وشـامخ من الجبـــال أمردِ   جرد كيفوخ البعـير الأصيد[118]

---

(١١٥) من ارجوزة يصف فيها العنب الرازقي • انظر الديوان •
(١١٦) في الديوان قالها ارتجالا يصف كلبا ارسله ابو علي الاوراجي على ظبي •
(١١٧) في الديوان : واجتاز ابومحمد ببعض الجبال فأثارت الغلمان خشفا فالتقفته الكلاب فقال ابو الطيب مرتجلا •
(١١٨) هكذا في المخطوطة ، أما رواية الديوان :
وشامخ من الجبال أقود   فرد كيأفوخ البعير الأصيد

وانما أراد منزلا معينا وجبلا معينا ، ويدل عأ ذلك قوله :

[في مشـــل متن المسد المعقد] زرناه للأمر الذي لم نَعهـــدِ

وكذلك قوله في اللعبة التي امتحنه فيها ابن طفج[119] :

وذات غـدائر لا عيب فيها سوى ان ليس تصلح للعناق

قال الاستاذ ـ أعزه الله ـ فهذه المواضع كلها « رب » فيها للتقليل ، وهي كثيرة جدا وانما تخيرت منها أوضحها • وهذه حقيقة رب وموضوعها والله أعلم •

ـ باب ذكر المواضع التي وقعت فيها « رب » بمعنى التكثير على طريق المجاز

انما تأتي « رب » بمعنى التكثير في معظم أحوالها في المواضع التي يذهب فيها الى الافتخار والمباهاة كقول القائل : « رب عالم لقيت ، ورب يوم سرور شهدت » لان الافتخار لا يكون الا بما كثر من الامور في الغالب من أحواله ، وقد يكون لقاء الرجل الواحد أذهب في الفخر من لقـــاء الجماعة ، ولكن الاول هو الاكثر فمن ذلك قول امرىء القيس :

ألا رب يوم صـــالح لك منهما ولا سيما يوم بدارة جلجل[120]

وقولـه :

فان أمس مكـروبا فيا رب بُهمةٍ كشفت اذا ما اسودّ وجـه جبان

وان أمس مكروبا فيـا رب قنيـةٍ منعمـة أعملتهـا بكـران[121]

(١١٩) جاء في الديوان : وقال في وصف لعبة عند بدر بن عمار •

(١٢٠) هكذا في المخطوطة ، أما رواية الديوان وشرح المعلقات للتبريزي :

الا رب يوم لك منهن صالح • • • • • • •

(١٢١) هكذا في الديوان ، اما في المخطوطة :

وان امس مكروبا فيارب منيةٍ • • • • • • •

ومطلع القصيدة :

لمن طلل ابصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

وقولـه :

وخرقٍ بعيـد قد تطعت نيـاطه على ذات لوثٍ سهوة المشى مُذعان
ومجر كغـلانٍ الانيعم بالـغ ديار العدو ذى زهاء وأركان[١٢٢]

فهذه مواضيع لا يليق بهـا الا التكثير • وكذلك قول أبي كبـير الهذلي[١٢٣] :

أزهير أن يشب القـذال فانـه رُبَّ هيضلٍ لجب لفقت بهيضل[١٢٤]

وكذلك قول أبي عطاء السندي يرثي عمر بن هبيرة الفزاري[١٢٥] :

فان تمسِ مهجور الفنـاء فربما أقام به بعـد الوفود وفود

وهذا النوع من الشعر كثير جدا • والفرق بين هذا الباب والبـاب الاول ، أن الاول حقيقة « رب » ، وهذا البـاب مجاز يعرض لهـا كما يعرض للمدح أن يخرج مخرج الذم ؛ وللتذكير أن يخرج مخرج التأنيث ، وللتأنيث أن يخرج مخرج التذكير كما ذكرنا في الباب الاول • ومن الفرق

---

(١٢٢) هكذا في الديوان ، اما رواية المخطوطة :

وخرق بعيد قد قطعت نياطـه على ذات لوث سمره المشي مذعان
وتجر كغـلاب الا نيعـم بالـغ ديار العدو ذي زهـاء واركان

ومطلع القصيدة :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منـذ ازمـان

(١٢٣) هو ابو كبير الهذلي عامر بن الحليس من شعراء الحماسة • انظر التبريزي ١/٤١ ، خزانة الادب ٣/٤٧٣ ، الشعر والشعراء ٢٥٧ ، سمط اللآلىء ٣٨٧ •

(١٢٤) هكذا في « اللسان » ، اما في المخطوطة : [رب هضل لجب لفقت بهضل] •

(١٢٥) هو افلح بن يسار السندي ابو عطاء ، شاعر فحل ، من مخضرمي الدولتين • انظر فوات الوفيـات ١/٧٣ ، التبـريزي ١/٣٠ ، من الدولتين • انظر فوات الوفيات ١/٧٣ ، التبريزي ١/٣٠ ، الخزانة ٤/١٧٠ • ذكر ابن قتيبة : قيل اسمه مرزوق •

بينهما ان « كم » يصلح استعمالها في هذا الباب مكان « رب » ولا يصلح ذلك في الباب الاول . ولذلك نجد المعنى الواحد في هذا الباب يأتي بلفظ التقليل مرة ، وبلفظ التكثير مرة كقول رجل من فقعس ، أنشد أبو تمام في الحماسة :

وذوى طبـاب مظهرين عـداوة مرضى القلوب معاودي الافناد[١٢٦]
ناسيتهم بغضـاءهم وتركتهـم وهم اذا ذكر الصـديق أعـادى
كيما أعـدهم لابعـد منهـم ولقد يجاء الى ذوي الاحقاد

وقال ربيعة بن مفرغ[١٢٧] في نحو من هذا الشعر أنشده أبو تمام :

وكم من حـامل لي ضبّ ضغن بعيـد قلبـه حلو اللسـان
ولـكني وصلت الحبل منـه مواصلة بحبل أبي بيـان

فغرض الشاعر في هذا الشعر واحد . وقد أخرج أحدهما بلفظ التقليل ، وأخرج الآخر بلفظ التكثير فدلّ ذلك على ان «كم» و «رب» يتعاقبان على الشيء الواحد في هذا الباب . وربما جمعهما الشاعر في شعر واحد كقول عمارة بن عقيل[١٢٨] :

فان تكـن الايام شيبّن مفـرقي وأكثرن أشجاني وبلغن من غرب
فيا رب يوم قد شـربت بمشرب شفيت به غيم الصدى باردٍ عذب
وكم ليلـة قد بتّهـا غير آثم بشاجيـة الحجلين مفعمة القلب

ألا تراه قد أورد تكثير أيامه ولياليه فأخرج بعض ذلك بلفظ «رب» وبعضه بلفظ « كم » ورأى الأمن سواء . فان قال قائل : اذا كانت «رب»

---

(١٢٦) لم ترد الابيات في حماسة ابي تمام الى أي من الفقعسيين .
(١٢٧) الصحيح هو : يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ . انظر الخزانة ٢/٢١٢ ، ارشاد الاريب ٧/٢٩٧ ، والشعر والشعراء ٢١٩ .
(١٢٨) هو عمارة بن عقيل بن جرير المتوفي سنة ٢٣٩هـ . انظر تاريخ بغداد ١٢/٢٨٢ .

في أصل وضعها وحقيقتها للتقليل نقيضة «كم» فما الوجه في استعمالهم اياها في مواضع التكثير التي لا تليق الا بكم ؟

فالجواب : أن ذلك لاغراض يقصدونها : فمنها أن المفتخر يزعم ان الشيء الذي يكثر وجوده منه يقل وجوده من غيره • وذلك أبلغ في الامتداح والفخر من أن يكثر من غيره ككثرته منه فاستعيرت لفظة التقليل في موضع التكثير اشعاراً بهذا المعنى كما استعيرت ألفاظ الذم في موضوع المدح : أخزاه الله ما أفصحه ، ولعنه الله ما أفصحه ، اشعاراً بأن الممدوح قد حصل في مرتبة من يشتم حسدا له على فضله ، لان الفاضل هو الذي يحسد ويوقع في عرضه والناقص لا يلتفت اليه وقد خرج الشاعر بهذا في قوله :

ولا خلوت الدهر من حاسد وانما الفاضل من يحسد

ولذلك قال بعض العرب : السيد من اذا أقبل همنا ، واذا أدبر عبنا • وكذلك استعارة ألفاظ المدح في موضع الذم فكون ذلك أشد على المذموم بلفظ الذم بعينه ، لان في ذلك مع الذم نوعا من الهزء كقولهم للأحمق : يا عاقل ، وللجاهل : يا عالم • وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، فكذلك اذا استعيرت لفظة التقليل مكان التكثير كان أبلغ من لفظ التكثير المحض ، ولو وقع ههنا • وكذلك يستعيرون «كم» في موضع التقليل على وجه الهزء فيقولون : كم بطل قتل زيد ، وكم ضيف قرى ، وهو لم يقتل بطلا قط ولم يقر ضيفا فيكون أبلغ من قولهم : هو جبان وهو جواد • ويدل على ان هذا غرضهم في ذكر «رب» في هذا الموضع أنهم قد خرجوا به في مواضع كثيرة من أشعارهم كقول سالم بن وابصة :

وموقف مثل حد السيف قمت به أحمي الذمار وترميني به الحدق

فما زلقت ولا أبـــديت فاحشـــة   اذا الرجال على أمثالها زلقوا[129]

ألا تراه يفتخر بأن هذا الموقف يكثر منه مع قلة وجوده من غيره .
ومثله قول الآخر :

يا رب ليلة هولٍ قد سريت بهـا   اذا تضجع عنهـــا العـاجز الوكل

وكذلك قول العجاج[130] :

ومهمه هالك من تعـــرجا   هائلة أهوالـــه من أدرجا
اذا رداء ليلة تدجـــدجا   علوت أحشاه اذاما أحنجا[131]

ونظير هـــذا في ان له نسبتين مختلفتين : نسبة كثرة الى المفتخر ، ونسبة قلة الى من يعجز عنه فيأتي تارة على نسبة القلة بلفظ «رب» أنهم اذا سموا رجلا بالحارث والعباس والحسن ونحو ذلك من الصفات فربما أقروا فيها الالف واللام مراعاة لمذهب الصفة التي انتقلت عنهـــا ، وربما حذفوا الالف واللام مراعاة لمذهب العلم الذي صارت اليه ، فتكون نسبتان مختلفتان تأتي احداهما تارة ، والاخرى تارة .

ونظير اجتماع القلة والكثرة في هذا البـــاب لغرض من الاغراض اجتماع اليقين والشك في قولهم : قد علمت أزيد عندك أم عمرو . وهذا كلام ظريف عـــلى ظاهره ، لان الذي يدعي العلم لا يستفهم ، والذي

---

(١٢٩) هكذا في التبريزي ٢/٢٣٦ ، اما في المخطوطة :
فما زلقت ولا أبليت فاحشة   . . . .

(١٣٠) هو عبدالله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي ، راجز مشهور انظر شرح شواهد المغنى ، الشعر والشعراء ص ٢٣٠ .

(١٣١) هكذا في المخطوطة ، اما في الديوان .
عصرا وخضنا عيشة المعذلجا   ومهمة هالـــك من تعرجـــا
هائلـة اهوالـــه من أدلجـــا   اذا رداء الليلـــة تدجدجـــا
ومطلع الارجوزة :
ما هاج احزانا وشجوا قد شجا   من طلـــل كالأتحميّ انهجـــا

يستفهم لا يدعي العلم ، وانما تأويله قد علمت حقيقة ما يستفهم غيره عنه • فهذا وجه من وجوه التقليل في هذه الاشياء • وقد يدخلها معنى التقليل على وجه آخر وهو أن القائل قد يقول : « رب عالم قد لقيت » وهو قد لقي كثيرا من العلماء ولكنه يقلل من لقيه تواضعا ، ويكون أبلغ من التكثير ، لان الانسان اذا حقر نفسه تواضعا ثم افتخر فوجد أعظم مما يقول جل قدره • واذا عظم نفسه وأنزلها فوق منزلتها ثم امتُحن فوجد دون ذلك هان على من كان يعظمه • فهذا وجهه من التقليل الذي يستعمل في هذه المسائل التي معانيها معاني الكثرة • وقد يدخلهـــا التقليل على معنى ثالث وهو قول الرجل لصاحبه « لا تعادني فربما ندمت » وهذا موضع ينبغي أن تكثر فيه الندامة ، وليس بموضع تقليل وانما تأويله أن الندامة على هـذا لو كانت قليلة لوجب أن يتخلف ما يؤدي اليها فكيف وهي كثيرة ، فصار لفظ هذا أبلغ من التصريح بلفظ التكثير • وعلى هذا تأول النحويون قول الله تعالى : « ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين »(١٣٢) على نحو هذا يتأول قول امرىء القيس :

ألا رب يوم صالح لك منهما ... ولا سيما يوم بدارة جلجل

وقول أبي كبير الهذلي :

أزهير ان يشب القذال فانه ... رُبَّ هيضل لجب لففت بهيضل

ان استعارة لفظ التقليل ههنا اشارة الى ان قليل هذا فيه فخر لفاعله فكيف كثيره • وأما قول أبي عطاء السندي في رثاء عمر بن هبيرة الفزاري :

فان تمس مهجور الفناء فربما ... أقام به بعد الوفود وفـــود

فقد يتأول على نحو هذا المعنى • ويحتمل أن يريد أن مدة حيـاته التي كثرت عليه فيها الوفود كانت قليلة • فعلى نحو هذه التأويلات تأول

(١٣٢) سورة الحجر ، الآية ٢

النحويون الـــذين أصلوا أن « رب » للتقليل هذه الاشياء التي ظاهرها التكثير • ومن قال في هذا الموضع انها للتكثير تلقى الكلام على ظاهره ، ولم يدقق الكلام فيها هذا التدقيق ولم يقسمها الى الحقيقة والمجاز كما فعلنا نحن والحمد لله كثيرا لما هو أهله •

المسألة الثالثة والخمسون :

الجواب ـ رضى الله عنك وأرضاك ـ هل نسمي المعز اذا انفردت ولم يخالطها شيء من الضأن غنما حقيقة أو استعارة أو مجازا • وما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي الا وقد رعى الغنم » • هل أراد بذلك الضأن والمعز ، وكذلك ما ورد في القرآن من قوله تعـالى : « وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنــا لحكمهم شاهدين »[١٣٣] •

وقوله تعالى : « أهش بها على غنمي »[١٣٤] • هل أراد الضأن والمعز والله يعظم لك في شرح الجواب أجرا ويجزل لك به ذخر الجنة •

الجواب : من اللغويين من لا يسمي المعز غنما حتى يختلط به ضأن ، كما لا يسمي غير الابل نعما حتى يختلط به ابل • ولأجل هذا قال ابن قتيبة في « أدب الكاتب » : يقال للضأن الكثيرة « ثَلَّة » ، وللمعزى الكثيرة « حَيلة » ، واذا اجتمعت الضأن والمعز وكثرتا قيل لهما : ثلاثلة • وقال الخليل في كتاب « العين » المعز ذوات الشعر من الغنم فجعل المعز كما ترى نوعا من الغنم • وذكر من تكلم في الامثال أن العرب تقول في أمثالها : « لا افعل في ذلك معزى الفزر حتى تجتمع معزى الفزر » وقال يعقوب وغيره : ان الفزر هو زيد بن سعد مناة بن تميم ، بل هو سعد بن زيد مناة بن تميم ولقب الفزر لانه كانت له معزى فقـــال له هبيرة : يا بني

---

(١٣٣) سورة الانبياء ، الآية ٧٨
(١٣٤) سورة طه ، الآية ١٨

اسرح بمعزاك فارعها ، فقال : والله لا أرعاها من حسل ، فقال لابنه صعصعة : اسرح بغنمك ، فقال : والله لا اسرحها العرة للفتى هبيرة ، فغضب سعد وسكت على ما في نفسه حتى اذا أصبح غدا بالمعز الى سوق عكاظ والناس مجتمعون فقال : الا ان هذه معزى فلا يحل لرجل أن يدع أن يأخذ منها شاة ، ولا يحل لرجل أن يجمع منها شاتين فأفهمها الناس . وذكر أبو عبيدة عن ابن الكلبي أنه قال : من أخذ منها واحدة فهي له ، ولا يؤخذ منها فزر وهو اثنان ، فضرب بها المثل فقال رجل من بني سعد :

قد انقلب المعزي فبرت يمينه وما ضر سعدا ما له المتنهب

وأنشد يعقوب لشبيب بن البرماء :

ومرة ليسوا نافعيك ولن تدع لهم مجمعا حتى ترى غنم الفزر (١٣٥)

فسماها أحد الشاعرين معزا ، وسماها الثاني غنما . وذكر يعقوب في مساق كلامه : أنه قال لابنه هبيرة : اسرح بمعزاك ، وانه قال لابنه صعصعة : اسرح بغنمك غنما ، ومرة معزا . وقال في مساق الحكاية : ولا يحل لرجل أن يأخذ منها شاة ، ولا يصح أن يجمع منها شاتين . فسماها شاة كما ترى . والمشهور من أمر الشاة . انها الغنم . وقد قال الخليل في كتاب « العين » الوعل من شاء الجبل ، فأوقع اسم الشاء على الاوعال . وقدسموا الطبية شاة وعنزا . قال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلّتْ لـه حَرُمتْ عليّ وليتها لم تحرم (١٣٦)

وقال امرؤ القيس :

---

(١٣٥) هكذا في المخطوطة ، اما في الاشتقاق لابن دريد

ومرّةُ ليسوا ناصريك ولا ترى لهم وافدا حتى ترى غنم الفِزْرِ

(١٣٦) هكذا في التبريزي في شرح المعلقات ، اما رواية المخطوطة :

فالشـاة فاقنص لمن حلت لـه . . . .

كأنهـــا عنز بطـــن وادٍ تعـدو وقد افـرد الغزال[١٣٧]

وقد كثر اتساعهم في هذا حتى سموا حمير الوحش والبقر الوحشية شاء . قال زهير :

يا شاة ما قنص لمن حلّتْ لــه حَرُمتْ عليّ وليتها لم تَحرُمِ

فالشياه ههنا اناث الحمير الوحشية يدل على ذلك قوله :

ثلاث كأقواس الســراء ومسحل قد اخضر من لس الغمير جحافله[١٣٨]

لان المسحل الذكر من حمر الوحش ، ويدل عليـه أيضا ذكره الجحاش وانما هي أولاد الحمير .

(١٣٧) من قصيدة مطلعهـا :

عينــاك دمعهمـا ســجال كأن اشـانيهما أوشـال

(١٣٨) هكذا في المخطوطة ، أما رواية الديوان

فقال شـياه راتعات بقفرة بمستأسد القريان حو مسائله

في اللهجات المغربية والاندلسية

اذا كان القدامى من المشارقة[1] قد فطنوا الى اللحن وشيوعه بين العامة وأفردوا له رسائل تسجله وتؤرخه ، فان أصحابهم في الطرف الغربي من العالم الاسلامي القديم قد عنوا عنـــايتهم فلاحظوا وسجلوا وأرخوا وخلفوا كتبا ورسائل[2] .

وكان قد نشر المستشرق J. Colin رسالة لغوية في لحن عامة أهل الاندلس وهي نسخة موجزة لكتاب « ايراد اللآل من انشاد الضوال » لابن خاتمة الانصاري في مجلة Hesperis ١٢ سنة ١٩٣١ وقدم لهذه الرسالة بمقدمة اشتملت على جملة فوائد في موضوع لحن عامة الاندلس والديار المغربية . ثم نشر الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب كتاب « الجمانة في ازالة الرطانة »[3] وهو في لغة التخاطب في الاندلس وتونس وهو لبعض علماء القرن التاسع الهجري وزوده بجملة فوائد من تعليقاته واجتهاداته .

وقد أفدت من ملاحظات المستشرق الفرنسى Colin الذي نوهنا

---

(١) انظر قائمة المصادر في هذا الموضوع لـ H. Thorbecke في مقدمة « درة الغواص » للحريري ليبزك ١٨٧١ ص ٧ ــ ١٢ .
وانظر « خطأ العامة » لكولد زيهر في
Zur Literaturgeschichte des Z. D. M. G. T. 35 1881 pp.147-152 .
وفي فهرس المخطوطات الملكية برلين اثبت W. Ahlwardt قائمة بالمؤلفـات المهمة في هذا الباب .

(٢) سنذيل هذا البحث بقائمة نذكر فيها كتب لحن العامة .

(٣) الجمانة في ازالة الرطانة من منشورات المعهد العلمي للآثار الشرقية في القاهرة سنة ١٩٥٣ .

بذكره في أعلاه ومن ملاحظات العلامة التونسي الجليل ثم أضفت الى دلك كله ما توصلت اليه من تحقيقاتي في هذا الباب • والذي نعرفه من كتب لحن العامة في المغرب والاندلس قليل على كثرة التصانيف التي ذكرها أصحاب الطبقات في هذا الباب ولكن أغلبها لم يصل الينا •

ومن هذه الكتب ما وصل الينا • وه نحن ذاكرون من ذلك ما هو معروف :

١ ـ لحن العامة لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي[٤] المتوفى سنة ٣٧٩هـ •

٢ ـ الرد على الزبيدي في لحن العوام لمحمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي[٥] •

٣ ـ المدخل في تقويم اللسان لعلي بن محمد الغافقي المعروف بابن الشاري وقد ساعده في هذا العمل محمد بن حسن بن عطية • وهذان كانا قد عمدا الى الملاحظات التي رد بها ابن هشام اللخمي على الزبيدي ورتباها

(٤) ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي واللغوى وهو من اشبيلية وسكن قرطبة ، وكان من شيوخه ابو علي القالي • وهو من اوائل من بحثوا في لغات الاندلس • وقد طبع كتابه « لحن العوام » بتحقيق الدكتور رمضان التواب [القاهرة ١٩٦٤] • وقد شرشه موسى بن علي الجزيري (انظر التكملة لابن لابار (٩٢٠) نشرة كوديرا • انظر مقدمة المحقق • ولهذا الكتاب نسخة موجزة من صنعة المؤلف نيسه ، ذكره ابن خير في فهرستها ٣٤٧ باسم « مختصر لحن العامة العامة » •

(٥) عرض ابن هشام في كتابه لارهام الزبيدي ولاوهام ابن مكي صاحب « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » ولهذا الكتاب نسخة مخطوطة في خزانة الاسكوريال برقم ٤٦ • انظر ترجمته « التكملة » لابن الأبار ١/ ٣٧٠ ، وقد نقل النسيوطي في « البغية » ص ١٦ ما ذكره ابن الأبار من ترجمة اللخمي هذا واضاف ذاكرا (المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان) وقد ذكر هذا التجيبي في رحلته •

وأعطياها اسم « المدخل في تقديم اللسان »[٦] وكلاهما من علماء القرن السابع الهجري •

٤ ـ انشاد الضوآل وارشاد السوآل لمحمد بن هاني اللخمي السبتي المتوفى في جبل طارق سنة ٧٣٣هـ وهو غير محمد بن هانيء الشاعر ، وقد عمد هذا الى الكتاب السابق وهو « المدخل » وأعاد تصنيفه وترتيبه وزاد عليه •

٥ ـ ايراد اللآل من انشاد الضوآل لابي جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الانصاري المتوفى سنة ٧٧٠هـ ويعد هذا الكتاب استدراكاً على الكتاب السابق ، ثم عمد بعد ذلك أحد العلماء فاختصر هذا الكتاب في رسالة صغيرة ، وقد طبعت في مجلة Hesperis كما أشرنا الى ذلك بعناية المستشرق الفرنسي J. Colin •

٦ ـ الفوائد العامة في لحن العامة لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزَيّ الكلبي المتوفى سنة ٧٤١هـ وقد أخذ عنه لسان الدين بن الخطيب (انظر نفح الطيب ط بولاق ٣/٢٧٢) •

٧ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي[٧] الحميري المازري الصَقَلّي المتوفى سنة ٥٠٠هـ • وقد حقق

---

(٦) وهذا الكتاب من مخطوطات الاسكوريال رقم ٩٩ وهو صورة اخرى للمخطوط رقم ٤٦ كما اشار الى ذلك « درنبورغ » مصنف فهرست مخطوطات الاسكوريال • ومن الغريب ان ابن الأبار لم يذكر شيئاً عن هاتين النسختين مع انه كتب كتابه بعد بن هشام باقل من قرن واحد •

(٧) وهو من بلرم حاضرة صقلية وقد انتقل منها الى افريقيا بعد استيلاء النورمان عليها وتولى قضاء مدينة تونس وبها توفي سنة ٥٠١ هـ ، وكتابه في لغة صقلية ولحن العامة بها يوم كانت عامرة بالمسلمين وهذا الكتاب من اهم الكتب في هذا الموضوع من الناحية التاريخية وذلك لانه عرض للغلط الذي يدور على السنة الناس في عصره ، فلم يكن ناقلا ما ذكره القدامى ممن الف في هذا الموضوع على نحو ما فعل ابن الجوزي من المشارقة في « تقويم اللسان » مثلا •

الدكتور عبدالعزيز مطر هذا الكتاب (القاهرة ١٩٦٦) • وكن المستشرق الايطالى المعاصر (اومبرتو ريتسانو) قد نشر مقدمة هذا الكتاب في مجلة مركز الدراسات الشرقية للآباء الفرنسسكان بالقاهرة في العدد الخامس (١٩٥٦) وقد عرض الناشر لموضوع لحن العامة وما صنف فيه من تصانيف في مختلف أمصار العالم الاسلامي القديم كما ترجم لابن مكي ثم نشر مقدمة الكتاب •

٨ ـ كتاب الرد على تثقيف اللسان لابراهيم بن اسحاق الأجدابي صاحب كتاب « كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ » وذكر التجاني التونسي في رحلته ص١٨٠ هذا الكتاب •

٩ ـ لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام لأبي علي بن محمد بن خليل السكوني الاشبيلى المهاجر الى تونس والمتوفى بها سنة ٧١٧هـ وقد عرض فيه لاغلاط العامة في أيمانهم وبدعهم وعاداتهم وهو من مخطوطات المكتبة العبدلية الزيتونية بتونس رقم ٢٢٢٩ •

١٠ ـ الجمانة في إزالة الرطانة لمؤلف مجهول وقد حققه العلامه حسن حسني عبدالوهاب كما سبق أن نوهنا به •

١١ ـ مقدمة تقويم المنطق الحضري ، بكف اللسان المضري لسيدي محمد النيفر من شيوخ جامع الزيتونة (تونس ١٣١٢هـ ١٨٩٤م) وقد عرض فيه للغة التخاطب في تونس وما يحدث فيها من مجانبة للفصيح كما حاول ارجاعها للعربية الفصيحة •

١٢ ـ الواسطة في أخبار مالطة لأحمد فارس الشدياق أورد فيه فصلا عن لهجة جزيرة مالطة العربية •

وفي اللغات الاوربية تصانيف كثيرة عن اللهجات العربية في الشمالى الإفريقي ومنها : « دراسات المستشرق الفرنسي وليم مارسيه عن لهجة

طنجة » و « لهجة تلمسان » و « لهجة أولاد ابراهيم ، واللهجة التونسية »
في كتابيه :

1. Textes Arabes de Takrouna.
2. Textes Arabes d'Al-Hamma .

وهذه المصنفات جميعها تقوم على احصاء ما خالف فيه العامة الخاصة من وجوه القول كأن بفتح الخاصة عين الفعل والعامة تضمه أو العكس أو ما جرى هذا المجرى •

من تاريخ العربية في تونس وديار المغرب

ويجمل بنا هنا أن نفيد مما ذكره المؤرخ الشـــهير عبدالرحمن بن خلدون في « تاريخه »[٨] : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم المستعربين فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليــه سلفهم المستعربون ، ويأتون منــه بالمطولات مشتملة عـلى مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد (بالأصمعيات) نسبة الى الأصمعي راوية العرب في أشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر (بالبدوي) • الى أن قال : « وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في أواخر الكلم ، فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب » •

وقال أيضا : « ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث

(٨) المقدمة ، فصل في اشعار العرب واهل امصار لهذا العهد ص ٥٧٧•

كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف ، فانهم (أي الأعراب) لاينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربيه ، بل يجيئون بها متوسطة بين الكف والقاف ، وهو موجود للجيل أجمع ، حيث كانوا من غرب أو من شرق حتى صار ذلك علامة عليهم بين الامم والأجيال ومختصا بهم لا يشاركون فيه غيرهم ، حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها ، وعندهم انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ، ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها ، فان هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤسهم شرقا وغربا من ولد منصور بن عكرمة ••• ابن سليم ابن منصور (بني هلال) ••• وهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم ، وهم من أعقاب مضر ، وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف أسوة ، وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين ، ولعلها لغة النبي (ص) بعينها ، وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت ، وزعموا أن من قرأ في أم القرآن : « اهدنا السراط المستقيم) بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم ، وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح ، وأهل هذا الجيل (أي الاعراب) لم يستحدثوها أيضا الا أنهم أبعد من مخاطبة الاعاجم من أهل الامصار ، فهذا يرجع فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم ، هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها ، وانها الخاصية التي ينميز بها العربي من الهجين الحضري ، فتفهم ذلك والله الهادي المبين »[٩] •

(٩) مقدمة ابن خلدون (فصل في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة)

ان نطق القاف على هذا النحو مما أتى به الاعراب وأدخلوه في لغة تونس وما جاورها من الاقاليم • ومن المفيد أن نشير الى أن هذه القاف قد تتحول الى صوت حلقي هو الهمزة وهذا أمر واضح في بعض الحواضر الافريقية العربية وليس شيء من ذلك في القرى والبوادي • كما في مدن المغرب الاقصى وتلمسان في الجزائر ومثل هذا قد حصل في لغة غرناطة وجزيرة مالطة ، وهذا نظير ما نجده في طائفة من الحواضر المصرية • ومن البديهي أن يعرض الابدال للاصوات العربية الاخرى فليست « الجيم » بأسعد حظا من القاف وهي من غير شك في عصر ابن خلدون كانت اما كالقاف المعقودة أو كالجيم المعطشة أو انها مشوبة بما يشبه الشين • ولا بد أن يكون التونسيون في عصرنا قد ورثوا في نطقهم عادة أسلافهم ، ومما هو واضح في هذا النطق ابدالهم الزاي بالجيم فيقولون مثلا في « عجوز » « عزوز » وفي « الجزّار » «ززّار » وفي « جاز » « زاز »[١٠] ولا يعرض هذا الابدال الا حين مجتمع الجيم والزاء في الكلمة الواحدة •

ملاحظات عن اللهجة التونسية

يبدأ الفعل المضارع بالنون للمتكلم المفرد فيقولون : ناكل بمعنى آكل ونضرب بمعنى أضرب ، فاذا أرادوا جماعة المتكلمين زادوا الواو في

(١٠) ومثل هذا يعرض في طائفة من العراقيين في عصرنا فهم يقولون «يزي» وهي « يجزي »

الآخر فيقولون : ناكلوا ونضربوا[11] .

والماضي الواقع في حيز الاستفهام فقد التزموا في آخره شيناً مكسورة سواء أكان الفعل ثلاثيا أم رباعيا أم خماسيا ... متعديا كان أم قاصرا دون ذكر لاداة الاستفهام نحو : أكرمتش وعلمتش ...

كما زيدت الشين مع غير الماضي الواقع في حيز الاستفهام ، ففي المضارع المبدوء بالتاء أو النون أو الياء تزاد الشين فيقولون : تضربوش ونكرموش ويقتلوش . أما المبدوء بالهمزة فلم يلحقوا به الشين الا نادرا .

وزادوا باطراد قبل الشين المذكورة في الماضي والمضارع الواقعين في حيز الاستفهام أو النفي واوا ولعل ذلك من اشباع الضم .

وقد يشبع الضم في أنتم وهم فيصيران انتوم وهوم ، وكذا الكسر في أنتن فتصبح وهم يخاطبون المؤنثة الواحدة بخطاب المذكر الواحد فيقولون:

---

(11) اورد صاحب الجمانة هذه المسألة ص 31 ومعنى هذا ان المسألة قديمة في لغة التخاطب في التخاطب في الديار المغربية ، قال الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب : « ... ويظهر ان هذا اللحن قديم في لغة التخاطب عند المغاربة وربما يرجع الى القرن الرابع للهجرة ، وقد كان هذا الاستعمال شائعا في لغة اهل الاندلس وصقلية وفي سائر جزائر البحر المتوسط الغربي ، مثل مالطة وقوصرة وغيرهما وذلك قبل زحفة اعراب بني هلال وبني سليم الى المغرب على ان هذه القبائل الهلالية نفسها كانت عند نزوحها الى المغرب ـ أواسط القرن الخامس للهجرة ـ تستعمل هذا الخطأ لا محالة كما أفادنا ابن خلدون فيما نقله من اشعار الهلاليين في تاريخه (راجع التعاليق الممتعة التي اوردها الاستاذ وليم مارسيه في كتابه : « النصوص العربية العربية لتكرونة » ص 24

قم واخرج والمراد قومي واخرجي[١٢] .

ومن ذلك زيادتهم الياء في الثلاثي المضعف اذا اسند للضمير البارز المتحرك فيقولون في رَدَّ وحلَّ وظنَّ اذا أسندوها الى ذلك ، رديت وردينا ، وحليت وحلينا ونحوه ، فيحيلون المعنى ، ألا ترى أن « رديت » يصير بصورة رَدَّى الرباعي الذي معناه « أسقط » المسند الى التاء ، ولا معنى لزيادة هذه الياء لان هذهِ أفعال ثلاثية والصواب أنه اذا أوتي بالضمير البارز المتحرك سكنت آخر الفعل لاتصال الضمير على قياس غير المضاعف، ثم تفك الادغام لسكون المدغم فيه وهو آخر الفعل فتحرك الحرف المدغم بحركته الاصلية فتقول على هذا : رددت في « ردَّ » وحللت وظننت بفتح العين ، وتقول : مَلِلتُ في ملَّ بكسر اللام الاولى وهي العين لانحركتها أصلية ، وشممت في شمَّ ـ بكسر اللام ـ على اللغة الفصحى ، وبفتحه على الاخرى وهذا ما تبيناه من فك الثلاثي المضعف اذا اتصل به ضمير مرفوع متحرك وهو الفاشي والمشهور من لغة العرب ، وبعض العرب يبقي الادغام ويحرك الاخر لالتقاء الساكنين فيقول على هذه اللغة : رَدَّت وَرَدَت[١٣] .

ومن ذلك قولهم « نواية » لواحدة النوى ، يزيدون ألفا بين الواو

---

(١٢) جاء في « الجمانة » ص ٣٣ [ومن ذلك حذفهم الياء امر المؤنثة المخاطبة فيقولون للمؤنث « قم » والصواب « قومي » بالياء . علق الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب على هذا بقوله : اقول : هذا لحن جاء في لغة التخاطب لاهل الحضر بالبلاد بالتونسية ، اما في كلام الاعراب منهم فان ياء الامر للمخاطبة مستعملة باستمرار فيقولون (قومي) و (اخرجي) و (اشربي) ...

(١٣) انظر الجمانة ص ٢٩ . اقول وهذا اللحن قديم في العربية ، جاءفي « الاقتضاب » لابن السيد البطليوسي ص ١٣٧ . « ويقال انه جاء على لغة من يبدل احد الحرفين المثلين ياء نحو قولهم : قصيت اظافري اي قصصتها . والعرب تبدل الياء من احد التضعيفين فيقولون « تظننت » لانه لحن الظن (الكامل للمبرد ٢/٧٦٠) .

والياء ، والصواب حذفها فتنقلب الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وتفتح النون فيقال (نواة) ، وكما لحنوا في المفرد لحنوا أيضا في جمعه بالالف والتاء فقالوا (نوايات) فزادوا ألفا بين الواو والتاء ، والصواب اسقاطها فتقول (نويات) كما تقول حصيات في جمع حصاة لا حصايات[١٤] .

ومن ذلك زيادتهم ياء في تصغير الثلاثي المذكر ، فيقولون في تصغير جَمَل (جُمَيّل) وفي كلب (كليّب) فيزيدون ياء أخرى غير ياء التصغير ويدغمون ياء التصغير فيها وهو خطأ ، والصواب (جُمَيل) و (كُليب) بياء التصغير وحدها من غير زيادة ياء أخرى ، لان حق كل ما كان ثلاثيا أن يصغر على فُعَيل نحو : فُلَيس وفُرَيس[٣] .

---

(١٤) انظر الجمانة ص ٢٨ • اقول ان الذي اثبته صاحب الجمانة على أنه من لحن عامة الاندلس والديار الافريقية يتفق هو ولحن العامة في ديار المشرق ويبدو أيضا أن كثيرا من مادة كتب لحن العامة منقول عما كتبه قدامى اللغويين كما فعل صاحب الجمانة في اعتماده على ما كتبه ابن قتيبة الدينوري في «أدب الكاتب » ، ومثل صاحب الجمانة غير واحد ممن عرض لموضوع لحن العامة من الاندلسيين والمغاربة •

(٣) قال العلامة حسن حسني عبدالوهاب في أسفل صفحة ٢٨ من الجمانة أن تصغير الاسماء من وزن «فعل» على «فعيل» ومن وزن فعلال وفعليل وفعلو لعلى صيغة (فعيعل) لم يكن خاصا باللهجة التونسية بل هو موجود في سائر اللهجات الحضرية لاهل المغرب قديما وحديثا ، فان أهل الاندلس ـ الى آخر عهدهم باسبانيا ـ وكذلك اهل صقلية الى أواسط القرن السادس للهجرة كانوا يستعملون تلك الصيغ كما يستفاد من النصوص الكتابية والوثائق الواصلة الينا من ذلك العصر راجع «ديوان ابن قزمان» طبعة بطر سبورغ المصور بعناية Gunzlrung سنة ١٨٩٦ فيما يخص لغة أهل الاندلس ـ وكتاب «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لعمر بن خلف بن مكي الصقلي ••

تتحول كسرة ما قبل آخر اسم الفاعل الثلاثي الى فتحة نحو : ناصَر وصالَح وباطَل • ولعل سبب هذا التحول أن أصوات التفخيم وأصوات الحلق أميل الى الفتح منه الى الكسر • ومن ذلك شيوع الإمالة في الاسم المختوم بألف مقصورة نحو عيسى وموسى •

ومن ذلك أيضا شيوع المد فهم يقولون « علام » ويريدون بها «عَلَم» وكذلك كان الاندلسيون ، وهم يقولون « سّلوم » ويريدون بها «سُلَّم» ولذا جمعوها على « سلاليم » ، ومن ذلك «عساكير» جمع «عسكر» •

وعلى أنهم ميالون الى المد نراهم ميالين في الوقت نفسه الى القصر في ألفاظ عديدة نحو : « مزامر » جمع «مِزمَر» و «مفاتح» جمع « مفتاح » و «مسامر» جمع «مسمار» و «ثلاثة» للثلاثاء من أيام الاسبوع ، و «واد» للوادي وهم يجمعونه على « ويدان »(١٦) •

ومن ذلك ما يحدث من الابدال في الحروف نحو «سار» يتحول الى «صار» و «سور» يتحول الى «صور» و «سطل» يتحول الى «صطل» •

ومن ذلك تسهل الهمزة الى الواو نحو : واخى «آخى» والاصل «ودّى» والاصل «أدّى» ومن ذلك عدم استعمالهم لكلمة « سنة » الا بصيغة الجمع « سنين » أما في حالة الافراد فالمستعمل هو « عام » وقد أنثوها في استعمالهم حملاً على «سنة» مفرد «سنين» التي هجروها في الاستعمال •

(١٥) أفدت هذه الملاحظات مما نشره كل من ليفي بروفنسال وكولان المستشرقين الفرنسيين في مجلة Hesperis الفرنسية للدراسات المغربية والافريقية في الجزء العاشر •

(١٦) على ان هذا الميل للقصر في هذه الالفاظ وغيرها غير مقصور على لغة العامة في المغرب في عصر الموحدين بل هو شائع في جميع أقطار المغرب الاسلامي وما زال شيء كثير من ذلك في اللغات الدارجة لهذه فما زال التونسيون يجمعون (شباك) على (شبابك) و « ساعة » « سوايع » ومثل هذا كثيرا •

وكلمه « مسجد »[١٧] وهي مذكر ولكنها تحولت الى مؤنث في لغة البربر الذين أخذوها كما أخذوا الكثير من الالفاظ العربية ، وحولوها الى « تيمسجد » وهذا التحول راجع الى ان مكان العبادة في اللغة البربرية مؤنث فلما أسلموا واستعملوا اللفظ العربي جعلوه مؤنثا ، ومثل ذلك كلمة « جامع » .

وفي مدينة طنجة تقابل العامية « موطعة » كلمة « موضع » الفصيحة .

ويلاحظ في جميع اللغات المغربية الدارجة اهمال المثنى اهمالا تاما وهذا قديم كما يدلنا على ذلك النصوص التي نشرها « ليفي بروفنسال » .

يقولون : قتلهم الاثنين[١٨] .

ويقولون : روج كتب[١٩] .

ومن الشايع في هذه العامية الجمع بالياء والنون لتعيين صنف أرباب الحرف كأن يقال : « الصباغين » أي المحلة التي يقطنها أرباب هذه الحرفة.

ويبدأ الفعل المضارع المسند للمتكلم المفرد بالنون نحو : « نسير » في قولنا « أسير » و « نصل » في قولنا « أصل » .

أما المضارع المسند لجماعة المتكلمين فيبدأ بالنون ويختم بالواو نحو « نسيروا » أي « نسير » و « ناكلوا » أي « نأكل » .

ويحذف نون المضارع المسند الى جماعة الغائبين نحو : « ياخذوا »

---

(١٧) ويقال له «مصيد» حكاه غير واحد والاول أفصح ، ويبدو ان (مسيد) لم يكن معروفا لدى الاندلسيين ،والصيغة الوحيدة لمسجد هي مزد Mazad ، غير ان اللهجات المغربية الحديثة مازال فيها (مسيد) Msid والجمع «مسايد» Msaid ومعناه المدرسة القرآنية الملحقة بالمسجد الجامع . ومثل ذلك كلمة (جامع) فهي تشتمل على المعنيين .

(١٨) أقول: انمسالة اهمال المثنى اذا كان مكنى عنه بضمير، واقع في اللهجات المشرقية منذ عدة قرون فلا يقال في ديار المشرق: (قتلهما) بل يقال : (قتلهم)

(١٩) استعمال «الزوج» للاثنين مما شائع في اللغات المغربية الدارجة وقد يعرض الابدال في كلمة «زوج» فتصبح (زوز) .

أي « يأخذون »[٢٠] .

بقايا العربية في جزيرة مالطا

لم يبق من العربية في جزيرة مالطة الا بقايا لا يمكن أن تفي بحاجة المالطيين ولذلك تستخدم المالطية للامور والاحوال الساقطة[٢١] ، أما اذا أرادوا شيئا آخر أقرب الى الجد كالوصف والوعظ وغير ذلك لجأوا الى اللغة الايطالية .

فاذا كان المنادى عظيما فان اداة النداء ايطالية نحو : « أو مولاي » ، واذا كان المنادى شيئا غير عظيم فأداة النداء عربية نحو : يا تفاح .

يبـدأ الفعل المضـارع المسند للمتكلم بالنون نحو : « ناخُذ » أي « آخذ » أما المسند لضمير المتكلمين فانه يذيل بالواو نحو « ناخدوا » أي نأخذ .

وياء المضـارع وتاؤه يكونان مكسورتين وآخره مضموم نحو : يحسبُك . ويبدل بالخاء في هذه اللغة الحاء نحو : « بتيح » في « بطيخ » و « حوح » في « خوخ » و « حُبس » في « خبز » و « حلحال » في « خلخال » .

ومن المفيد أن نذيل هذا الباب بنماذج من الزجل نستخلص منهـا فوائد لغوية . قال مدغليس أحد الزجالين الاندلسيين في مطلع أحد أزجاله:

[الله] يعلم ما بقلبي وبيّـه لقد اتحكّم هذا العشق فيّه

وأصل الكلمة « تحكّم » فزيدت إلفاً على نحو ما يزيد العامة في هذه الصيغة ، وما زال العامة في كثير من البلاد يستعملون هذه الزيادة .

ومثل هذه الزيادة قوله في قصيدته اللامية :

---

(٢٠) هذا الاستعمال شائع في لغات اهل المشرق الدارجة ، ويبدو انه قديم .

(٢١) انظر الواسطة في معرفة احوال مالطة لاحمد فارس الشدياق ص ٥٦ (الجوائب ١٢٩٩هـ) .

لقد أخذلني جمال هذا المليح   ولكن معذور أنا هو ينخذل

والأصل « خذلني » فزادها ألفاً ، ومثل ذلك قوله في قصيدة اخرى :

لو رأيت كفْ كُن ّ نَشياّعو بالعين   وما ندري أن روحي نشيع

والأصل « نشيّعه » فزادها ألفاً . وكقوله في بيت من زجل مطلعه :

ثَلث أشـيا في البساتين   لَسْ تُجَد في كل مَوضعْ
النسيم والخضرَه والطَيرْ   شُـمّ واِتنزّه واِسْمَعْ
وميلاح بحال حور العين   في رياض تشبه الجنّه
وعسـيوة قصـيرة   تنظروا الخـلاّع تجنّا
لَسْ نطيـق نفارقوها   وهي تحمل طـاق عنّـا
فـكأن الشمس فيهـا   وجْـهُ عاشق إذ يودّع

فالواو في لفظة « نفارقوها » زائد في الأصل ، وأمثال ذلك في نظمهم كثير جـدا . وقد ينقصون حرفا من أصـل الكلمة كقول ابن قزمان في مطلع زجل له وهو :

يا من قتلني غيـابو   مَتْ نستريح من عذابو

وأصـل الكلمة « متى » فحذف الالف منها ، وكقولـه في مطلع قصيدته الكافية :

انما حقاً ندري من أين مجيئك   شمتو فيك انفاس الذي شيعوك

وأصل الكلمة « شممت » ، وقوله أيضا في مطلع زجل له وهو :

حملني عشق الملاح فوق استطاعي   وما قصر عمري فيه يمتّدُ باعي

وأصل الكلمة « استطاعتي » .

وقد يزيدون همزة في كلمة لا وجه لزيادتها كما ينقصون أخرى ، فمن زيادتها قول ابن قزمان في زجل مطلعه :

نَظَرْ بطرف عَينو وعَبَّسْ   للجيط نقلهـا ونشكو ونحبسْ

في جملة الكلام الذي قال :

أين الصدود وقد طال ما طال   أتخيلاتْ بعد صورة الحال

فرج لعمري كربه وآنس

وأصل الكلمة « تخيّل » بغير همزة ، وكقول مدغليس في مطلع زجل وهو :

منْ أشوت أكبادي   وأبكت اجفاني

الله لا ينساها   مقدار ما تنسالى

وأصل الكلمة « شوت » بغير همزة ومثل هذا كثير .

أما انقاص الهمزة فكقول مدغليس في مطلع زجل وهو :

لَسْ نتب عن ذي الشريبة   لو نهبت السبت والحد

قد أعبرت آذاني للوم   ودفعتو جلدي للحد

يريد « السبت والأحد » فحذف الهمزة ، وكقوله في قصيدته الكافية المسطورة :

انما حقاً ندري من أين مجيبك   شمتو فيك أنفاس الذي شيعوك

وأصل الكلمة « مجيئك » بالهمز ومن جميل الأزجال الذي وقع فيه انقاص الهمزة كما وقع استعمال المواد العامية بشكل واضح قول أبي عبدالله محمد بن حسون الحلا المغربي في زجل له مطلعه :

كم بتْ مُنكَّدْ   من هواك وهجرانكْ   يا مليح القَد

يا مليح بمن سمّاك أش هذا التجنّي

طول ما نشتهي قربك تبعد انت عنّي

إن كان الرقيب بلّغ ليك قضية عني

لس أنا في ذا الحد   عوذ باللـ[ـه] يا حبي   الأخير هو أجود

فقد أسقط الهمزة في موضعين في قوله « ليك » بمعنى « اليك » وفي « عوذ » وأصلها « أعوذ » ، ومما يعرض لهم زيادة المد في الكلمة والقصر في كلمة أخرى ، فمن الزيادة قول ابن قزمان في زجل له مطلعه :

مُرّ لي عن ذا الشراب   ووجدتو . أنا حلو

تتركوا قوم وآنا لا

انما مذهبي الطلا

فمدّ الألف في قوله « آنا » وهو نهج عامي وربما كان شيئا اقتضاه الوزن • ومن قصر المد الذي يعرض في كلامهم قول ابن قزمان في مطلع زجل له :

دع ذي الأخبار وخليّها سـقه   زالت الشحا وجات الصداقة

فكقوله « الشحنا » و « جات » من هذا الموضوع :

ومما يعرض لهم من هذه الانوان العامية تشديد المخفف وتخفيف المشدد ، فالاول مثل تشديد حروف الجر في مثل « منه » و « عنه » كقول ابن قزمان في مطلع زجل له وهو :

ذا الصدود نمت منّو   قد رحلت من أجلو

قل يا قلبي . وَش همّكْ   تشكو جوروا أو عدلو

وكقول مدغليس في مطلع قصيدة :

أنا تايب من هوا يا مسلمين   اللـ[ـه] يجعل قلبي في يدّ أمين

والأصل في « اليد » عدم التشديد •

أما تخفيف المشدد فهو كثير في أزجالهم ومن ذلك قول ابن قزمان :

أي حسرات في قلب من يهواك   إن مضى أو بقى

كان تصـــدق لو انك آت تلقى   عُشـــر ما قـــد مضـــى

أنا في حـيرة مَـرَّةً نرجوك   ومَـــــــرَه نتقـــــــي

ونرى كلّما نؤمّلْ فيـــك   إن صـــدق أو يخيـــب

فقوله « مره » الاخيرة بغير تشديد وهو مما يقتضيه اقامة الوزن • ومن ذلك تحريك الساكن وتسكين المتحرك ، ولعل هذا يحدث في فصيح العربية وذلك مما تقتضيه الضرورة الشعرية •

وقد يشبعون الحركة حتى يتولد المد ، ومن ذلك اشباع الضمة حتى تصير واواً كقول مدغليس :

توقد أنفاسـك الذكيـة شماع   في قلُبنـــا متى نستنشقوك

فالواو في « نستنشقوك » من اشباع ضمة القاف • ومن ذلك قول ابن قزمان :

يعشاقوا قلبي وهو ما يعشـق   وماعي فيـــه الحسود اش يقلقْ

فالألف في « يعشاقو » من أشباع فتحة الشين ، وكذلك « ماعي » فالألف فيها من الفتحة • ومن أشباع الكسرة حتى تتولد الياء قول ابن قزمان:

قالوا عني بأني عاشـــق تَقُلْ يصـــدقوا

يا حبيبي لْقيت كثير في الناس بالحكم ينطقوا

هذا شي والنبيْ يا نور عيني ما تحدثت فيه

ولَ باللّه خطر على بالي لا ولا خضت فيه

انما في الطريق وَنَا نمشي كلّ من نلتقيــه

يـــدْنُ لي بالســـلام ويسألني عنـــدما نلتقو

ويقول لي فلان بحق الله من صحيح تعشقو

والشاهد المطلوب في كلمة « بيه » فان الياء نشأت من اشباع الكسرة

في الباء • وكما حصل الاشباع في الحركة حصل عكسه فقد قصرت الواو في « قلُبنا » والأصل « قلوبنا » كما في قول مدغليس :

توقد أنفاسك الزكية شماع . في قلبنا متى ما نستنشقوك

وقد يعرض في كلامهم جزم الأفعال وليس من جازم لها كما يعرض العكس أيضا وهذا هو سبيل العامية في كثير من أقطار العربية • كما يعرض في أزجالهم تذكير المؤنث وتأنيث المذكر •

ومما تجب الاشارة اليه اقامة الحرف مقام الكلمة فيقيمون الكاف مقام « كان » والخاء مقام « خذ » فمن الاول قول مدغليس :

وكنحلف أن لا نعشق أبداً   لولا ما نخشى بشرّين اليمين

يريد « وكنا نحلف » ، وهذا كثير في أزجالهم

ومن الثاني قول ابن حسون الحلا في زجل له :

قد ضحك ضوء الصباح   وافتضح سر النوار

لا زمان غير ذا الزمان   الصلاهْ على الرسول

خُترا ذا المهرجان   خُترا جَرّ الذيول

فقوله : « خُترا » بمعنى « خذ ترى » •

وفي هذه الازجال تتضح العامية بألوانها فقد تغيرت الكلمة الفصيحة تغييراً اقتضته طبيعة العامية في ميلها الى اختصار الكلمة • ألا ترى ان «ليس» صارت « لس » و « الذي » صارت « اللى » و « الساعة » صارت « السا » كقول ابن قزمان في زجل له :

« تعرفْ اسماها (السا) يقل لك لا » في الكلام على الخمر

وهذا نظير ما حدث في اللغات الدارجة في ديار المشرق العربي •

وكأنهم اشترطوا على الزجال أن يوغل في هذه الالوان العامية فقد ذكروا ان ابن قزمان امام الزاجلين قد قال في الكلام على عيوب الزجل :

« ومن عيوب الزجل اعراب كلامه سيما ان قصد الاعراب وأحسن ما كان منه باللغة العامية »[٢٢] وقد قال في خطبة ديوانه : وقد جردت فني من الاعراب كما يجرد السيف من القراب ، فمن دخل علي من هذا البـاب فقد أخطأ وما أصاب » •

وبعد فهذه جملة فوائد اقتبسناها لنذيل بها هذا الفصل وهي تكشف عن ألوان من العامية الاندلسية في عصر ملوك الطوائف •

(٢٢) الكتاب العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي» عنى بتصحيحه ولهـلم هونرباخ الالماني » ص٦٨ • والازجـال التي ذكرتها من الكتاب نفسه •

ابراد اللآل من انشاد الصوال
لابن خاتمة الاندلسي
حققه وعلق عليه الدكتور ابراهيم السامرائي

ابن خاتمة الانصاري(*)

هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمدعلي بن محمد ابن خـــاتمة الانصاري الاندلسي ، طبيب مؤرخ من الادباء البلغاء ، من أهل المريـــة (Alméria) بالاندلس ، تصدر للاقراء فيها بالجامع الاعظم ، زار غرناطة مرات ، قال لسان الدين بن الخطيب في « الاحاطة » : « وهو الان بقيـــد الحياة » وذلك ثاني عشر شعبان سنة ٧٧٠ » .

وقال ابن الجزري : « توفي وله نيف وسبعون سنة » .

ولم نستطع التثبت من تاريخ وفاته .

تصانيفه :

١ ــ مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية

٢ ــ رائق التحلية في فائق التورية

٣ ــ الحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس

٤ ــ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد

وقد وضعه سنة ٧٤٧هـ ابان تفشي الطاعون في المرية وسائر البلدان

وقد سماه الافرنج « الطاعون الاسود » (La Peste Noire)

٥ ــ ايراد اللآل من انشاد الضوال

(*) الاحاطة ١/١١٤ ، غاية النهاية ١/٨٧ ، معجم الاطباء ١١١ ، الاعلام ١/١٧١ ، وهدية العارفين ١/١١٣ وشجرة النور ٢٢٩ ، وانظر G.A.L, t II pp. 259

أدرج علماء اللغة كتاب ابن خاتمة هذا ضمن كتب « لحن العامة » .
وقد اهتم المستشرقون كما اهتم العرب أنفسهم بهذا الضرب من الكتب(**).

(**) ١ ـ ظهرت أول قائمة لكتب « لحن العامة » سنة ١٨٧١ .
وقد صنف هذا الثبت « توربيكه Thorbecke » وكان ذلك في مقدمته لكتاب « درة الغواص في أوهام الخواص » للحريرى .

٢ ـ وقد استدرك Goldziher على ما فعله توربيكه فنشر ذلك في مجلة جمعية المستشرقين الالمان Z.D.M.G. Bd. 27 سنة ١٨٧٣ ص ١٥٨ وما بعدها .

٣ ـ وقد استدرك المؤلف نفسه في مقال آخر نشره في المجلة المذكورة سنة ١٨٨١ ص١٤٧ـ١٥٢ نبه فيه على ان في شرح النووي على مسلم وفي الكشكول للعاملي اقتباسات من كتاب « تثقيف اللسان » لابن مكي الصقلي .

٤ ـ وفي عام ١٩٣٤ كتب عيسى اسكندر المعلوف مقالا في « اللهجة العربية العامية » في العدد الاول من مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ص ٣٥٠ـ٣٦٨ عرض فيه لمؤلفات القدماء التي تبحث في العامي والدخيل والمعرب . ثم عاد فنشر مقالا آخر في العدد الثالث من المجلة المذكورة .

٥ ـ وفي عام ١٩٣٦ نشر عزالدين التنوخي كتاب « تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة » للجواليقي بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مجلد ١٤ ص ١٦٣ـ٢٢٦) وعرض في المقدمة لطائفة من كتب « لحن العامة » .

٦ ـ ثم عقب كوركيس عواد في مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مجلد ١٧ سنة ١٩٤٢) ص ٢٧٢ـ٢٨٣ فاشار الى طائفة من كتب لحن العامة وكان عنوان مقالته : « نظائر أخرى لتكملة الجواليقي » .

٧ ـ وجاء عبدالقادر المغربي واستدرك على سابقيه فنشر ثبا آخر في مقالة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مجلد ٢٥ سنة ١٩٥٠) ص ٤٧١ـ٤٧٧ عنوانها « كتاب تصحيح التصحيف للصلاح الصفدي » .

٨ ـ وفي عام ١٩٥٣ نشر « حسن حسني عبدالوهاب الصمادحي » كتاب « الجمانة في ازالة الرطانة » لاحد علماء المغرب في القرن التاسع الهجري وأحصى مما ألفه علماء المغرب والاندلس في لحن العامة أحد عشر كتابا .

٩ ـ وفي عام ١٩٥٦ نشر المستشرق الايطالي « امبرتو ريزيتانو » Umberto Rizzitano قائمة بكتب لحن العامة في مقدمة دراسته لكتاب « تثقيف اللسان » لابن مكي الصقلي نشرها في مجلة مركز الدراسات الشرقية الايطالي .

وكتاب ابن خاتمة هذا يعرض لطائفة من الكلمات مما ورد في الفصيح فاستعملها العامة فغيروا من ضبطها أو غيروا من دلالتها • على ان جملة كبيرة من هذه المواد بقيت في لغة العوام على هيأتها الفصيحة •

ولم نعرف الا القليل عما كتب في عامية الاندلس والمغرب على كثرة المصنفات التي أشارت اليهــا كتب الفهــارس وكتب التراجم ولكنها لم تصل الينا •

وقد أشار ابن خاتمة الى أن كتابه كان مما اختصره من كتاب ابن هشام السبتي في لغة عامة أهل الاندلس •

وابن هشام[1] هنا هو محمد بن أحمد بن هشام بن ابراهيم بن خلف اللخمي السبتي وكنيته أبو عبدالله ، أديب ولغوي أندلسي •

أخذ عن أبي بكر بن الاعرابي وأبي طاهر السلفي ونقل عنهما ، ودرس النحو واللغة والأدب • واهتم باللغة اهتماما كبيرا • وصنف كثيرا من الكتب وهي :

١ ـ الفصول والجمل وفيه شرح لشواهد الجمل للزجاجي

٢ ـ كتاب لحن العامة

٣ ـ شرح فصيح ثعلب

٤ ـ سرح مقصورة ابن دريد

٥ ـ المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان[2]

---

١٠ ـ استدرك صديقنا الدكتور رمضان عبدالتواب عــلى قائمة « زيزتانو » وصحيح فيها في كتابه « لحن العامة والتطور اللغوي » ص٨٢ • كما نجد عرضا وافيا في هذا الكتاب لقوائم الكتب التي أشرنا اليها وزاد عليها فوائد ذات قيمة في هذا الموضوع •

استدراك : فاتنا ان نشير الى ان في فهرس المخطوطات الملكية لخزانة برلين قائمة بالمصنفات الـ(Vol. 6 1894 p. 319) التي جمعها W. Ahlwardt

(١) انظر التكملة لابن الابار ١/٣٧٠ وبغية الوعاة •

(٢) ما زاده السيوطي على ما ذكره ابن الابار ••

وفي الاسكوريال مخطوطتان برقم (٤٦) و (٩٩) لابن هشام في باب « لحن العامة » كما في فهرست (درنبورغ) .

المخطوطة الاولى رقم (٤٦) وهي تشتمل على « كتاب الرد على الزبيدي »[٣] في « لحن العوام » وقد أشار (درنبورغ) ان ابن هشام لا يرد على الزبيدي وحده بل انه يرد على ابن مكي[٤] صاحب « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان »

أما المخطوطة الثانية رقم (٩٩) فان «درنبورغ» قد أشار الى أنها تتضمن مادة المخطوطة الاولى (٤٦) وهذه المخطوطة هي التي أشار اليها السيوطي وسماها « المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان » .

ومن الغريب ان ابن الأبار لم يشر بشيء الى هذا الكتاب . ولعل هذا الكتاب هو كتاب « لحن العامة » الذي أشار اليه ابن الأبار .

وكانت وفاة ابن هشام هذا سنة ٥٦٠هـ .

ولقد أشار صاحبنا ابن خاتمة الى ابن هاني السبتي[٥] وهو محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي أبو عبدالله المتوفى سنة ٧٣٣هـ . وقد أشار السيوطي الى ان له من التصانيف « لحن العامة » .

ولعل هذا الكتاب هو الذي أشار اليه ابن خاتمة وسماه « انشاد الضوال وارشاد السؤال » واختصره في كتابه الموسوم بـ « ايراد اللآل من انشاد الضوال ... »

---

(٣) هو ابو بكر محمد بن الحسن النحوي واللغوي الاندلسي . سكن قرطبة وكان تلميذ ابي علي القالي وقو توفي سنة ٣٧٩هـ وكان اول من بحث في « لحن العامة » في الاندلس . أنظر بقية الوعاة ص٣٤ وارشاد الاريب ٥١٨/٦ .

(٤) أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي المتوفى سنة ٥٠١هـ . أنظر انباه الرواة على انباه النحاة ٣٢٩/٢ ، بغية الوعاة ص ٣٦١ .

(٥) انظر البغية ٨٢ .

عملنا في « ايراد اللآل »

لقد نشر المستشرق الفرنسي G.S. Colin هذا الكتاب في مجلة Hesperis V. 12 1931 وقدم له • وقد وجدت ان تلك النشرة لم تستوف حقها من العناية فتيسر الفوائد للدارسين • ثم انها خلت من كثير من التعليقات المفيدة فكان ذلك حافزا على اعادة نشرها واكمالها بما بدا لي انه مفيد ضروري •

ومن المفيد أن أشير الى أن تلك النشرة نادرة كل الندرة ذلك أنها من مواد المجلة المشار اليها • والمجلة عزيزة المنال في ديارنا المشرقية بل قل لا وجود لها في كثير من بلداننا في المشرق العربي •

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

ومن « ايراد اللآل من انشـاد الضـوال » لابن خاتمة الانصاري ـ رحمه الله ـ اختصر فيه كتاب « انشاد الضوال وارشاد السؤال للاستاذ أبي عبدالله بن هاني السبتي الذي رتب فيه « لحن العامة » للاستاذ النحوي أبي عبدالله ابن هشام ـ رحم الله الجميع بمنه ـ :

أصوُع وأصوُع وآصُع (على القلب) وأُصْع (على النقل) ـ لغات في جمع صاع وهو يُذَكَّر ويؤنَّث[٦] •

اصبع وأنملة ـ في كل واحد منهما تسع لغات : فتح الاول والثالث وضمهما معاً ، وكسرهما ، وبفتح الاول وضم الثالث وكسره ، وضم الاول وفتح الثالث وكسره ، وكسر الاول وفتح الثالث وضمه •

وفي « اصبع » لغة عاشرة وهي « أُصبوع » مثل أسلوب والأفصح

(٦) ليس في استعمال العوام لهذا اللفظ ما يبعده عن الفصيح المشهور •

في « الاصبع » كسر الاول وفتح الثالث ، وفي « الانملة » فتحهما معاً[٧] .

اسرافيل ـ يقال اللام والنون ، وكذلك اسماعيل واسرائيل[٨] .

أبثار وآبار (على النقل) وأبؤر وبثار وإبار (على القلب) جمع بئر[٩].

اصطبل ـ (باسكان الباء وتخفيف اللام) لموقف الدواب ، ويجمع على أصاطب وأصاطيب وصطابل وصطابيل ، ويصغر على أُصَيطِب وصُطَيبِل[١٠] .

برقع ـ فيه ثلاث لغات ضم القاف وفتحها وبرقوع بالواو .

بطة ـ للذكر والانثى والجمع بطّ ، وهي الإوزّة . والبطة أيضاً

---

(٧) ومثل « أصوع » اصبع وانملة فاستعمال العامة لهما جار على الفصاحة .

(٨) جاء في المعرب ص ١٤ : اسماعيل فيه لغتان : « اسماعيل » و « اسماعين » .

قال الراجز :

قالت جواري الحي لما جينا هذا ورب البيت اسماعينا

وأما اسرائيل ففيه لغات قالوا : « اسرال » كما قالوا : « ميكال » وقالوا : « اسرائيل » وقالوا أيضا : « اسرائين » بالنون . قال أمية على « اسرال » :

لا أرى من يعينني في حياتي غير نفسي الا بني اسرال

وقال أعرابي صاد ضبا فجاء به الى أهله ، وقال :

يقول أهل السوق لما جينا هـذا ورب البيت اسرائينا

(٩) قال G.S. Colin في تعليقه : تحولت الكلمة الى « بير » في عامية أهل الاندلس كما قالوا لصانع البئر « بيار » .

قلت : وليس في معجمات العربية (اِبار) جمع بئر .

(١٠) جاء في اللسان : قال ابن بري : لم يذكر الجوهري الاصطبل لانه أعجمي ، وقد تكلمت به العرب .

قلت : وجمعه في لغة أهل عصرنا اصطبلات على التأنيث . وقال G.S. Colin في اللاتينية Stablum ومنه اختصر صبال وجمعه صبول . وفي اليمن في عصرنا هذا صبل للملجأ الذي يلتجيء اليه المسافر في الطريق .

الإناء الذي يجعل فيه الزيت وهي لغة شامية عربية صحيحة[١١] .

برنامج – (بفتح الميم) كلمة فارسية وهو زمام تسمية متاع التجار وسلعهم وقد قيل « برنامُج » بكسر الميم والاول أشهر[١٢] .

بَوقال – بفتح الباء والجمع بواقيل[١٣] .

برّادة – والجمع براريد عربية فصيحة، ويقال لها السقاية أيضا[١٤]

بلورج – للطائر المعروف الآتي في الربيع[١٥] .

ثمان – في عدد المؤنث يقال باثبات الياء نصباً وحذفها خفضاً ورفعاً ، وحكمه حكم المنقوص في كافة أحواله وبحذفها جملة ، والاعراب على النون وكذلك ثماني عشرة يقال باثبات الياء وحذفها .

ثلاثة الدنانير وأربعة الدراهم – وكـــذلك الى العشرة يقال بحذف الالف واللام من أسماء الاعداد في حالة اضافتها الى العشر المعرّف بالألف واللام ، وهو المختار عند جميع النحاة كوفيهم وبصريّهم . وأجاز الكوفيون مع ذلك قياساً اثباتهما فنقول : الثلاثة دنانير والاربعة دراهم[١٦] .

---

(١١) كذا في «اللسان» وزاد عليه : انها أعجمية معربة . وفيه : ان البطة الدّبّة بلغة أهل مكة لانها تعمل على شكل البطة من الحيوان . وأنظر « المعرب » ص٦٤ .

(١٢) الالفاظ الفارسية المعربة ص١٥ وهو تعريب بارنامه .

(١٣) جاء في « اللسان » : انه ضرب من الكيزان .

(١٤) جاء في « اللسان » : قال الازهري : لا أدري أمن كلام العرب أم المولدين .

(١٥) قال G.S. Colin من اليونانية « بلارج » هو معروف في بلاد الشمالي الافريقي Cigogne أنظر W. Marcé: Textes Arabes de Tanger, p. 235

وهو معروف في اسبانيا باسم Bullaga

(١٦) الذي اجازه الكوفيون من تعريف العدد دون المعــدود هــو الشائع في لغتنا الحديثة . ولا يلجأ الى الاسلوب الاول نحو ثلاثة الدراهم .

جير وجيّار ـ لغتان بمعنى وهو الذي تلاط به البيوت[١٧] ٠

جدري : يقال بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما معاً ٠

جسر ـ للقنطرة ، يقال بفتح الجيم وكسرها ٠

جِزّة الصوف ـ بكسر الجيم ٠

جُمادى الأولى وجمادى الآخرة ـ على التأنيث ، وأجاز قطرب[١٨] :

جمادى الاول وجمادى الآخِر على التذكير وقال : اذا قلت الاول والآخر فعلى تذكير المفسر ، واذا قلت الاولى والآخرة فعلى تأنيث جمادى فالتأنيث محمول على اللفظ والتذكير على المعنى ٠

ذو الحجة ـ بكسر الحاء خاصة وفي «المشارق»[١٩] : « ذو الحجة بفتح الحاء ولا يجوز فيه الكسر عند أكثرهم وأجازه بعضهم » على ما قيل أولا ٠

خَوخ ـ بفتح الخاء والواحدة خَوخة وهو الفرسك[٢٠] ٠ والخوخة أيضا الكوّة النافذة في الحائط ٠

---

(١٧) في معجم ابن الحشاء : ان الجير كلمة عامية تعني الجبس او الجص Chaux واللفظ الفصيح جيار الا أن هذا قد ترك استعماله لانصرافه الى العامل في الجير G.S. Colin

(١٨) هو ابو علي محمد بن المستنير البصري المعروف بقطرب لحد العلماء باللغة والنحو ٠ المتوفي سنة ٢٠٦هـ ٠ أنظر ترجمته في أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص٤٩ ، نزهة الالباء لابن الانباري ص٦٠ ، بغية الوعاة ص١٠٤ ٠

(١٩) انظر «مشارق الانوار » على صحاح الآثار » للقاضي عياض ط٠ فاس سنة ١٣٢٨ ص١٨١ ٠

(٢٠) لعل الفرسك من اليونانية او من اللاتينية

خولِنجان ـ باشباع الخاء واواً ولام مكسورة[٢١] .

دفتر[٢٢] ـ بفتح الدال وكسرها وتفتر بابدال الدال تاء لغات بمعنى.

ديس[٢٣] ـ لفظ عامي والعرب تسميه الأسل وهو الذي تتخذ منه الحُصُر . ووقع في كلام أبي حنيفة ما يقتضي ان الديس عربي .

دُرّاعة[٢٤] ـ بضم الدال وتشديد الراء .

رغوة ـ مثلثة الراء ورَغاوة ورغاية خمس لغات .

الرخْو والرطْل ـ يقالان بفتح الراء وكسرها والكسر أفصح .

رَبيع الأول وربيع الثاني ـ بتنوين عينهما وقد يحذف لالتقاء الساكنين وبابه الضرورة .

زجاج ـ مثلث الزاء .

زريعة ـ بالتخفيف للحب المزدرع والجمع زرائع ، وزِرّيعة بكسر الاول وتشديد الثاني والجمع زراريع وليس في الكلام فَعِّيل ولا فعيّلة بالفتح .

---

(٢١) لم يذكر « الخولنجان » في « المعرب » ولا في « شفاء الغليل » ولا في « كتاب الالفاظ الفارسية المعربة » . ولعله الخلنج وهو شجر فارسي تتخذ من خشبه الاواني والجمع الخلانج . انظر اللسان «خلنج» .

(٢٢) جاء في « المعرب » ص١٤٧ : ان الدفتر عربي صحيح لا خلاف في ذلك . قال ابن الانباري : ولا يعرف له اشتقاق . وأنظر شفاء الغليل . أما « التفتر » فقد جاء في « اللسان » : انه لغة في الدفتر ، حكاه كراع عن اللحياني ، قال ابن سيده : وأراه عجميا .

(٢٣) لعله من العامية الاندلسية . أما الاسل فقد ذكر أبو حنيفة « اللسان » : انه عيدان تنبت طوالا دقاقا مستوية لا ورق لها يعمل منها الحصر .

(٢٤) الدُراعة والمِدرَع : ضرب من الثياب التي تلبس ، وقيل جبة مشقوقة المقدّم . اللسان (درع) .

زُفَيزَف[٢٥] ـ أعجمي وهو عند العرب العُنّاب •

زريابي ـ للفول المقلو المملوح منسوب الى زرياب غـلام اسحاق الموصلي وهو أول من اتخذه فنسب آليه •

زِرِبية[٢٦] ـ بكسر أوله للطِنفسة والجمع زرابي •

طفال[٢٧] ـ بكسر الطاء وضمها للطين اليابس الذي يغسل به الشعر ، وهو الطربون أيضا •

طفل ـ بكسر الطاء للصبي الصغير والمؤنثة طفلة ، وأما الطفلة بالفتح فالجارية الناعمة الجسم •

كاغد[٢٨] ـ يقال بالذال معجمة ومهملة وبالظاء المعجمة أيضا ، وهذه عن ثعلب وأبي بكر بن دريد •

كبد وكرش ـ فيهما ثلاث لغات : فتح الفاء وكسر العين ، وسكون العين مع كسر الفاء وفتحها ، وكذلك فيما شاكلهما ، فان كان الثاني حرف حلق ك (لعب) و (ضحك) جاز أيضا كسر الفاء اتباعا •

كراء ـ بالمد والقصر لغتان بمعنى ، ومن قصر كتب بالألف لقولهم :

---

(٢٥) لم يذكر « زفيزف » في كتب اللغة • وليس في كتب المعرب والدخيل ذكر له ، ولعله مما عربه أو استعمله عامة أهـل الاندلس ، والذي يدل على هذا تعليق Colin عليه فقال : زفزوف من اللغة الدارجة في الشمالي الافريقي وهو Jujubier • وفي جامع « مفردات ابن البيطار ٢/١٦٥ » انه العناب عند أهل الاندلس •

(٢٦) في اللسان : الزربية الطنفسة وتكسر زايها وتفتـح وتضم وجمعها زرابي • وقال الفراء في قوله تعالى « وزرابي مبثوثة » الطنافس لها خمل • وروى عن المؤرج أنه قال في قوله تعالى « الآية » : زرابي النبت اذا اصفر أو احمر وفيه خضرة •

(٢٧) لم اهتد الى وجود الطفال أو الطربون فيما بين يدي من مظان • ولعلهما من عامية الاندلس •

(٢٨) في « كتاب الالفاظ الفارسية المعربة » : أنه فارسي محض بمعنى القرطاس • ولا وجود له في « شفاء الغليل » •

« أعط الأجير كِرْوته » .

كراع - بضم الكاف وهو من الانسان ما دون الركبة ، ومن الدواب ما دون الكعب .

كِرسنّة[29] - بكسر الكاف لنبات معروف .

كوّة - بالفتح والضم والاول أفصح وأشهر .

كَبَر[30] - بفتح الكاف والباء المخففة لنبات معروف .

كَرَويا[31] - قال أبو حنيفة : الكَرَويا تابل ليس بعربي ، ولا يُدرى أيمدّ أم لا فان مُدّ فهو انثى .

كدس - يقال بضم الكاف وفتحها والجمع أكداس وهو ما جمع من طعام أو غيره .

كنبوش[32] - لفظ أعجمي تقوله العامة لما تجعله المرأة على رأسها تحت مقنعتها من حرير وغيره ، وهو عند العرب الصقاع[33] والغفارة[34]

---

(٢٩) جاء في جامع « مفردات ابن البيطار ٤/٦٣ : أنها شجيرة صغيرة دقيقة الورق والاغصان لها ثمر في غلف » .

(٣٠) جاء في « المعرب » : قال ابو بكر : واحسب ان الكبر معرب واسمه بالعربية الأصَف . قال أحمد محمد شاكر محقق « المعرب » : لم أجد هنا النص في « الجمهرة » ولكن فيها : ٣/٢٦٠ : « الاصف الشجر الذي يسمى الكبر وأهل نجد يسمونه الشفلّح . وكذا في « الجمهرة » ٣/٣٢٩ . وفي « اللسان » : الكبر الآصف فارسي معرب وهو نبات له شوك . ونقل أدي شير ان لفظه في الفارسية كلفظه في العربية . والذي يترجح عندي انه عربي خالص .

(٣١) في جامع « مفردات ابن البيطار » ٤/٦٥ : هي القرنباذ والقرنقار وهو بزر صغير الحبة معروف عند الناس ..

(٣٢) ليس الكنبوش من مواد « المعرب » ولا « شفاء الغليل » الا ان ادي شير في كتاب « الالفاظ الفارسية المعربة » قد ذكر انه : البرذعة تجعل تحت سرج الفرس .

(٣٣) في « اللسان » الصقاع : خرقة تكون على رأس المرأة توقي بها الخمار من الدهن . وربما قيل للبرقع صقاع ، وله معان أخرى .

(٣٤) في « اللسان » الغفارة : خرقة تكون دون المقنعة توقي بها المرأة الخمار من الدهن . ولها معان أخرى .

والوقاية[٣٥] والوقية[٣٦] والشُنتُقة[٣٧] .

كشاجم[٣٨] ـ بفتح الكاف لقب لشاعر جمعت أحرفه من صناعاته أخذت الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من منجم ، والميم من مغن ، ثم طلب الطب بعد ذلك حتى مهر فيه وصار أكثر علمه فزاد في لقبه طاء من طبيب ، وقدمت على سائر الحروف لغلبة الطب عليه ، فقيل طكشاجم ، ولكنه لم يسر سير كشاجم .

كوب ـ لبعض الآنية وزعم أبو عبيدة ان الكوب من الأباريق ، الواسع الذي لا خرطوم له ، وقيل : بل هو الذي لا عروة له .

كوز ـ للاناء اذا كانت له عروة والا فهو كوبة .

كيت وكيت ـ لا يكنّى بهما الا عن الافعال . وذيت وذيت لا يكنى بهما الا عن الاقوال .

لِصّ ـ بكسر اللام وضمها . ولِصت[٣٩] بكسر اللام وفتحها أربع لغات .

---

(٣٥) في « اللسان » : الوِقاء والوَقاء والوِقاية والوَقاية والواقية : كل ما وقيت به شيئا .

(٣٦) أرى أن تكون « الوقيّة » مصحفة من التوقية التي تفيد الكلاءة والحفظ اذ ليس في اللغة « الوقية » .

(٣٧) في « اللسان » : الشنتقة خرقة تكون على رأس المرأة تقي به الخمار من الدهن .

(٣٨) هو محمد بن الحسين (أو ابن محمد بن الحسين) بن السندي بن شاهك ابو الفتح الرملي المعروف بكشاجم شاعر متفنن أديب من كتاب الانشاء . فارسي الاصل توفي سنة ٣٦٠هـ . أنظر الديارات للشابشتي ١٦٧ـ١٧٠ وانظر الاعلام للزركلي ٤٣/٨ .

(٣٩) في اللسان : واللصت لغة في اللص أبدلوا من صاده تاء وغيروا بناء الكلمة لما حدث فيها من البدل ، وقيل : هي لغة ، قال اللحياني : وهي لغة طيء وبعض الانصار وجمعه لصوت . وانظر المعرب ص٢٢١ .

لبان ـ بضم اللام وهو الكنْدُر[٤٠] .

مغزل المرأة ـ مثلث الميم عن المطرز[٤١] والكسر أفصحهما .
مائدة ومَيدة[٤٢] ـ وهي أضعف .
مسجِد[٤٣] ـ ويقال « مسيد » حكاه غير واحد والاول أفصح .

مشمش ـ يقال بكسر الميمين وهو أفصح وبفتحهما وهو أضعف .
مرأة وامرأة ومراة[٤٤] ـ بنقل حركـة الهمزة للراء وتسهيلها ، ومَـرَة بالنقل وحذف الهمزة ، أربع لغات بمعنى .
منديل ـ فيه ثلاث لغات : كسر الميم وهي الفصيحة وحكى ابن جني

---

(٤٠) انظر جامع مفردات ابن البيطار ٤/٨٣ .
(٤١) هو محمد بن عبدالواحد بن ابي هاشم ابو عمر المطرز الباوردي ، المعروف بغلام ثعلب أحد أئمة اللغة صاحب التصانيف الكثيرة المتوفي سنة ٣٤٥هـ أنظر في: انباه الرواة ٣/١٧١ ، نزهة الالباء ص١٩٠ ، بغية الوعاة ٦٩ .
(٤٢) في « شفاء الغليل » ص ٢٥٥ : ميدة لغة في المائدة .
(٤٣) قال G.S. Colin : لم يكن مسيد معروفا في الاندلسية والصيغة الوحيدة التي كانت معروفة هي مَزَّد Mazad ، غير ان اللهجات المغربية الحديثة تعرف « مسيد » Masid والجمع « مسايد » ومعناه المدرسة القرآنية الملحقة بالمسجد الجامع . وكذلك كلمة « جامع » تشتمل على المعنيين كما في : W. Marcais, Texte Arabes de Tanger p. 52
وليس من السهل ان نعرف التاريخ الذي تحول فيه مساجد الى مسايد . والياء ابدال من الجيم . ومنها أخذت الكلمة الاسبانية Mesqida—Mezqita والايطالية Meschita والبربرية ta-Mezqida
وفي اللهجة الاندلسية تحولت مسجد الى مسيد ، مسيّد ثم الى مَزَّد .
ومن المفيد أن نشير الى ان مسيد كانت معروفة في لغة صقلية الاسلامية .
(٤٤) هذه اللغة لم ترد في الكتب المطولة . وهذا يعني ان للكلمة ثلاث لغات منها (مرة) وهي التي بقيت في اكثر الالسن العربية الدارجة وفي هذه اللغة ورد قول الراجز :

تقول عرسى وهي لي في عومرة   بئس امرءا وانني بئس المَرَه

فتحها ، والثالثة مِندل واشتقاقه من الندل وهو الجذب[٤٥] . ويقال له أيضا المشوش .

مِلاك التزويج وإملاكه ـ لغتان بمعنى ، فأما مِلاك الأمر فيقال بكسر الميم وفتحها .

مَعِدة ومِعْدة ـ لغتان بمعنى ككَلِمة وكِلْمة .

مَرْدَقُوش ومَرزَجُوش ومَرْزَنْجوش ـ ثلاث لغات بمعنى العَنقِز[٤٦] .

محبرة ـ فيها خمس لغات فتح الميم والباء ، وكسر الميم وفتح الباء ، وفتح الميم وضم الباء ، وحابورة ، ومحبرّة بتشديد الباء .

ملك اليمين ـ مثلث الميم .

مقبض السكين وغيرها ـ بفتح الميم وكسر الباء ، وكسر الميم وفتح الباء ، وبفتحهما ثلاث لغات بمعنى وو ما قبضت عليه منه .

مخدة ـ بكسر الميم .

---

(٤٥) وفي « اللسان » : قالوا واشتقاقه من الندل اي الوسخ .

(٤٦) في « اللسان » : قال ابو الهيثم : لمردقوش معرب معناه الليّن الاذن ، وفي « القاموس » ان المردقوش معرب « مرده‌كوش » وأن المرزجوش معرب « مرزتكوش » وفي « المعرب » ص٣٠٩ : وليس المرزجوش والمردقوش من كلام العرب ، انما هي بالفارسية « مُردُقوش » (بضم الميم والدال) أي ميت الاذن . وقد استعملوه . قال ابن مقبل :

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية   على سعابيب ماء الضالة اللّجن

نعته بالورد لان المرزجوش اذا بلغ أحمرت أوراقه . والمردقوش أيضا الزعفران . وقال صاحب « المعيار » ، « مرزن » بالفارسية الفأر و « كوش » الاذن ، سمي لانه شبيه بأذن الفأر . وقال ادى شير : المرزنجوش : من الرياحين دقيق الورد بزهر أبيض عطري تعريب « مُرزَن كوش » ومعناه آذان الفأر .

وعنقز صحف « المطبوع » الى « عبقر » وفي «مفردات ابن البيطار» الى عنقر والصحيح ما اثبتناه . وفي « اللسان » : قال ابو حنيفة : ولا يكون الا ببلاد العرب . وأنظر وصفه في « المعتمد » ص٣٣٩ .

منجم[*] ـ مثل منجل للذي يُدَقّ به الوتد وغيره ٠

مِقلين[**] ـ بكسر الميم واللام لبعض الطيور ويكنى بأبي الدنانير ٠

مثرد[٤٧] ـ لفظ مولد يقال بكسر الراء وفتحها وميمه مفتوحة ، ثَرَدَ يثرِدُ ويثرُدُ ٠ فعلى الكسر يقال : بالكسر ، وعلى الضم يقال : بالفتح ٠

مسلخ ـ بفتح الميم لموضع من الحمام تنزل فيه الثياب ٠ فأما المِسلخ بكسرها فالثوب الذي يُسلَخ كالمِجسَد : وهو الثوب الذي يلي الجسد ، والمِفضل : وهو الثوب الذي تتفضل به المرأة ٠

مالنخونياء[٤٨] ـ بنون ساكنة بعد اللام لداء معروف ٠

مُعجَب بنفسه ـ بفتح الجيم للمتكبر من العُجب وهو الكبر ٠

مشِق ـ بفتح الميم وكسر الشين للذي تصطك أليتاه حتى تشحجا[٤٩] والفعل منه : مشِق يمشَق مَشَقاً فهو مَشِق ٠

ميضأة[٥٠] بكسر الميم والهمز للمتوضأ وهو حيث يُتَوضأ والجمع المواضئ والياء فيها منقلبة عن واو لسكونها وانكسار ما قبلها ٠

موسيقاء[٥١] ـ بياء بعد السين ٠

ماء ورد[٥٢] ـ بالمد وقد يقال « ماورد » على لغة من يقول « ما »

(*) وفي اللهجة المغربية « ميجم » ٠

(**) وفي اللهجة المغربية مقنين ٠ وفي الجزائر « مرقومة » ٠

(٤٧) لا وجود له في المعجمات ولا في كتب اللغة الاخرى ٠

(٤٨) لم أجده في سائر كتب المعربات والدخيل ٠ وهو داء السوداء المعروف بين الناس بالمالخوليا ٠

(٤٩) كذا في « اللسان » وهو الصواب أما في المطبوع فقد تصحف الى : تنسحجا ٠

(٥٠) ذكر الخفاجي في « شفاء الغليل ص ٢٥٧ » : ان العامة تقول « ميضة » ٠

(٥١) وقد تقصر فيقال « موسيقى » ، وقد تكون بالياء موسيقي ٠

(٥٢) أنظر جامع « مفردات ابن البيطار » ٤/١٣٦ ٠

بالقصر •

مئبر[٥٣] ـ بكسر الميم والهمزة لمسلة الحديد ، فأما الذي تحبس فيه الا بِـَر فقياسه مـأبـَر •

موسوس ـ بكسر الواو الثانية للذي غلبت الوسوسة وهي حديث النفس •

مُقرِف ـ للذي أمه كريمة وأبوه خسيس وهو المذرّع أيضا ، وانما سُمّي المذرّع للرقمتين في ذراع البغل وانما صارت فيه من أجل الحمار •

النــون

نعنع[٥٤] ـ بضم النونين وفتحهما لريحانة طيبة الريح • قال الزُبَيدي[٥٥] : والضم أعجب الي وأفصح •

نـد[٥٦] ـ بفتح النون وكسرها لضرب من الطيب •

نيّة[٥٧] ـ تقال بتخفيفها وتشديدها •

---

(٥٣) جاء في اللسان : « والابرة مسلة الحديد والجمع ابَر وابار ، قال القطامي :

وقول المرء ينفذ بعد حين اماكن لا تجاوزها الابار

أما المأبَر لما تحبس فيه الابر فهو مقيس لم تذكره كتب اللغة » •

(٥٤) في اللسان : النعنع (بضم النونين وفتحهما) والنعناع : بقله •• والعامة تقول : نَعنَع (بفتحهما) ، وفي الصحاح : ونَعنَع مقصور من نعناع ولم ينسبه الى العامة •

(٥٥) هو أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي المتوفى ٣٧٩هـ • أنظر مقدمة « لحن العوام » ص ٨ـ٣٢ ، وقول الزبيدي المشار اليه في لحن العوام ص٨٨ : وقد روى بعض اللغويين « نعنع » بالفتح والاول « أي بالضم » أفصح وأعرف •

وجاء في « تاج العروس » : أما النعنع فأحسبه عربيا •

(٥٦) في اللسان : الند ضرب من الطيب يدخن به • قال ابن دريد : لا أحسب الند عربيا صحيحا •

(٥٧) لم اهتد الى وجه التخفيف في كتب اللغة ولعله من لحن العوام •

نيشوفر[٥٨] ـ بفتح النون والفاء ، ونيلوفر باللام لنَور أصفر ينبت بالغُدُر .

نِقس[٥٩] ـ بكسر النون وفتحها للمداد .

نسوة[٦٠] ـ بكسر النون وضمها لغتان .

نحوي[٦١] ـ باسكان الحاء وفتحها منسوب الى النحو ، وقد أجمع نحاة الكوفة وطائفة من نحاة البصرة على جواز فتح عين فعل اذا كان حلقياً .

نُعَرة ـ مثل تؤدة ذباب أخضر أزرق يدخل في أنوف الذباب .

نغنغة ـ بضم النونين اللحمة المتدلية على أعلى الحلق .

نفاخة ـ بفتح النون وهي الحجا والواحدة حجاة[٦٢] وهي الفقاقيع التي تطفو على الماء ، وهي الحَباب أيضا والواحدة حَبابة .

الصـــاد

صِنْف ـ بكسر الصاد وفتحها للنوع .

صَنَوبر ـ بفتح الصاد والنون لضرب من الشجر معروف .

صِفْر ـ بكسر الصاد للشيء الخالي ويكون للواحد والجمع .

---

(٥٨) ذكر الخفاجي في شفاء الغليل ص٢٦٧ : انه اسم فارسي ... وقد تلاعبوا به فخففوه وقالوا نَوفر . وذكره أدي شير ص١٥٥ .

(٥٩) في اللسان : النقس الذي يكتب به بالكسر . ولعل النقس بفتح النون المشار اليه من لحن العامة .

(٦٠) وكذا النِسوان والنُسوان (بالكسر والضم) (اللسان) .

(٦١) أقول : ان فتح عين الفعل اذا كان حلقيا غالب في العربيـــة وليس مسألة جواز . ولا يدخل في هذا «نحو» . والذي أراه ان الفتح في حاء « نحوي » من باب لحن العوام .

(٦٢) في اللسان : والحجاة نُفّاخة الماء من قطر أو غيره . وقـد ضبطت النفاخة بضم النون وتشديد الفاء وهذا يعني ان «النفاخة» بفتح النون المشار اليها من لحن العوام .

صَب[٦٣] ـ لغة عجمية تقولها العامة زجراً للهر اذا أبعدته ، وانما تقول له العرب : إخسأ وكذلك للكلب •

صِراح ـ بكسر الصاد مصدر صارحت بالأمر تقول : فعلت ذلك صِراحاً فأما الصُراح بالضم فالخالص من كل شيء •

صَقَلية ـ بفتح الصاد والقاف لجزيرة معروفة •

الضـــاد

ضحية ـ فيها أربع لغات : أُضحية (بضم الهمزة) وهي العليا ، وإضحية (بكسرها) ، وأضحاة ، وضحية وهي أضعفها •

صفّة الوادي ـ بكسر الضاد وضمها لجانبه •

العـين

عَزَب[٦٤] (بفتح العين والزاي) للذكر والانثى وهو مصدر وصف به لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث •

عجزت عن الشيء ـ (بفتح الجيم وقد تكسر) اذا لم تستطعه ، فان استطعته قلت : كسلت عنه •

عارية ـ (بتشديد الياء) والتخفيف فيها لغة قليلة ، وقالوا أيضـا « عارة » مثل غارة •

عجوز وعجوزة ـ لغتان بمعنى والأولى أفصح •

عَزَف ـ لفظ أعجمي تقوله العامة لورق الدوم[٦٥] وهو عند العرب الخوص والواحدة خوصة ، والخوص أيضا ورق النخل وما شاكله•

---

(٦٣) يبدو أن « صب » كلمة أندلسية ما زال المغاربة يستعملونها زجرا للقط • وهي في الاسبانية zədʊz لزجر الكلب والقط •

(٦٤) جاء في اللسان : رجل عزب لا أهل له • وامرأة عزبة وعزب لا زوج لها •

(٦٥) في اللسان : قال أبو منصور : الدوم شجر يشبه النخل الا أنه يثمر المقل ، وله ليف وخوص مثل خوص النخل •

الفـاء

فِـدِنْر وفَـرِند[٦٦] ـ لغتان بمعنى ، وفي الصحاح إفرند (بالهمز)، وهي طرائق السيف .

فقار الظهر ـ بفتح الفاء والواحدة فقارة وكذلك ذو الفقار سيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فشطان[٦٧] ـ اسم أعجمي تقوله العامة لبعض الثياب الروملة .

فَقوّص[٦٨] ـ بفتح الفاء .

القـاف

قُنفـذ ـ بالذال المعجمة وعينه تضم وتفتح ويقال له أيضا قُنْفُط وقَنفَط[٦٩] .

قراميد[٧٠] لآجـر مطبوخ فارسي معرّب والواحد قِرميد . فأما القَرمَد فما طلي به الحائط من جص أو جَيّار[٧١] أو غيرهما .

قط ـ والانثى قطة ، ويقال له أيضا الهر والسِنّور والقطّوس[٧٢] والضيون .

---

(٦٦) الفرند والافرند لغتان أما الفدنر فهو على القلب ولم يرد في كتب اللغة وأكبر الظن أنه من الكلام العامي ، فالعـامة يقلبون كثيرا من الكلم الفصيح .

(٦٧) الفشطان من العامية الاندلسية وهو من الكلمة الرومانية فستان

(٦٨) في اللسان ان الفقوص هو البطيخ . وما زالت الكلمة معروفة في الشمالي الافريقي لتدل على اليقطين الافرنجي .

(٦٩) لعـل القنفط (بضم القاف والفاء) وفتحهما من العاميـة الاندلسية . وفي اللهجات المغربية الحديثة نرى « قُنفود » أو « قنفوط » .

(٧٠) في « المعرب » ص٢٥٤ قال ابن دريد : القرميد قالوا : هـو الآجر بالرومية أو شيء يشبهه .

(٧١) جيار الصاروج وهو اذا خلط الرماد بالنورة . أنظر اللسان.

(٧٢) لعل القطوس من العامية الاندلسية والذي يحمل على هذا ان الكلمة ما زالت معروفة في بلاد الشمالي الافريقي . وهي في اللاتينيـة Cattus . والضيون السنور الذكر .

قُبَّيط[٧٣] ـ وقُبَّيطي وقُبيطاء (بالمد والتخفيف) لضرب من الحلواء وهو الناطف •

قِنَّب[٧٤] ـ يقال بكسر القاف وضمها وهو قِنَّب وقِنَّم •

قماري ـ بكسر القاف وفتحها للعود المنسوب الى مكان بالهند يقال له قِمار وقَمار •

قَيردان ـ بفتح الراء وضمها وكذلك في النسب اليه وأصله فارسي •

قُلّة الجبل وقُنّته ـ أعلاه والقُلّة الجرة العظيمة •

قَطن ـ بنون مخففة للذي تسميه العامة شاه بلوط • فأما القسطل باللام فالغبار •

قبقاب[٧٥] ـ لفظ عامي يطلقونه على ما يصنع من الخشب على هيئة النعل • وانما القبقاب عند العرب الرجل الكثير الكلام • والقبقاب أيضا صوب أنياب الفحل •

قارب[٧٦] ـ (بكسر الزاء) لضرب من السفن •

قرنان[٧٧] ـ (بفتح القاف) الديوث لانه يقرن بأهله غيره •

قُرق[٧٨] ـ لفظ أعجمي والعرب تسميه النعل •

---

(٧٣) هو حلوى من السمسم والعسل يُعرف قبيطي في صقلية ، أما في المغرب قُبّاط •

(٧٤) من المفيد أن نقول انه في اللاتينية Canabis

(٧٥) في اللسان : القبقاب النعل المتخذة من خشب بلغة أهل اليمن • وكذلك للرجل الكثير الكلام وله معان أخرى في كتب اللغة •

(٧٦) من المفيد ان نشير الى انه في اليونانية واللاتينية Carabis

(٧٧) جاء في « شفاء الغليل » ص٢١٣ : قرنان بوزن سكران عامية مولدة • وفي اللهجة الاندلسية « قرّان » • وما زال العراقيون يستعملون في المعنى نفسه « أبو قرون » أي ذو القرون •

(٧٨) ما تزال الكلمة معروفة في اللهجات المغربية وموريتانيا ومالطة وهي رومانية الاصل • وجاء في زجل لابن قزمان (أنظر الشفاء ص ١٥٤)

بعثت قرقي للقراق يصلحو
وقد تعذر قيراط من الثمن
تعليق G.S. Colin

قُمقُم[79] ـ (بضم القافين) لاِناء من نحاس وهو في الرومية ٠
قَدَس ـ (بفتح القاف والدال) والجمع أقداس وقدوس لكيزان الدولاب وهي العمائر[80] ٠
قَفْقَف من البرد وتقفقف وقرقف بمعنى ، والقفقفـة والقرقفـة الرعـدة ٠

السين

سَفَري ـ منوع من الرمان [منسوب] الى سَفَر بن عبدالله وكان من رجال عبدالرحمان الداخل الى الاندلس الأموي ٠ وكان عبدالرحمن قد وجه هدية الى أخته بالشام من الاندلس فوجهت له هي أيضا منطرائف الشام وفواكهه ، فكان فيما وجهته رمان شأمي فلم يصل الى الاندلس الا وقد فسد ، فأعطى عبدالرحمن رجاله من تلك الهدية وقسم عليهم من ذلك الرمان ، فأخذه سفر بن عبدالله وغرسه فنبت فأخذه الناس من عنده وزرعوه ونسبوه اليه فقالوا سفريّ ٠

سفيان[81] ـ (مثلث السين) والضم أفصح ، والفتح أضعف ٠

سوار (بكسر السين وضمها) وأسوار ـ ثلاث لغات بمعنى ٠

سداد ـ (بفتح السين) القصد والصواب ، فأما سِداد الثغر والقارورة وهو ما يسدّ به الشيء فبالكسر ٠

وقولهم : « سداد من عوز ومن عيش » لما تُسَدُّ به الخلة تكسر

---

(٧٩) في اللهجات المغربية : قمقوم ٠

(٨٠) والعمائر بهذا المعنى لم تعرف في اللغة الفصيحة ولا في لهجات الأندلس ولعلها «العصامير» جمع عصمور وهو دلو الدولاب كما قال ابن الاعرابي ٠ وقال الليث : العصامير دلاء المنجنون ٠ وهي عضامير جمع عضمور بالضاد المعجمة (اللسان) ٠

(٨١) جاء في الاشتقاق ص١٦٦ : (سفيان) فُعلان بضم السين وكسرها والاشتقاقة من السافي وهو ما سفته الريح ٠

سينه وتفتح لأنه أُخِذ بطرفين من معنيين : سداد الثغر وسداد الرأي ، ولكونه الى معنى سداد الثغر أقرب كان الكسر أفصح .

سلّة وسل[٨٢] ـ لوعاء كالجؤنة .

سرعان الناس[٨٣] ـ يقال بفتح السين والراء ، وسكون الراء والسين مفتوحة ومضمومة .

ساف[٨٤] ـ لفظ عامي يطلقونه على طائر تسميه العرب الباشق بكسر الشين المعجمة وفتحها .

سرذين[٨٥] ـ بكسر السين وبذال معجمة وليس بعربي .

سانية[٨٦] ـ للبعير ونحوه من الدواب التي يربط بها الرشاء ليخرج الغَرْب من البئر سانية . فأما الآلة فهي الدولاب بضم الدال وفتحها ، والعمود القائم في الوسط المنجنون، والكيزان يقال لها العمائر[٨٧] والأقداس واحدها قَدَس والبئر التي يستقى منها تسمى المستوية .

---

(٨٢) عبارة اللسان : لوعاء كالجؤنة المطبقة . وقال ابن دريد : لا أحسب السلة عربية . ولم ترد في كتب المعرب . والجؤنة سليلة مستديرة مغشاة أدما .

(٨٣) في « اللسان » سَرَعان الناس وسَرْعانهم (بفتحهما ثم بسكون الراء) أوائلهم المستبقون الى الامر . ولا وجه لضم السين الا أن يحمل على لحن العامة .

(٨٤) الساف في الكلام الفصيح لصف الحجارة في الجدار ، يقال : ساف من البناء وسافان وثلاثة آسف .

(٨٥) ويقال : سردين بالدال المهملة . وهذا يدل على تقدم الكلمة في الاستعمال .

(٨٦) هي الناقة التي يستقى عليها أو البعير . وقيل : الغرب وأداته . (اللسان) .

(٨٧) لم يرد هذا المعنى في كلمة « عمارة » في كتب اللغة . وأكبر الظن أنها من مصطلحات الكيزاني في لغة أهل الاندلس . ولعلها «العصامير» انظر مادة « قدس » التي تقدمت في « القاف » .

سَبَنيّة[٨٨] ـ (بفتح السين والباء) لضرب من الثياب ، ومنهم من يهمزها .

سُرّة البطن ـ ما تبقى بعد القطع فان لم تقطع فهي السر والسَرَر أيضا بالفتح .

سلوقي ـ (بفتح السين) لبعض الكلاب منسوب الى سلوق موضع باليمن تنسب اليه الكلاب والدروع .

سحنون ـ (بفتح السين) ويقال بضمها ، اسم لطائر حديد ، لقب به أبو سعيد عبدالسلام[٨٩] لحدة ذهنه في المسائل .

الشين

سونيز ـ (بضم الشين) وشينيز[٩٠] لغة فيه .

شطرنج[٩١] ـ ومن جوز اشتقاقه من المشاطرة قيده بالشين المعجمة . ومن جوّز اشتقاقه التسطير قيده بالسين المهملة . وحكى ابن جني : ان الصواب كسر الشين ليكون على بناء جِردَحل .

---

(٨٨) جاء في اللسان : السبنية ضرب من الثياب تتخذ من مشاقة الكتان اغلظ ما يكون ، وقيل : منسوبة الى موضع بناحية المغرب يقال له سَبَن ، ومنهم من يهمزها فيقول السَبنيئة . قال ابن سيده : وبالجملة فانى لا أحسبها عربية . وما زالت عند المغاربة معروفة « سبنية » بكسر السين وسكون الباء لغطاء الرأس .

(٨٩) هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون قاض ، فقيه انتهت اليه رياسة العلم بالمغرب وقد توفي سنة ٢٤٠ هـ . أنظر معالم الايمان ٢/٤٩ .

(٩٠) الشينيز من البزر بكسر الشين غير مهموز ، عن أبي حنيفة : هي الحبة السوداء ، قال : وهو فارسي الاصل ، قال : والفرس يسمونه الشونيز بضم الشين ، وفي المطبوعة قد صحفت الى « شهنيز » . أنظر اللسان .

(٩١) جاء في « المعرب » ص٢٠٩ : الشطرنج : فارسي معرب . وبعضهم يكسر شينه . جاء في « اللسان » : وكسر الشين فيه أجود ليكون من باب « جردحل » . وقال في « القاموس » : والسين لغة فيه .

شحاذ[٩٢] ـ للسائل يأخذ من الناس اليسير ويشحذهم كما يشحذ المسن الحديدة ويأخذ منها شيئا فشيئا •

شاشية ـ لفظة أعجمية وهي عند العرب القلنسوة[٩٣] •

شهر كذا ـ الشهور كلها بأسمائها دون اضافة الى شهر ، الا ثلاثة فانه يقال فيها شهر كذا وهي : شهر رمضان وشهرا ربيع ، وقد استعملا بغير اضافة والاول أشهر •

الهاء

هرّاقة ـ لفظة عامية يطلقونها على القارورة التي يبول فيها العليل وانما يقال لها مِبولة بكسر الميم •

هات[٩٤] ـ أصلها « ءات » المأخوذ من « ءاتى » « يؤتي » بمعنى أعطى فقلبت الهمزة هاء كما قلبت في أرقت فقيل : هرقت ، وتصريفها تصريف ءات في الافراد والتثنية والجمع •

هيدورة[٩٥] ـ لفظة أعجمية والعرب تسميها المسلاخ •

---

(٩٢) جاء في « شفاء الغليل » ص١٦١ : شحات للسائل وسموا شحاتة بالمثلثة وصوابه شحاذ وشحاذة من شحذ السيف صقله •

(٩٣) في « شفاء الغليل » ص١٦٥ : الشاش هو معروف يلف على الرأس وبعد اللف يسمى عمامة وهو مولد منقول من اللغة الهندية • وما زالت الشاشية معروفة في أقاليم المغرب العربي لضرب من القلانس مصنوعة من الشاش •

(٩٤) الا أظن ان « هات » أصلها « آت » من « آتي » بمعنى أعطى بل الوجه عندي ان هذه لغة وتلك لغة • ومن المؤكد ان الذي يقول «هات» لا يقول «آت» • والهمزة في أول الفعل تقابل الهاء في أول الفعل ومنه : هرق ، وأرق ، وهلا وألا ومثله الزيادة بالهمزة والهاء نحو : هراق وأراق •

(٩٥) لم أجدها في كتب اللغة ولعلها كلمة مغربية قديمة ، والذي يحمل على هذا أنها ما زالت معروفة في المغرب بمعنى جلد الغنم المدبوغ مع ابقاء صوفه ليتخذ منه سجادة •

الـواو

وضم ـ (بفتح الضاد) لكل شيء وقيت به اللحم من الأرض من خشبة أو خِوان أو غير ذلك .

واد ـ لكل بطن مطمئن من الأرض ، وربما استقر فيه ماء والجمع أودية على غير قياس وأوداء وأوداية . قال أبو الفتح : ولم يأت في كلامهم فاعل يجمع على أفعلة غير حرفين خاصة : وادٍ وأودية ، وجائز وأجوزة للجذع يبنى عليه البيت(٩٦) .

اليـاء

وادي يليان ـ لموضـــع قريب من سبتة . ويليان هو صاحب سبتة وطنجة الرومي الذي صالح موسى بن نصير .

يوسف مثلث السين بالواو وبهمزه عوضها . ست لغات بمعنى والضم مع الواو أفصحها .

يونس ـ فيه ست لغات كذلك .

يثق(٩٧) ـ لفظة عامية يطلقونها على الذي يعقد به اللبن والعرب تسميه الاِلفحَة بكسر الهمزة والحاء مخففة ومشددة .

يمنة ويسرة ـ بفتح أولهما وإسكان ثانيهما .

---

(٩٦) الجائز من البيت : الخشبة التي تحمل خشـــب البيت ، والجمع أجوزة وجوزان وجوائز عن السيرافي ، والاولى نادرة ، ونظـــيره واذ وأودية . (اللسان) .

وقد جد في لغة هذا العصر ناد وأندية .

(٩٧) لعلها من عامية أهل الاندلس .

مصادر التحقيق

١ ـ الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، جزءان منه طبعا في مصر ١٣١٩هـ .

٢ ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) لياقوت ، طبعة مرجليوث مصر ١٩٠٧ ـ ١٩٢٥ .

٣ ـ الاعلام لخيرالدين الزركلي ، الطبعة الثانية مصر ١٩٥٩ .

٤ ـ انباه الرواة في انباة النحاة للقفطي ، طبع مصر ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ .

٥ ـ بغية الوعاة للسيوطي طبعة بالاوفسيت بدار المعرفة بيروت .

٦ ـ تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي ، طبع مصر ١٣٠٦ـ١٣٠٧ .

٧ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ، طبع مصر ١٩٥٦ .

٨ ـ تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي ، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق .

٩ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الابار ، طبع جزءان في مجريط ١٨٨٦م والثالث في الجزائر ١٩١٩ م .

١٠ـ الجمانة في ازالة الرطانة لبعض علماء القرن التاسع الهجري ، طبع المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة ١٩٥٣ .

١١ـ جمهرة اللغة لابن دريد ، طبع في حيدر آباد ١٣٤٤ـ١٣٥١هـ .

١٢ ـ الديارات للشابشتي ، طبع في بغداد الطبعة الثانية ١٩٦٠ .

١٣ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف ، طبع مصر ١٣٤٩هـ .

١٤ـ شفاء الغليل للخفاجي ، طبع مصر ١٩٥٢ .

١٥ـ غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين بن الجزري ، طبع مصر ١٣٥١هـ .

١٦ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي ، طبع مصر ١٩١٣ .

١٧ـ كتاب الالفاظ الفارسية المعربة ، لادي شير ، طبع بيروت ١٩٠٨ .

١٨ـ لحن العامة والتطور اللغوي للدكتور رمضان عبدالتواب ، طبع مصر ١٩٦٧م .

١٩ـ لحن العوام للزبيدي طبع مصر ١٩٦٤م .

٢٠ـ لسان العرب لابن منظور طبع بيروت .

٢١ـ مشارق الانوار على صحاح الآثار للقاضي عياض ، طبع فاس سنة ١٣٢٨هـ •

٢٢ـ المعتمد في الادوية المفردة للملك المظفر الاشرف يوسف بن عمر الغساني ملك اليمن ، طبع مصر ١٣٢٧هـ •

٢٣ـ المعرب للجواليقي ، طبع مصر ١٣٦١هـ •

٢٤ـ معيار اللغة لميرزا محمد علي بن محمد صادق الشيرازي ، طبع حجر طهران ١٣١١هـ •

٢٥ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري ، طبع بغداد سنة ١٩٥٩ •

٢٦ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي ، طبع استانبول ١٩٥١ ـ ١٩٥٥ •

فهرس بمواد الكتاب

جدول التصويبات

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
السمار	السمسار	١١٩	١
البطليومي	البطليوسي	١٤٠	١
الصوال	الضوال	٢٠٩	١





المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
مطابع الجمهورية بغداد

صمم الغلاف : محمد سعيد الصكار